يصدرها حلمي مراد
مطبوعات كتابي
النص الكامل لقصة
ايفان ترجنيف
الطويلة الخالدة
مياه الربيع
مصدرة بأروع ترجمة لحياة ترجنيف
بقلم : اندريه موروا
طبعة فاخرة محلاة بعشرات الصور الفوتوغرافية النادرة

ايفان ترجنيف

مياه الربيع

LES EAUX
PRINTANIERES
PAR

IVAN TOURGUÈNIEV

الثمن ١٢ قرشا

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الخامس والخمسون

مياه الربيع

ترجمة : سامى الدروبى

مع مقدمة عن ((حياة تورجنيف))

بقلم : اندريه موروا

ترجمة : ديمترى نخله

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وتسعون كتابا، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر.

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الآمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها خمسة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة ((دكتور جيفاجو))) ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من : ادارة ((كتابى)) : ١٤ شارع ٢٦ يرليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

قصة غرام ((ترجنيف)) ذاته !

عزيزى القارىء ..

لعلك قرأت فى (كتابى) من قبل ، أكثر من قصة ملخصة من روائع أدب الروائى الروسى العاطفى «ايفان ترجنيف» (١) ـ منها على ما اذكر الآن : **(آسـيا)** ، فى العدد (١٣) من كتابى ، و **(الحب الاول)** ، فى العدد (٢٠) .

لكن الفرصة لم تسنح قبل الآن كى أقدم لك النص الكامل لاحدى روايات ترجنيف ، فلما عرض على الصديق الاستاذ «سامى الدروبى» ـ وهو الأديب المدقق ، المتمكن من اللغتين الفرنسية والعربية على السواء ـ ترجمته هذه الكاملة لقصة ترجنيف الطويلة ((**مياه الربيع**)) ـ على حد تعبير النص الفرنسى للقصة ، وهو الذى ترجمها عنه ـ أو ((**سيول الربيع**)) : على حد تعبير الترجمة الانجليزية لها . أعجبتنى القصة بمجرد الانتهاء من قراءتها ، فرأيت فيها فرصة سانحة كى تتعرف معى على عمل كامل من أعمال هذا الأديب الروسى الفحل ، بعد أن تعرفت من قبل فى (كتابى) على عدد من قصصه فى قالب مختصر ..

---

(١) واسمه الكامل « ايفان سرجيفتش **ترجنيف**» ـ أو ((**تورجنييف**)) كما يطلق عليه بالفرنسية ، وكما أطلق عليه « اندريه موروا » فى سيرة حياته التى صدرنا بها هذا العدد .

وموضوع هذه الرواية ، كما هو الشأن فى غالبية رواياته ، هو «الحب» .. لكنه الحب المغلف بتشاؤم « رومانتيكى » !

.. على أن **المفاجأة الحقيقية** فى الأمر ، أو الاعتبار الهام الذى يضفى على هذه الرواية ـ بالذات ـ أهمية خاصة ، تفوق اهمية جميع روايات « ترجنيف » الاخرى .. **هى انها قصة ((واقعية)) .. قصة غرام ((ترجنيف)) نفسه !** .. أو على حد قوله فى الحديث عنها بعد أن نشرها فى عام ١٨٧١ :

((ان (مياه الربيع) قصة ((عشتها)) أنا نفسى ! .. انها قصتى الشخصية .. ومن ثم فانى كتبتها بسهولة ، دون عناء كبير)) .

ولعل هذا يفسر القوة غير العادية التى يلمسها فيها قارئها ، ولا سيما فى تداعى الذكريات حين تتواتر من الماضى على مشاعر بطل القصة .. كما يفسر الوضوح الخالص للصور والاحداث التى يرسمها المؤلف خلالها ، حتى لتبدو وكأنها مألوفة بالنسبة لقارئها ، أيا كان !

وعلى ضوء هذه الصفة « الواقعية » للقصة ، واستكمالا لمتعتك بقراءتها ، رأيت أن أمهد لها بمقدمة طويلة تروى لك سيرة مؤلفها «ترجنيف» ذاته ، كما كتبها ـ بين دفتى كتاب مستقل شائق ـ أشهر كتاب السير فى عصرنا الحاضر : الاديب الفرنسى المعاصر « اندريه موروا » .

والله ولى التوفيق ..

حلمى مراد

القسم الاول

١ ـ نظام روسيا الاجتماعى فى القرن التاسع عشر

ليس من السهل على المرء الذى يعيش فى الحقبة الحاضرة من القرن العشرين ، ان يكون فكرة صحيحة عماكانت عليه حال النبيل الروسى فى غضون القرن التاسع عشر . فقد كان المجتمع فى روسيا يتطور تطورا مضادا لتطوره فى أوروبا الغربية ، حتى لنشعر عند مطالعة تاريخ تلك البلاد فى ذلك العهد بأننا نتخبط فى ظلمات القرون الوسطى ، اذ بينما كان نظام استرقاق الفلاحين آخذا فى الاضمحلال والزوال رويدا رويدا فى أوروبا الغربيـة ، اذا بنا نراه يستقر ويرسـخ فى روسيا !

ومما يفسر لنا هذا الوضع الغريب ، ان الدولة الروسية كانت فى القرن السابع عشر تحتـاج ، بين الفينة والفينة ، الى معونة نبلائها . فكانت تتنازل لهم ـ مقابل ما يؤدونه اليها من خدمات جليلة ـ عن ممتلكات شاسعة مترامية الاطراف يتولى الفلاحون رعايتهـا وحرثهـا وزراعتها .. ومنذ ذلك العهد ، أصبح الفلاح الروسى تابعا للارض ثم لشخص المالك نفسه ! **وكان السيد الروسى أو ((البارين)) كما يدعى فى روسيا ، يملك ألفا أو ألفين أو خمسة آلاف من هؤلاء التعساء ، يتصرف فى امرهم تصرفه فى الماشية ، اذ كان يبيعهم ليشـترى غيرهم ، ويعدم منهم من يشاء ويبقى على من يشاء .. وكان كل من يأوى فلاحا هاربا ، يعـد فى نظر القانون مجرما أثيما حقت عليه اللعنة والعقاب !**

وفى القرن الثامن عشر ، عززت حكومة «كاترين العظيمة» - وكانت امبراطوره مستبده ممن يؤمنون بنظرية الحرية ولا يعملون بها ! - سلطة الملاك ووطدت اركانها . فحصل هؤلاء فى عهدها على حق نفى الفلاحين لاقل الاسباب وأتفهها . وكانوا يزوجونهم على الرغم منهم دون مراعاة لميولهم الطبيعية أو عاطفة الحب عندهم . واذا ما تراءى لاحدهم أن يرفض الزواج لسبب ما ، جز شعر رأسه وارسل الى الجيش للخدمة فيه مدة خمسة وعشرين عاما ! .. وصفوة القول ، ان الفلاح كان عبدا مسخرا لاطعام سيده ، وكان من حق سيده عليه ان يجلده ويبيعه . ويقول المؤرخ «كوستين» فى هذا الصدد : « ان هؤلاء التعساء ما كانوا يملكون من متاع الدنيا شيئا : لا أكواخهم ولا نساءهم بل و لاقلوبهم !!»

ولقد نرتكب خطأ نفسيا وتاريخيا فى آن واحد ، لو تصورنا أن نبلاء روسيا فى ذلك الوقت كانوا أشد ظلما من غيرهم .. اننا نعرف هؤلاء الروس الذين كانوا يعيشون فى سنة ١٨٠٠ ، مما ورد عنهم فى مؤلفات « تولستوى » و « تورجنييف » نفسه . فانهم لم يكونوا أكثر ولا أقل قسوة من السادة الفرنسيين الذين تقدموهم ببضعة قرون ، ولكنهم لسوء حظهم ، جاءوا فى غير أوقاتهم .. وقد كان بعضهم قاسيا ظالما وبعضهم عادلا ذا نفس مترددة قلقة . **على أن معظمهم كانوا على جانب عظيم من البله والكسل ، لا يعرفون فلاحيهم ولا يميلون الى التعرف اليهم !** وكثيرا ما كانوا يخولون ما لهم من سلطة ونفوذ لمن يسيئون استعمالها كى لا يختلطوا بهم أو يهتموا بأمرهم . ولقد كان نظام الرق فى روسيا أشبه بما كان عليه فى عهد الامبراطورية الرومانية ، أو قل ان الفلاحين الروس كانوا أشبه حالا بزنوج الولايات المتحدة قبل تحريرهم . فكانوا يعيشون فى رخاء وسرور

عند بعض السادة ، وفى شقاء ليس بعده شقاء عند البعض الآخر .

وفى أوائل القرن التاسع عشر أى فى عهد القيصر « اسكندر الاول » — وهو امبراطور متصوف متدين — لم يطرأ اى تعديل على حال الفلاحين .. لقد ظن الروس بادىء ذى بدء أن اسكندر الاول سيحاول اصلاح الاوضاع وتجديدها ، على أن ذلك الامبراطور المتدين كان يعتقد فى قرارة نفسه أن العناية الالهية أرسلته لمعاقبة شرور نابليون الاول . وقد بلغ به التعصب لرسالته المزعومة حدا جعله يرى فى كل معارضة ولو هينة خروجا على رسالته ، لا سيما عقب ثورة لواء « سيمنوفسكى » . فقد ساءت ظنونه برعاياه وازدادت شكوكه فيهم وأصبح يعتبر نفسه ضحية جمودهم ، حتى انه لم يبد أقل اهتمام بتحريرهم . وقد كانت روسيا عند مولد تورجنييف عام ١٨١٨ بلاد الاوتوقراطية المطلقة التى لا تعرف للشفقة معنى ولا الى الرحمة سبيلا .

ومن مساوىء ذلك العهد المظلم أيضا ، انه لم يكن فيه أثر لحرية الفكر . فقد عمل الامبراطور اسكندر الاول على تطهير الجامعات الروسية من الوجهتين السياسية والدينية، وأدى تمسكه باهداب الدين وعطفه على رجاله الى نشوء حالة تصوف كاذبة بين المجتمع الروسى . وكان من المحظور على أساتذة الجامعات فى عهده أن يلقنوا المبادىء الفلكية او الجيولوجية الحديثة ، كما أنه كان يفرض على أستاذ الآداب أن يبرهن لطلابه على أن أدب « الكتاب المقدس » هو أرقى الآداب قاطبة ، ويحتم على استاذ الاقتصاد السياسي ان يشيد بالفضائل الناجمة عن تحويل الخيرات

المادية الى خيرات روحية . ولم يكن التشريح فى كلية الطب مسموحا به ، والى جانب ذلك ، لم يكن فى وسع اى كاتب أو صحفى أن يؤلف كتابا أو ينشر مقالا دون عرضه على الرقابة . وكانت الرقابة فى تلك الايام أشد ما تكون صرامة ، حتى أن الفلاح أو رجل الشارع فى فرنسا كان أكثر حرية من أى سيد فى روسيا !

وعند وفاة القيصر اسكندر الاول ، خلفه « نيقولا الاول » ، فحاول هذا أن يعمل على ايجاد نظام حديث ، لولا انه اضطر ، منذ ارتقائه أريكة العرش ، الى مكافحة المؤامرات المفجعة التى نسجت خيوطها فى شهر ديسمبر وأخذ الجنود يهتفون خلالها بحياة « الدستور » ، ظنا منهم أن كلمة «الدستور» ، انما هى اسم عقيلة الغراندوق «قسطنطين» !

.. وهكذا افتتح الامبراطور «الشهم» عهده بأن امر باطلاق المدافع على أفراد شعبه واعتقال المتآمرين وشنقهم . ومنذ ذلك الحين ، خيل الى الامبراطور « العظيم » ــ الذى كان اعداؤه يحاربونه باعتباره الها لا انسانا ــ انه مرغم على استخدام شهامته وبطولته فى الدفاع عن عرشه وتاجه ، ففدا بطل السلطة المطلقة و «دون كيشوت» الاوتوقراطية ، واتخذ شعارا له «الارثوذكسية والاوتوقراطية والوطنية» ، ولم يلبث أن حكم الكنيسة حكما عسكريا فعين أحد قواد فرسانه رئيسا لمجمع الاساقفة المقدس . وهكذا أصبح مروضا للثورات على الرغم منه ، وحاول طوال حياته أن يحوط الطبقة الراقية فى روسيا « بسور أشبه بسور الصين . » !

ومهما يكن من أمر ، فلا يتصورن أحد أن القيصر كان فى ذلك العهد رجلا واسع الثقافة والاطلاع أو على علم بكل ما يقع حوله من صغيرة أو كبيرة .. بل لعل العكس

كان الصحيح ، فقد روى « تورجنييف » فى أحد مؤلفاته أن نظم البروتوكول كانت تحظر على القيصر أن يطالع كتابا قبل اعادة نسخه خصيصا له بخط رسمى . وقد وصف المؤرخ « كوستين » رحلة قامت بها الامبراطورة « كاترين » الى القوقاز ، فقال : «أن ولاة الامور اقاموا على طول الطريق الذى مرت به الامبراطورة منازل من الورق المقوى المدهون كى يوهموها برخاء الشعب الروسى .. وهكذا لم يكن القيصر يعرف من آراء شعبه وميوله سوى المظهر الكاذب الخداع .

على أن هذه البلاد التى كانوا يحاولون ازهاق انفاس الحرية فيها ، كانت تضم طبقة مثقفة لا يخلو فكرها من جرأة وشجاعة . فمنذ عهد «كاترين العظيمة» ، كان معظم النبلاء الروس فى المدن الكبرى متشبعين بأفكار الفلاسفة الفرنسيين حتى أن الامبراطورة نفسها كانت تفكر فى الغاء نظام استرقاق الفلاحين . وكان الشبان النبلاء ممن درسوا على أساتذة فرنسيين وتلقنوا حكمة القرن الثامن عشر الخطير ، يدينون بمبادىء فولتير وديدرو وروسو ؛ وكذلك الضباط الذين اقتفوا آثار نابليون مع جيوش الحلفاء وعاشوا زمنا طويلا فى (باريس) ، **فقد عادوا من فرنسا وقد غزتهم بعد ما غزوها ، فاذا بهم يبدون عظيم استيائهم لبيع الفلاحين فى القرى الروسية ، ويستنكرون اشد الاستنكار الاساليب الوحشية المتبعة فى معاقبة هؤلاء المساكين البائسين** .. وتألفت جمعيات سرية عديدة لنشر تعاليم الثورة الفرنسية ، حتى أن المسيو « لافيرونيه » سفير فرنسا قال يوما للامبراطور نيقولا مازحا أن الطبقة الارستقراطية فى روسيا بأسرها غدت جزءا من المعارضة !

كل ذلك يبين أن السيادة المطلقة من الممكن ان تعيش فى مجتمع يرتضى مبدأها ، وانها تندحر حتما فى ظل مجتمع

يساير حضارة مختلفة عن حضارته وينشد السعادة والهناء .. وقد كانت روسيا فى عام ١٨٢٠ تفتقر الى الاتزان والاستقرار ، وهذه الحالة وان كانت تهدد الامه من الوجهة السياسة بخطر داهم مستطير ، الا انها قد ساعدت على خلق فئة من فطاحل الكتاب فى روسيا ، نظرا لان الاهواء فيها كانت جارفة والانقلابات فجائية عنيفة .

٢ ـ نشأة تورجنييف

أما وقد فرغنا من وصف المجتمع الذى عاش فيه «تورجنييف» ـ وهو مجتمع كان النبيل فيه مطلق السلطة فى علاقاته باتباعه ، ومحروما من كل حرية فى علاقاته بكبار الموظفين وبالقيصر نفسه ـ فاننا نستطيع الاسترسال فى سرد حياة بطلنا فى مختلف اطوارها .

ولد «ايفان سرجييفيتش تورجنييف» بمدينة (أوريل) فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٨١٨ ، من أسرة نبيلة من صغار الملاك تنحدر من أصل تترى . ويقال أن أحد اجداده قدم من آسيا وانخرط فى خدمة القيصر عام ١٤٠٠ وخلف سلالة من القواد والحكام سرعان ما بددوا ثروتهم على مر الايام ؛ بحيث لم يبزغ فجر الجيل الثامن عشر حتى كانت أسرة تورجنييف لا تملك من حطام الدنيا سوى مائة نفس ، وقرية من اعمال ولاية (اوريول) . وكان والد تورجنييف ضابطا مفلسا فى سلاح الفرسان .

ولكن رب الاسرة لم يكن فى الواقع الأب ؛ بل الأم التى كانت تنتمى الى أسرة « لوتوفينوف » وهى أسرة وضيعة الاصل عظيمة الثراء ، تاريخها حافل بحوادث الاجرام .. ومن غريب ما يروى عن جدة تورجنييف ـ وكانت امرأة مشلولة لاتستطيع مغادرة فراشها ـ أنها انهالت فى احد

الايام ضربا بعكازها على الغلام الذى يتولى خدمتها حتى قضت عليه ! .. وقد ورثت والده تورجنييف عن امها شراسة اخلاقها وحدة طبعها ، وقد قضت شبابا قلقا مضطربا اذ عاشت مع أحد أعمامها فى ظروف تدعو الى الريبه والشبهات ، على أن ذلك العم الثرى لم يلبث ان قضى نحبه تاركا لها ممتلكات (سباسكوى) الشاسعة ، وثروة طائلة ، وعشرين قرية ، واكثر من خمسة آلاف نفس !

وكانت « فرفارا بتروفنا لوتوفينوف » ــ والدة تورجنييف ــ مسترجلة فى شبابها ، تهوى القنص على ظهور الجياد وتفوق الرجال براعة فى لعب « البلياردو » . وكانت الى جانب ذلك تتحلى بثقافة عالية وعلم غزير ، وتتذوق الادب والشعر . وكانت تتميز بعينين ساحرتين ، أما أنفها

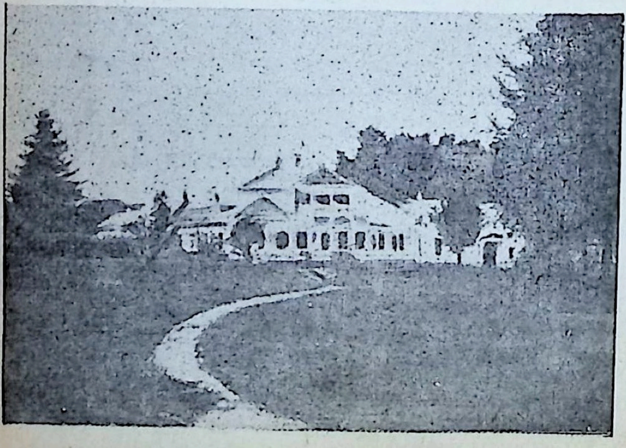

قصر (سباسكويا) ، حيث عاش ترجنيف فترة من صباه

فكان ضخما أفطس وذقنها بارزا دلالة على الصلابة والعزيمة، وكانت عارمة الطباع ، عنيفة النزوات ، تود ان تجد رجلا يحبها لنفسها . ولكنها لم ترق لاحد من الشبان المحيطين بها .

وقد حدث فى أحد أيام الربيع ، ان التقت فى قرية (سباسكوى) المجاورة لقريتها بضابط من ضباط الفرسان، طويل القامة ، أنيق المظهر ، جميل المحيا ، يدعى ((سرج ايفانوفيتش تورجنييف)) . ومع انها كانت تكبره بست سنوات ، فقد قررت الاقتران به . فشرعت فى مغازلته ونصب شباكها حوله .. ولم يحاول الضابط أن يقاوم اغراءها أو يصد هواها ، وانى له ان يفعل والفتاة التى تلاحقه صلبة الارادة ذات عزيمة لاتلين ، سيما اذا كانت تحمل اليه ثروة طائلة تكفل له رغد العيش !.. على ان الضابط الشاب الذى بدا أشبه بعملاق فى هيئته ، كان يحمل بين جنبيه نفس رجل مخنث ، حتى ان الذين كانوا يلمحون صورته معلقة على جدران الدار يحسبونه امرأة أو بالاحرى غانية فى زى ضابط من ضباط الحرس !

وقد تناول تورجنييف فى كتابه « الحب الاول » وصف العلاقة بين والديه ، فقال : « تزوج والدى وهو لايزال شابا جميلا من والدتى – التى كانت تكبره بعشر سنوات – بدافع المنفعة ! .. وقد قضت والدتى الى جانبه حياة تعسه اذ كانت قلقة مضطربة دائما ، تغار على زوجها وتثور لأتفه الامور ، ولكنها لم تكن لتجرأ أن ترفع صوتها فى حضرته خشية بأسه . أما هو فكان باردا متحفظا .. »

وقد كان زواجهما شاذا غريبا حتى لقد اثرت طبيعته – الى حد كبير – فى تشكيل خلق تورجنييف .. فانه لم يرث عن والده ضخامة جسمه وشاربه الاشقر وتخاذله فحسب ، وانما ورث أيضا عن امه حدة الطباع التى كان

من شأنها أن زادت من ضعفه الطبيعي ، فاذا بها تخمد في نفسه كل عزيمة وتقضي على كل ارادة !

وكانت مدام تورجنييف تعتبر نفسها ملكة صغيرة في «سباسكوى» . فكانت تطلق على رئيس خدمها اسم « وزير البلاط » ، وتدعو الخادم المكلف بحمل رسائلها « وزير البريد » ! وكان يتولى صيانة الامن فى أملاكها ضابط شرطة خاص بها . ومما يذكر أنها كانت ترعى جيشا حقيقيا من الاتباع . فقد كان جناحا قصرها اللذان يحتويان على أكثر من أربعين غرفة يأويان من جهة ، الامهات اللاتى ينسجن الملابس ويطرزنها ، ومن جهة أخرى ، الموسيقيين وكانوا من الفلاحين الرقيق . وكان من حق المالك فى ذاك الوقت أن يبتاع من جاره فرقة موسيقية بأكملها . وكان والد تورجنييف يختار خليلاته الجميلات من بين خادماته ، مما كان يذكى نار الغيرة فى صدر زوجته فتنتقم من العبيد لخيانة زوجها لها ! . وقد شاهد تورجنييف فى نعومةاظفاره فلاحين شابين ينفيان الى مجاهل سيبريا ، نزولا على رغبة والدته ، لا لشىء الا لانهما نسيا ان يطأطئا رأسيهما عند مرورهما أمامها فى الحديقة . وكان تورجنييف ــ فيمابعد ــ يطلع زواره على النافذة التى كانت تجلس اليها والدتهقائلا : « تلك هى النافذة . . وانى أذكر انها كانت مفتوحة ، وكنت حاضرا ، عندما اقترب الرجلان منها حاسرى الرأس وركعا على ركبتيهما أمامها مستأذنين فى الرحيل الى المنفى ! »

وكان المدرسون ــ من فرنسيين والمانيات ــ الذين يؤمون القصر لتلقين الطفلين « ارنان » و «نيقولا» مبادىء اللغتين الفرنسية والالمانية ، يعاملون بفظاظة وكأنهم نفر من الخدم . وكان من حق أولاد النبلاء أن يلعبوا مع أطفال الفلاحين ويضربوهم دون أن يستطيع هؤلاء البؤساء ان يقابلوا ضربات

أسيادهم بمثلها ! .. ويروى تورجنييف ان والدته شاهدت يوما صراعا عنيفا نشب « بالوسادات » بينه وبين فلاح صغير ، فأمرت فى الحال بجلد الفلاح ، فجلد حتى أدمت السياط ظهره وكادت روحه أن تزهق . وكان ايفان ونيقولا تورجنييف ـ سيدا هذا القصر الصغيران ـ يتمتعان بسلطة مطلقة فى مملكتهما ، ويشعران فى الوقت نفسه بضعف متناه أمام والدتهما ، شأنهما فى ذلك شأن جميع اطفال روسيا النبلاء فى ذلك العهد . وقلما كانا يقضيان سحابة يومهما دون أن يتعرضا للضرب الذى كان يعد اذ ذاك وسيلة من وسائل التقويم والتهذيب !

وعلى الرغم من هذه الحياة العائلية التى كانت أشبه بحياة المعسكرات ، فقد ظل تورجنييف يذكر دائما عهد طفولته فى (سباسكوى) ، اذ يبدو أن فى مناظر روسيا الطبيعية جمالا أخاذا غامضا لايبرح مخيلة الذين تمتعوا به ، حتى الممات .. **ولم ينس تورجنييف قط ذلك الضباب الشفاف الذى يتصاعد من سفوح التلال والهضاب ، ولا أشجار الحور والصفصاف ، ولا تلك النفحة الزكية التى تضوع من حقول القمح والكتان فتعبق الجو وتعطر النسيم**

ومنذ بضع سنوات، نشرت فى (موسكو) رسائل يستدل منها على مبلغ اهتمام الكولونيل تورجنييف بتربية ولديه وتعلقه بهما وعطفه الصادق عليهما ، على الرغم مما كان يبديه نحوهما من تغاض وعدم اكتراث ابان اقامتهما معه فى القصر .. ومعظم هذه الرسائل كان موجها الى الابن الاكبر « نيقولا » ، حيث كان الوالد يريد ان يستعلم منه عن نوع الحياة التى يقضيها مع أخيه ، وقد جاء فيها :

« .. انكما تعلمان ولا شك كم يهمنى أمر دروسكما .. فلا تكتفيا بمجرد ابلاغى ان الاساتذة راضون عنكما وانكما

« فارفارا بتروفنا » والدة ترجنيف

« سيرجى نيقولاييفيتش » ، والد ترجنيف

تحاولان دائما تنفيذ أوامرى ، بل اكتبا الى عن كل مادة على حدة .. قولا لى مثلا انكما تدرسان كذا وكيت بالفرنسية والالمانية ، وأنكما تتعلمان هذا وذاك باللاتينية والروسية ! وكذلك عن الجغرافيا والتاريخ والرياضيات وعن كل مادة تدرسانها ، سيما الموسيقى » .

ولعل الشيء الذى كان يختلف فيه سرج تورجنييف عن معظم رجالات روسيا فى ذاك الوقت ، انه كان يود أن يرى ابنيه يتقنان كتابة اللغة الروسية اتقانا تاما . فقد كتب اليهما يقول :

« .. انكما تكتبان الى دائما بالفرنسية أو الالمانية . فلم هذا الاحتقار للغتكما الاصلية ؟ .. لقد آن الوقت الذى يجدر بكما فيه لا التحدث بالروسية فحسب ، بل اجادة الكتابة بها أيضا . وفى وسعكما ـ بلوغا لهذه الغاية ـ أن تحررا الى يومياتكما على النحو التالى : يوم الاثنين بالفرنسية ، والثلاثاء بالالمانية ، والاربعاء بالروسية ، وهلم جرا .. »

٣ ـ عهد الدراسة

وفى غضون عام ١٨٣٢ ، انتقلت الاسرة الى موسكو حيث اتم ايفان دراسته . وكانت موسكو فى ذلك العهد مدينة الشعر والخيال . ففى الشتاء ، كان لايسمع فى شوارعها المغطاة بالجليد الناصع البياض سوى وقع حوافر الخيل وحفيف الزحافات . وقد احتفظ تورجنييف فى مخيلته طيلة حياته بصور تلك الكنائس ذات القباب المذهبة التى كانت تسطع فوق الكون !

وقد دخل تورجنييف المدرسة وهو فى الرابعة عشرة من عمره . وكان اذ ذاك غلاما طويل القامة ، رقيق الطباع ، نحيف البنية ، خيالى المشاعر ، يميل الى الشعر والادب .

وقد طلب اليه أساتذة الجامعة عند دخوله أن يوقع ورقة يثبت فيها انه لا ينتمى الى أية جمعية سرية . ففعل ، ولكنه كان فى الواقع جمهورى النزعة بدليل انه كان يعلق على جدران غرفته صورة « فوكييه تانفيل » (١) . وكان زملاؤه حوله يظنون انفسهم ثوريين . وفى جامعة موسكو ، كان الطلبة لايشبهون ملاك الرقيق من الفلاحين الا بالنمور والافاعى .. وكانوا عند انتهاء الدراسة ، يجتمعون فى هيئة خمسة أو ستة من الشبان حول الموقد ، فيتناولون الشاى ويتجاذبون أطراف الحديث عن الله والحقيقة والمستقبل والانسانية والأدب والشعر ، فلا تلبث المناقشة أن تحتدم بينهم . فتلتهب وجوههم حماسة وتضطرم أعينهم كأنها شعلة من النار !

وقد نقل تورجنييف بعد ذلك من موسكو الى جامعة بطرسبرج لأنها كانت تعتبر أرفع مكانة واغزر علما . وكان التعليم فى تلك الجامعة يسير على أساس الأساليب الالمانية . فكان « جيته » وخصوصا « هيجل » يحتلان المكانة الاولى .. وهكذا مر تورجنييف ، كجميع رفاقه ، بعهد من التوتر العصبى الذى تحدثه كثرة التفكير فيما وراء الطبيعة . وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره ، شرع فى تدوين مذكراته التى كتب فيها يقول : « **لقد بلغت السابعة عشرة .. واننى أريد أن أدون كل ما أعرفه عن نفسى وحياتى ، ولكن لماذا ترانى أفعل ؟ .. ان ذلك يرجع لسببين : أولا ، لأننى ، وقد انتهيت من سرد حياتى ، لن آمد يدى الى هذه المذكرات حتى أبلغ الخمسين ، وما من شك فى أننى سوف أجد فيها اذ ذاك ما أفكر فيه وأحلم به اليوم !.. والآن وقد**

(١) النائب العام فى محكمة الثورة الفرنسية .

انتهيت من وضع المقدمة، فانني سابدأ .. » ولكنه لم يخط بعدها حرفا واحدا .. ولعل ذلك مرده الى مايستحوذ عادة على النفس الناشئة الفتية من شعور بالقلق ، ناجم عن التفكير فيما وراء الطبيعة ، والى الاضطراب الجنسى . سيما وان دار والديه كانت آهلة بالفتيات الجميلات اللاتى كن يستسلمن لسيدهن الشاب ويقفن رهن اشارته ! فكان ذلك موضع اختباراته الاولى ، وقد وصفها بعد اعوام طوال لأصدقائه « جونكور » و « دوديه » و « فلوبير » فى أحد مجالسهم الادبية ، بقوله : « كنت فتى ناضر العود عفيف الجسد ، تتنازعنى الرغبات التى تتنازع عادة من هم فى الخامسة عشرة من عمرهم .. وكانت عند والدتى ، وصيفة جميلة تدل هيئتها على البله . على ان من الوجوه ـ كما تعلمون ـ ماتكسبها البلاهة مسحة من العظمة الغامضة !.. وقد حدث فى يوم رطب ، ممطر ، من تلك الايام المستحبة لدى العشاق لتبادل عبارات الغزل وآيات الحب ، أن وقع نظرى بغتة ، وانا اتنزه فى الحديقة عند الفسق ، على تلك الفتاة .. فاذا بها تقترب منى ، أنا سيدها ، وتجذبنى من شعرى ثم تقول لى بلهجة آمرة : « تعال ! .. » أما ما أعقب ذلك ، فكان مجرد شهوة ككل الشهوات التى تتملكنا .. ولكن طريقة جذبها لى من شعرى دون أن تنبس الا بتلك الكلمة وحدها ، لاتنفك تعاودنى أحيانا ، ومجرد التفكير فيها يلذ لى ويطربنى ! » وقد تحدث الى « فلوبير » عن أول امرأة أحبها كما لو كان يتكلم عن شىء مجرد غير ملموس ، اذ قال :

« أما أنا ، فحياتى حافلة بالنساء ، فليس فى العالم كتاب أو ماعداه من الاشياء يمكن أن يغنينى عن المرأة .. ترى كيف أعبر عن ذلك ؟ .. اننى أرى أن الحب وحده هو الذى يستطيع أن يحدث فى النفس من الارتياح والنشوة مالا

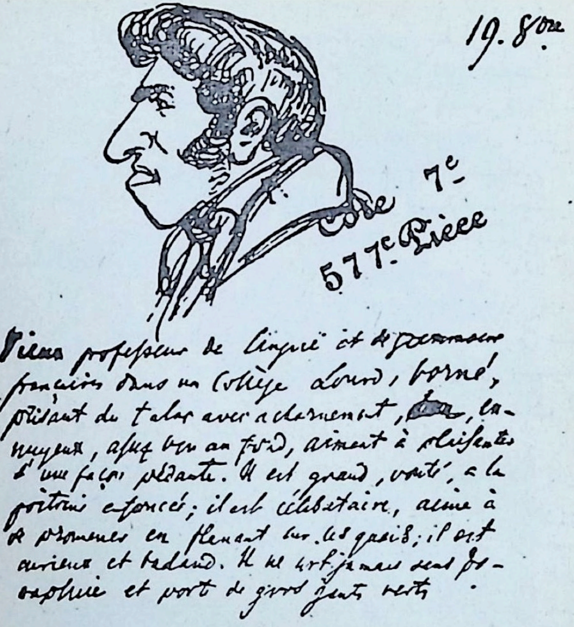

رسم « كاريكاتورى » ســاخر رسمه ترجنيــف للمدرس الذى كان يدرسه « قواعد النحــو » الفرنسية ، وقد علق عليه بقوله : « ان ذلــك المدرس كان عصبيا ، ضيق الافــق ، شــغوفا باستنشاق السعوط الى حد الولع ، ثقيل الظل ، وان كان سليم الطوية ، ولوعا باطلاق النكتة ! »

يستطيعه أى شىءسواه !)) .. اصغ الى .. لقد كانت لى ، وأنا فى سن المراسقه ، خليلة تعمل فى مطحن بضواحى (بطرسبرج) . وكنت أراها أثناء ذهابى الى الصيد .. كانت فتاه رقيقة الحاشية ، لطيفة المعشر ، ساحرة القسمات، ولكنها كانت ترفض دائما كل ما أقدمه لها من مال ! على أنها فى ذات يوم قالت لى : « يجب أن تقدم لى هدية » واذ سألتها عما كانت تريد ، أجابتنى بقولها : « جئنى من (بطرسبرج) بقطعة من الصابون المعطر » . فلما أحضرت لها قطعه الصابون ، أخذتها منى ، ثم اختفت . وما لبثت ان عادت الى ، وقد كسا الاضطراب وجنتيها بلون وردى ، وتمتمت وهى تمد نحوى يدين يفوح منهما عبير منعش رقيق : « قبل يدى كما تقبل فى الصالونات ايدى سيدات بطرسبرج ! .. فجثوت على الفور عند قدميها ، وثق اننى لم أصادف فى حياتى لحظة تعادل تلك اللحظة ! »

واذا ما بدأنا نستعرض ملامح تورجنييف عند ما كان فى الثامنة عشرة من عمره ، تبين لنا انه كان عملاقا فى تكوينه ، تتميز يداه ـ مع ذلك ـ بابهامين قصيرين ينمان عن ضعف وخمول .. (وكثيرا ما كان ينظر الى ابهاميه مرددا : «كيف يتسنى لى أن اشتهى ، وقد اوتيت مثل هاتين اليدين ؟!..) . وكان محياه يدل ـ عند النظرة الاولى ـ على المرح البرىء والسذاجة المشوبة بشىء قليل من البله الذى يمتاز به أولاد النبلاء الذين ولدوا وشبوا وسط الطبيعة .. وكان الناظر اليه ، يجد له مشية مترددة وابتسامة مثيرة تنم عن التحدى، ويلمح عنده مزاجا مرحا وصحة .. وخمولا !.. وكان أبوه قد قضى نحبه ، الا ان « فارفارا بتروفنا » ـ أمه ـ كانت ما تزال فى عنفوان الحياة وكفيلة بأن تضطلع بسلطة رب الاسرة . وكانت ـ ككثير من الروس ـ تشعر بازدراء بالغ

ترجنيف فى سن ٢١ سنة

ترجنيف فى سن ١٢ سنة

لجامعات بلادها . ولما كانت (برلين) منبع العلوم والمعرفة فى ذلك الوقت ، فقد عقدت العزم على ارسال ابنها لاتمام دراسته فى المانيا !

والتقى فى برلين بجالية صغيرة من الشباب الروسى . وكان « ستانكفيتش » رائدهم وزعيمهم . وما لبث ان صادف ، بعد ردح من الزمن ، رجلين كان لهما تأثير كبيرعلى حياته ، هما « اسكندر هرزن » و « باكونين » . وكان « هرزن » ابنا غير شرعى لاحد الملاك الروس يدعى « ياكوفليف » ، وكان قد نفي من روسيا بسبب عقيده ، ولما يتجاوز الرابعة والعشرين . اما « باكونين » فكان شخصية عجيبة شديدة التعقيد ، وكان يشبه تورجنييف فى نواح عديدة . فقد كان ـ مثل تورجنييف ـ ابن «بارين»، وكان أبوه يحكم اثنى عشر الف نسمة فى مزرعة (برموخلينو) . وكان ـ مثل تورجنييف أيضا ـ عملاقا ، الا أن شعره الكستنائى اللون كان أكثف وأكثر غزارة من شعر صديقه . وكان فى شبابه أكثر هياجا واشد اضطرابا . فقد ثار على أبيه وعلى القيصر ، وحمل شقيقاته على مشاطرته حماسه فكن اشبه بكاهنات شيعة أخوية ، ينتظرنه وهن يقرأن للشاعر الرومانتيكى الالمانى « نوفاليس » ويبعثن اليه بالرسائل الحارة . وقد اهتم تورجنييف كثيرا بباكونين ، فكان تارة يعجب بفصاحة صديقه الجديد وبلاغته اللغوية الحادة، وطورا يشك فى أنه كان على غزاره يخفى نفسا ضعيفة فى جسم قوى غليظ !

وفى غضون السنوات التى أمضاها تورجنييف فى المانيا ، كان باكونين لايزال معتدلا على نحو ماكان عليه هرزن . وكان هيجل الفيلسوف الذى يلتف حوله جميع هؤلاء المريدين ، لأنه كان يقول بأن كل ماهو حقيقى نابع من العقل ، فى الوقت

الذى كان فيه مريدوه يقبلون المجتمع كما وضعه التاريخ . ذلك ان الناس يطلبون دائما من كل مذهب أن يكون دليلا عقليا على مشاعرهم وأعمالهم ! فالشباب الروسى الذى كان يخضع فى سنة ١٨٤٠ للقيصر، كان يعرف انه مستبد، ولكنه كان يعبده على الرغم منه !.. وهذا الشباب كان يتوهم بأنه واجد فى « فلسفة الحق » لهيجل ، حججا واسانيد لتعليل خضوعه .. كانوا يقولون له ان الدولة كيان حى ، وهى هى كما اوجدها التاريخ ، ولا يستطيع فرد — أو مجموعة — أن يغيرها تبعا لأهوائه . « وهكذا لا يوجد مجال للمناقشة فى ضرورة الطاعة المطلقة للقيصر ، فذلك أمر واضح جلى فى حد ذاته ! »

تلك كانت نظرية هيجل كما رأتها جماعة اليمين . على ان هرزن كان يتبين انه يمكن ان يستمد من هيجل بالذات، الدليل على شرعية كل مقاومة للاوتوقراطية ، اذ انه لو صح ان كل ما هو حقيقى نابع من العقل ، فالثورى — اذ يوجد — يعتبر جزءا من التاريخ ! .. « اذا كان العقل يعزز النظام الاجتماعى القائم ، فان كل مقاومة له ، ما دامت موجودة ، تعد معززة كذلك » . وهكذا تشكلت من فلسفة هيجل صورة أخرى ، أخذت بها جماعة اليسار !

ويبدو ان تورجنييف — رغم اندماجه فى تلك المناقشات الفلسفية — قد ظل محافظا على مبادئه الاصلية ، حتى انه كثيرا ماكان يمزج الافكار السامية عن ماهية الحب الالهى بحياة وضيعة مليئة بالفسق والمجون !

٤ — تورجنييف والحب

عاد تورجنييف من ألمانيا وهو شاب يافع فى الثانية والعشرين من عمره . وقد ملأ السرور نفسه حين وقعت

انظاره على برك المياه التى راحت تسبح فيها طيور البجع ، وحين أخذ يستنشق رائحة الكتان والقمح التى تنبعث من الحقول المترامية .. وكان صيادا ماهرا ، فما أن استقر به المقام فى قريته حتى عاوده ولعه بالصيد . فكان يستيقظ مع الفجر والنجوم لاتزال تتلألأ على صفحة السماء ، ويمضى يضرب فى السهول الروسية طولا وعرضا ، فى مركبة يجرها زوجان من الجياد المطهمة الاصيلة . وكان اذا ما اشتدت عليه برودة الصباح : انكمش على نفسه داخل معطفه واستسلم لسنة عذبة من الاسترخاء والنوم !

وعلى اثر عودته الى (سباسكوى) ، اتخذ تورجنييف من حائكة والدته خليلة له، فرزق منها بطفلة اسماها «بيلاجيا» ، واذ أعرب لوالدته عما يساوره من قلق واضطراب بشأن والدة طفلته ؛ كتبت اليه تقول : « يالك من شخص غريب ! .. انى لا أرى هناك ضررا لا من جانبك ولا من جانبها .. وما الامر الا مجرد نزوة طبيعية بسيطة ! »

ولعل ما يفسر هذا التصرف العجيب من قبل الوالدة ، أن أخلاق الارستقراطية الروسية فى غضون سنة ١٨٤٠ كانت وليدة أخلاق القرن الثامن عشر الفرنسى ، وان كانت تختلف عنها فى بساطتها وسذاجتها .. وبينما كان تورجنييف ماضيا فى اشباع غريزته الجنسية ، كان يعمل فى الوقت ذاته على انشاء علاقة أخرى روحية مع احدى شقيقات صديقه « باكونين » ، وكانت تدعى « تاسيانا » . وكانت فتاة فى السابعة والعشرين ، متحمسة ، مولعة بالمثل العليا . وكان باكونين قد عهد الى تورجنييف فى برلين بخطاب الى أسرته ، فاستقبلته فى (بريموكينو) استقبال الصديق النائب عن الشقيق ! .. ولم يلبث ، بما عرف عنه من براعة وقدرة على رواية القصص الطريفة الشائقة ، ان اجتذب اليه

الشقيقات الثلاث العذارى ولاسيما ((تاسيانا)) التى كانت تعبر عن شعورها نحوه بقولها انها التقت برجل عبقرى !..
ولكن علاقات تورجنييف بالنساء كانت تمتاز دائما بطورين .. فقد كان يندفع فى بادىء الامر تحت تأثير شهوته ، حتى اذا ما منحته المرأة حبها وأوشكت على الاستسلام له ، تبين انه لم يخلق للنزوات العنيفة وانه يمقتها ، فاذا به يرتد خجلا من نفسه مخيبا رجاء المرأة فيه ، فسرعان ما يتحول حبها الى يأس فاحتقار !

وذلك ما حدث مع ((تاسيانا باكونين)) ، اذ بدأ يطارحها الهوى ، فما أن بدت عليها عوارض الهزيمة حتى تقهقر وعمل على أن يسمو بعلاقته بها من المستوى المادى الى المستوى الروحى . وقد كتب اليها ذات مرة يقول : ((اننى لم أحب امرأة قط أكثر منك ، بل لعلنى لم أحبك أنت حبا عميقا كاملا ! .. وانى لعمرى أود أن أكون شاعرا من أجلك ..من أجلك وحدك ، أنت التى ترتبط بها روحى ارتباطا عميقا يجل عن الوصف .. أواه ، ليتنا نستطيع ان نتنزه فى صباح يوم من أيام الربيع تحت أشجار الصفصاف ، فأمسك يدك بيدى ، وأشعر بأن روحينا تمتزجان وأن كل ماهو وضيع سفيه قد تلاشى الى الابد !)) .. وما أن توثقت عرى المودة بينها وبين تورجنييف ، حتى عرفت فيه شابا شارد البال يتحدث عن الفضيلة بطيش ورعونة، فاذا بها تقول فى مرارة : ((يا للغرابة ! .. كم من اناس يستطيعون أن يحملوا انفسهم على الايمان بكل مايريدون .. وكم تبدو أقدس الاشياء فى نظرهم أشبه بالعرائس والدمى ، فلا يترددون فى انتزاع كائن آخر من حياتهم واقصائه بعيدا عنهم ! ولكن ترى لماذا لايستطيعون أن يروضوا أنفسهم على الاستقامة والشرف ؟ .. أتراهم لا يعرفون ماهو الحق وما هو الحب ؟))

٥ – طريق الأدب

ولـكن ما الطريق الذى سلكه « ايفان سيرجيفيتش تورجنييف » فى الحياة ؟ .. لقد فكر فى أن يكون مدرسا للفلسفة ، ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الفكرة كما أعرض عن مزاولة اية مهنة أخرى ، فلقى من والدته مايشجعه على البقاء عاطلا بغير عمل، اذ قالت له : « أتريد ألا تعمل شيئا ؟ .. فليباركك الله ! .. لا تعمل شيئا ، ولتعش مطمئنا ناعم البال .. اكتب ، وتنزه ، وتمتع بالصيد ، وسافر ان كان يروق لك السفر !.. امض الشتاء فى بطرسبرج ، واغش المسارح ، ثم عد الى الريف متى أطل الربيع .. أما فى الصيف فقد نسافر .. وفى الخريف ، يمكنك أن تستمتع بالصيد .. وخلاصة القول : عش ودعنا نعش بالقرب منك ! »

على أن الحياة بالقرب منها لم تكن بالامر الميسور المستحب ، اذ كانت كلما تقدمت بها السن ، ازدادت أطوارها غرابة وأخلاقها شراسة وجنونا . فاذا صادف مثلا ان استيقظت من نومها فى صباح عيد الفصح وهى ضيقة الصدر أو منحرفة المزاج ، أمرت فلاحيها فى الحال بعدم قرع الاجراس فى قراها العشرين وعدم الاحتفال بالعيد ما دامت لاتستطيع الاستمتاع به ! .. **وقد أمرت يوما بتحويل مجرى أحد الانهار لأن خرير مياهه كان يقلقها فى نومها** . وكثيرا ما كان ايفان المتشبع بروح الديمقراطية يشتبك معها فى نزاع لا نهاية له بشأن الفلاحين الارقاء ، ولكنه كان دائما ينصرف عنها مهزوما مسلما بهزيمته ، ومن ثم حاول أن يبتعد عنها ويعيش فى (بطرسبرج) ويلعب فيها دور « دون جوان » على غرار بيرون والشعراء الرومانسيين، ولكن احدا من الناس لم يول ذلك الرومانتيكى اى اهتمام . وكان العاشق الخجول

يثير حوله السخرية والابتسام ، اذ كانت تتنازعه عواطف متناقضة هى خليط من الاقدام والحذر والجراة والاحجام، ولذا امضى جل وقته يقرض الشعر ويؤلف المسرحيات ويناقش اصدقاءه ومن بينهم الناقد المعروف «بييلينسكى» ، فيدور الجدل بينهم حول « الغرب وروسيا » .. وهناك ايضا ـ كما كان شأنهم فى الجامعة ـ كانوا يتحدثون فيفيضون فى الحديث ، حتى لقد نفذ مرة صبر بييلينسكى، فاذا به يهتف فى صديقه قائلا : « تبا لك يا ايفان .. لقد تناقشنا ست ساعات متوالية ، وما زلنا نجهل هل الله موجود أم لا ، فهيا بنا نتناول العشاء ! »

وكان عالم الأدب فى (بطرسبرج) ينقسم اذ ذاك الى فريقين : فريق الصقالبة وفريق الغربيين . وكان أنصار الفريق الاول يحاولون أن يجدوا فى سمو الروح الروسية وسذاجتها ، مادة يغذون بها فنهم وفلسفتهم .. فكل ما هو روسى كان فى نظرهم رائعا مقدسا : المذهب الارثوذكسى ، والحياة الروسية ، والفن الروسى .. وكانوا يعتقدون أن اليوم الذى سوف تصبح فيه روسيا ، بقدرة العناية الالهية، منارة تضىء خطوات الانسانية العاثرة ، آت لا ريب فيه .

اما انصار الغرب فكانوا على نقيض ذلك يقولون بضرورة دخول روسيا مدرسة الغرب . **وكان تورجنييف الذى تلقى علومه فى برلين وطالع ((شيللر)) و ((جورج صاند)) ، يرتاح الى الاختلاط ((بالغربيين)) والاندماج فى أوساطهم .** وقد أورد على لسان « بوتوجين » بطل روايته « الدخان » نقدا لاذعا الى أنصار الصقالبة اذ قال : « زرت فى هذا الربيع قصر الكريستال فى لندن . وهذا القصر، كما تعلمون، يضم نماذج لجميع المخترعات ؛ وهو بعبارة أصح دائرة معارف للانسانية بأسرها . وقد جلت بين هذه الآلات

والادوات وشاهدت جميع تماثيل العظماء ، فانتابتنى هزة من الهلع اذ طرات على ذهنى فكرة هى : اذا اختفت امة من عالم الوجود فجأة واختفى معها كل ما فى هذا القصر مما اخترعته ، فان أمتنا الصغيرة ، روسيا الارثوذكسية ، تستطيع أن تغوص فى التترية دون أن تزعزع مسمارا واحدا أو تغير شيئا فى هذا الوجود ، اذ ان مائدة الشاى الروسية والاحذية الروسية و « الفلقة » الروسية ، وهى من أهم منتجاتنا ، ليست من صنعنا نحن ! »

وكان انصار الصقالبة — على النقيض من ذلك — يعتقدون ان الحضارة الاوروبية تسير فى طريق الانحطاط بخطوات بطيئة ثابتة ، وأن روسيا هى البلد الوحيد الذى يمكن ان يعلق عليه الامل فى الخلاص . أما فى نظر انصار الغرب ، فقد كانت روسيا دولة لا تقل تخلفا عن غيرها من الدول ، بل لعلها كانت أشد الدول جميعا تأخرا . وبذلك كانت هوة الشقاق بين الحزبين عميقة ، والصراع بينهما شديدا عنيفا !

وعلى الرغم مما كان يبدو على تورجنييف من ميل ظاهر الى الحضارة الغربية فلم يك فى استطاعته أن يحدد موقفه من الحزبين . ففى السياسة ، كما فى الحب ، لم تكن النزعات العنيفة الجارفة من طبيعته .. **لقد كان من أولئك المراقبين المحايدين الذين يفطنون دائما الى ماتنطوى عليه آراء أعدائهم من حقيقة وصواب** . فانه — مثلا — لم يكن يقر استبداد الاحزاب والمنتديات ، فكان يقول : « ان المنتدى يحول تيار الحديث الى مناقشات حادة ، ويدفع بالرجال الى الثرثرة الجوفاء ، ويفقدهم نضارة الروح وصفاءها ، كما ان الحياة تسير فيه على وتيرة واحدة ، تبعث السأم والملل فى النفس باسم الصداقة والعطف ! » ..

ولكنه رغم انتقاده اللاذع المر لعيوب المنتديات ، كان لا يفتأ يتردد على أشهرها عن طيب خاطر !

٦ - « بولين فياردو »

في شتاء سنة ١٨٤٣ - ١٨٤٤ ، افتتحت الفرقة التمثيلية الايطالية موسمها الغنائى فى (بطرسبرج) بعد ان ظلت زمنا طويلا بعيدة عنها . وكانت الفرقة تضم بين مغنياتها « مدام بولين فياردو » التى كان اسمها الاصلى « بولين جارسيا »، وكانت تنتمى الى أسرة تمثل الفن الموسيقى بأجلى معانيه ، اذ كان والدها مغنيا اسبانيا شهيرا . وقد غنت « بولين » لاول مرة بعد وفاة شقيقتها « ماريا فيليتشيا (١) » بثلاثة أعوام ، فلما سمعها الشاعر « موسيه » خيل اليه انه يستمع الى صوت حبيبته الراحلة ! فحاول أن يغازلها ، بيد أن « بولين الخائنة » أقصته عنها واقترنت بالمسيو لويس فياردو ، مدير الاوبرا الايطالية فى (باريس) . **وقد مهدت السبيل الى هذا الزواج الكاتبة المعروفة « جورج صاند » ، اذ كانت تحب بولين حبا جما حتى لقد اتخذت منها نموذجا حيا لبطلة روايتها « كونسويلو » .**

ولم تكن بولين جميلة بمعنى الكلمة ، بل كانت - على العكس من ذلك - تبدو للناظر اليها ، بظهرها المحدودب وعينيها البارزتين وملامح وجهها القوية ، دميمة منفرة !.. لكن دمامتها كانت من النوع الذى يجذب الرجال ويستميل قلوبهم ، حتى ان الشاعر الالمانى الشهير « هنرى هين » كان

(١) مغنية مشهورة تدعى «لامالبيبران» ، وقد ولدت فى باريس عام ١٨٠٨ وتوفيت عام ١٨٣٦ ، وكانت فى وقت ما عشيقة للشاعر الفرنسى المشهور « ألفريد دى موسيه » .

يشبهها بغابة موحشة غريبة ! .. وفى يوم عقد خطوبتها على فياردو ، قال أحد الرسامين البلجيكيين لخطيبها : « انها دميمة .. دميمة للغاية ، ولكن لو قدر لى ان اراها مرةثانية فلن أتمالك نفسى من الوقوع فى حبها ! »

وقد احرزت بولين نجاحاباهرا، ولهجت الالسنة بالحديث عن الاوبرا الايطالية ؛ حتى ان الطلبة كانوا يجتازون نهر «النيفا» ويخاطرون بحياتهم فى صقيعه وجليده الهشين ، علهم يحصلون على أماكن ليستمعوا الى صوت المغنية الملهمة»!

وفى اليوم الاول من نوفمبر عام ١٨٤٣ ، تعرف اليها تورجنييف ، فكان ان صار هذا اليوم مقدسا عنده يحتفل بذكراه كل عام .. ولم توله بولين أول الامر اهتماما كبيرا ؛ ولا بد انها سمعت عن شهرته كصياد ماهر وشاعر عاثر . ولكن المثابرة تعد فى نظر النساء فضيلة كبرى !..وقد أخلص لها تورجنييف ومضى يوالى التردد عليها حتى انتهى بها الامر الى ان أذنت له بدخول مقصورتها بالمسرح . **وكانت أرض تلك المقصورة يكسوها جلد دب أبيض تجلس بولين فى وسطه، دون ان يستر جسدها البض الا ثوب فضفاض من الحرير الابيض الشفاف** . وكان حق الجلوس بجانبها ، يعد شرفا عظيما لا يحظى به الا المقربون اليها .. وكان يتحتم على كل من يفوز بذلك الشرف ان يروى ـ أثناء فترة الاستراحة ـ قصة لمدام فياردو . فكان يقدر لتورجنييف ان يظفر دائما بالمرتبة الاولى فى هذا المضمار . ولم تلبث قصة غرام تورجنييف بمدام فياردو أن انتشرت فى جميع انحاء بطرسبرج . وكان من جانبه لايألو جهدا فى التحدث عنها الى جميع رفاقه وأصدقائه . وكان تصفيق هذا العملاق يزعج بحدته كل مساء ، جمهور النظارة فى دار الاوبرا . وفى الصيف التالى ، سافر لاول مرة الى فرنسا لزيارة مدام

فياردو فى قصرها الشائق فى (كورتافنيل) ، وهناك توثقت عرى الصداقة بينه وبين الزوج لويس فياردو واطفاله ..
على انه من الصعب أن نقرر ما اذا كان تورجنييف قد صار عشيقا لمدام فياردو ، اذ لم يكن لويس فياردو بالزوج

« بولين فياردو » فى سن الرابعة والعشرين

المتغافل ، ولكن الا يحتمل ـ مع ذلك ـ أن يكون قد جهل الحقيقة أو ظل غافلا عنها ؟ .. وكيفما كان الامر ، وسواء كانت عاطفة تورجنييف حبا أو صداقة ، فقد أصبحت منذ ذلك الوقت تملأ عليه حياته ! .. ولما لم تعد بولين فى السنة التالية الى بطرسبرج ، اذ شدت رحالها الى برلين ، لحق بها تورجنييف حيث رافقها بعد ذلك الى درسدن ، ثم قفل راجعا معها الى قصر (كورتافنيل)

وكان القصر يقع فى (لابرى) على بعد ستين كيلومترا من باريس . **وقد وجد تورجنييف فيه المرأة التى يحبها ، والموسيقى العذبة التى تبعث النشوة الى أعماق قلبه ، والصيد الوفير الذى كان يقضى وقته فى مطاردته واقتناصه ، فمكث هناك فصل الصيف بأكمله مطمئنا ناعم البال ..** ولعل موقفه كان اذ ذاك يبدو فى نظر الفرنسى أدعى الى الغرابة والدهشة منه فى نظر الروسى ، الذى جاء من بلاد لا حد لحسن الوفادة فيها اذ هى من تقاليدها الموروثة ، حيث تفتح أسرها بيوتها للغرباء فيأوون اليها وسرعان ما يعدون من أبنائها ! .. ولما أقبل الشتاء ، وبدأت أسرة فياردو جولاتها الغنائية ، استأجر تورجنييف حجرة بالقرب من (الباليه رويال) فى باريس ، وأخذ يتردد كل يوم على مدام جارسيا ، والدة بولين ، التى كان يدعوها « ماما » ! ولم يكن يهتم اذ ذاك بشىء فى الوجود قدر اهتمامه ببولين وأسرتها ومهنتها .. وفى صبيحة كل يوم : كان يبعث اليها برسائل طويلة يحدثها فيها عن كل شىء .. كان يرشدها فيها الى الكتب التى تجدر بها مطالعتها ، ويمتدح عقلها الراجح ، ويصف لها نزهاته فى حدائق (التويليرى) . وقد كتب اليها ذات يوم يقول : « اننى ارقب الاطفال وهم يمرحون ويلعبون .. فملاطفاتهم وحركاتهم المرزينة ووجناتهم الوردية الصغيرة التى لسعها الشتاء

ببرده القارس ، ورعاية الخادمات لهم وحدبهن عليهم ، والشمس الجميلة الحمراء التى ترسل أشعتها الى أشجار الكستناء الضخمة ، والتماثيل ، والمياه الراكدة ، وعظمة قصر (التويليرى) بلونه الرمادى القاتم .. كل ذلك يلذ لى، ويسرنى غاية السرور ، ويروح عن نفسى ؛ ويريحنى من عناء العمل .. أتراك تذكرين ذلك اليوم الذى كنا ننظر فيه الى السماء الصافية الاديم من خلال أوراق الصفصاف الذهبية ؟ .. اننى أقضى هنا حياة هنيئة ممتعة .. اعمل فى الصباح، وفى الساعة الثانية بعدالظهر اخرج لزيارة «ماما» (أى والدة بولين) ، فأمكث عندها زهاء نصف الساعة ، ثم أطالع الصحف ، وأتريض ، وأذهب بعد العشاء الى المسرح أو أعود الى « ماما » ، واخيرا آوى الى فراشى ، وهذا كل ما هنالك ! »

ومما يذكر ، أنه كان يسدى اليها نصائح قيمة عن فنها ، ويسدد خطاها فى هذا السبيل . فكان يمدها بتوجيهاته اذا ما طلب اليها تمثيل دور « افيجينى » ، فيشير عليها بأن تطالع « جوته » ، ويعرب لها عن ثقته بأنها ستكون خير من يقوم بدور تلك الشخصية التى تمتاز ببساطتها الاغريقية القديمة وطهرها الهادىء العذب .

وعندما كانت بولين بعيدة عنه ، كان يجد لذة لا تعادلها لذة فى مطالعة الصحف لتتبع خطوات صديقته والوقوف على أنباء نجاحها الباهر . وقد حدث ــ ذات يوم ــ بينما كان يقيم بمفرده فى قصر (كورتافنيل) ــ اذ كانت أسرة فياردو قد رحلت الى انجلترا ــ أن اقترض ثلاثين فرنكا من عمة بولين ، وانفقها فى الذهاب الى باريس ليطالع فى الصحف الانجليزية بيان الحفلة الموسيقية التى أقامتها بولين فى لندن !

على أن أهل القصر ما لبثوا أن أخذوا يضيقون به ذرعا

ويتذمرون من وجوده بينهم ، لكنه لم يفهم ذلك ، اذ سرعان ماكتب الى بولين يقول : « ماذا حل بفيـاردو ؟ .. اتراه ضجر من اقامتى هنا ؟ اننى أعيش حزينا كئيبا كالكلب الذى يشعر بأن الناس يسخرون منه ويهزأون به ، فيرفع عينيه وينظر الى من حوله وكأنما ضوء الشمس الساطع يبهـر بصره ! »

٧ ـ فى فرنسا

وفى غضون اقامته الطويلة فى فرنسا ، التى امتدت من عام ١٨٤٧ الى عام ١٨٥٠ ، لم ينقطع تورجنييف عن الكتابة لحظة واحدة .. فقد نشر فى المجلات الفرنسـية ، قبل عودته الى روسيا ، سلسلة رائعة من القصص الروسـية . ولطالما تحدث كثيرون من الكتاب الروس عن أفراد الشعب ، بيد ان أحدا منهم لم يصـور روح الفـلاح المستعبد بالدقة والصـدق اللذين صـورها بهما تورجنييف فى صـفحاته الخالـدة . فقد بين للرأى العام الروسى أن هؤلاء الفلاحين الفلاظ الخشنين ، الذين يعاملون كالحيوانات ، ويباعون فى الاسـواق ويشترون كالسـلع ، بغض النظر عن أواصرهم العائلية ، انما يضمون بين جوانحهم روحا سامية وشـعورا عذبا رقيقا وقلبا يفيض بأسمى العواطف وأنبلها ..

وهكذا استطاع بكلماته أن يوحى الى روسيا بقيمة شعبها وان يوحى الى الشعب بجمال بلاده ! .. وقد عرف بعبارات مستترة لبقة ، ان يمزج بين جمال الطبيعة الباردة الصـماء وحيـاة الناس ، وأن يخلق فى قصـصه جوا من الصـمت الرهيب ، ممـا جعل وقع عبـاراته الدقيقة يسـمع بجلاء ووضوح . وكانت مناظر الطبيعة التى يرسمها بقلمه الساحر تتجلى فاتنة رائعة ، حتى انه لم يسبق لكاتب أن تحدث عن

الاشجار وأوراقها بمثل الروعة التى تحدث بها هو عنها . فقد كتب فى وصف الطبيعة يقول عنها : ((.. **وكانت الاغصان فوق رأسى لا تكاد تنثنى . الا أن هذا الحفيف الصامت كان كافيا لتحديد فصل السنة ، فلم يك فى الواقع شبيها بخلجات الربيع المرحة الضاحكة ولا بهمهمة الصيف البطيئة المداعبة ولا بهمسات الخريف الوديعة الطيبة ، ولكنه كان أشبه بذبذبة ناعمة ناعسة ! ..**)) . ومثل هذا الوصف لا يمكن أن ترسمه الا ريشة رجل عاش فى وسط الطبيعة وامتزج بها ووقف على خفاياها وأسرارها !

ولعل أكثر ما كان يؤثر فى نفوس القراء الروس إنما هو ذلك النقد اللاذع الذى كان يوجهه الكاتب بطريقة غير مباشرة إلى نظام استعباد الفلاحين ، وقد كان تورجنييف فنانا عظيما أرفع من أن يبسط نظرية ويتولى الدفاع عنها . ولو قد فعل ، لكانت الرقابة ــ على كل حال ــ قد حالت دون نشر قصصه . على أن مجرد جنوحه فى كتاباته الى التحدث عن الفلاحين وجعله أولئك الاشخاص ، الذين لم يكن أحد اذ ذاك يعرفهم على حقيقتهم أو لا يكاد يعرفهم ، يعقلون ويشعرون ، يعد فى حد ذاته ضربا من ضروب النقد البارع . فقد كان يبرز شظف عيشهم وقسوة رؤسائهم وجهل ملاكهم ؛ ويصف كيف كان السيد ، وهو ثمل ، يكره الفلاحات على الرقص والغناء طوال الليل ، وكيف كان يستحثهن على مواصلة الرقص بالسياط اذا ما بدت عليهن عوارض الاعياء والكلل ! .. **وقد كان يستحيل على القارىء الغربى أو الروسى المتشبع بمبادىء الغربيين وعقائدهم ، أن يطالع تلك القصص دون أن يفكر فى قرارة نفسه أن مثل هذه الحال ما كانت لتدوم الى مالا نهاية !**

٨ ـ العودة الى روسيا

وفى عام ١٨٥٠ ، عقد تورجنييف عزمه على العودة الى روسيا وقد انتابه شىء من الخوف والوجل من والدته نظرا لانه فى كل مرة كان ينبئها فيها بمقدمه ، لا يلبث أن يعود فيعدل عن رأيه ، وظل يسير على هذا المنوال زمنا طويلا .. ولكنه عزم أخيرا على الرحيل ، فحزم أمتعته وكتب الى المسيو فياردو يودعه قبيل سفره قائلا : « لست اريد ان أغادر فرنسا ، يا صديقى العزيز ، دون أن أعبر لك عن عظيم حبى وتقديرى ومبلغ أسفى لفراقك .. ولا شك فى أن للوطن الاصلى حقوقا . ولكن أليس الوطن الحقيقى هو حيث يكون العطف والمودة ، وحيث يشعر القلب والعقل بالراحة والهناء ؟ ! .. والواقع أن ما من مكان فى الدنيا يحظى بحبى مثل (كورتافنيل) ..!!

وكانت « فرفارا بتروفنا » قد ترقبت عودة « جانيت » ـ كما كانت تسميه ـ بلهفة وشغف ، فلما طال غيابه ـ لا سيما بعد ان تعلق قلبه بتلك المغنية نصف الفرنسية ونصف الاسبانية ـ ثارت ثائرة ملكة (سباسكوى) المخيفة واستشاطت حنقا على ولديها لهروبهما ، الواحد تلو الآخر ، من ذلك المنزل الذى كانت تأمل أن تسيطر فيه عليهما وعلى زوجتيهما واطفالهما !.. وكانت قد أقامت فى الطريق الرئيسى المؤدى الى القصر لوحة تحمل هذه الكلمة : « سيعودان » ، ولما لم يعودا ، أمرت بانتزاعها .. واخيرا ، عندما وصل ايفان قادما من باريس ، أخذت ترحب به ، ولكن سرعان ما نشبت بينها وبين نجليها مناقشات حادة حول المال ، اذ كان ابناها قد طردا من القصر فتاة كانت قد تبنتها ، فما لبثت الام ـ بدافع السطوة والاستبداد ، لا البخل ـ ان رفضت

منحهما شيئا من المال . فقررا أن يهجراها ، وذهب نيقولا يطلب العيش فى أملاك والده فى (تورجنييفو) ، وسرعان ما لحق به ايفان !

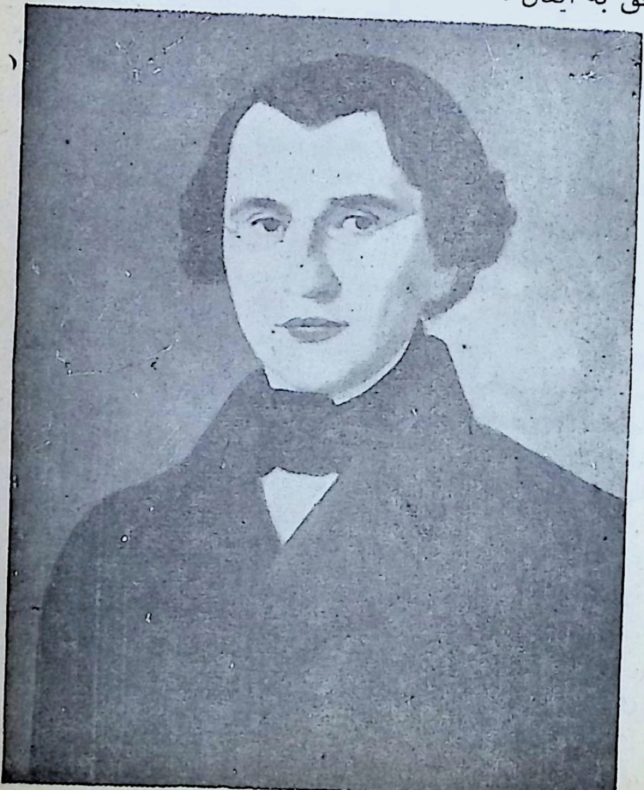

ترجنيف فى سن الخامسة والعشرين

والتقى ايفان هناك بـ « بيلاجيا » الصغيرة ، ابنته التى كان قد رزق بها من الحائكة . فكتب الى مدام فياردو يحدثها عن تلك الطفلة التعسة قائلا : « لست أريد أن تجهلى عنى شيئا .. فمنذ تسع سنوات خلت ، كنت فى الريف أتقلب على فراش الكآبة والضجر . واذ ذاك استرعت نظرى احدى حائكات والدتى ، وكانت فتاة على شيء من الجمال ، فهمست فى أذنها بكلمة رقيقة . فانقادت لرغبتى وأذعنت لارادتى .. وأخيرا نفحتها قليلا من المال ومضيت فى سبيلى .. » وراح يروى لها انه يحاول مساعدة الوالدة ، وانه يريد للطفلة حياة أخرى غير التى تحياها . واذ ذاك عرضت عليه مدام فياردو أن تأخذها عندها ، وان تتولى تربيتها مع أطفالها .. وهكذا أرسلت بيلاجيا الى باريس !

وفى الوقت الذى كان تورجنييف يعنى فيه بابنته ، كانت والدته تحتضر فى منزلها القديم بموسكو . والغريب انها لم تفقد فى ساعة احتضارها شيئا من استبدادها وسطوتها اللذين كانت تمارسهما وهى فى نضرة شبابها وتمام صحتها ..

وكتب عندئذ تورجنييف الى بولين يقول : « لقد كانت أيامها الاخيرة حزينة كئيبة .. فليحفظنا الله من مثل ميتتها .. فانها لم تحاول فى ساعاتها الاخيرة الا التغاضى والنسيان ، حتى لقد أمرت فى ليلة وفاتها بأن يؤتى ، فى الغرفة المجاورة لغرفتها ، بفرقة من الموسيقيين تعزف الحانا راقصة ، وكأن زفرات المحتضرة ما كانت لتتصاعد من صدرها الا على مثل تلك الانغام .. واننى لأشعر بالخجل يغمرنى من قمة رأسى الى أخمص قدمى ، اذ اقول ان والدتى لم تفكر فى لحظاتها الاخيرة الا فى افقارنا انا واخى .. »

وعلى اثر وفاتها ، اقتسم الشقيقان الاراضى ، فآلت أملاك (سباسكوى) الى ايفان .. وقد سلك السيد الجديد مع

اتباعه مسلكا ينطوى على الطيبة والكرم ، ولكنه لم يحاول يوما ما أن يحـرر فلاحيـه من الرق . ومع انه كان يضيق بامتلاكهم ، فقد كان يجزع من الاقدام على اتخـاذ قرارات خطيرة حاسمة كتحرير الفلاحين . على أنه لم يشعر أحدا من أتباعه بوطأة الشقاء فى اراضيه ، حتى لقد كان الفلاحون يسرقون ـ ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ـ تورجنييف الذى كانوا يسمونه « السيد الاعمى » بسبب « المونوكل » الذى كان يضعه على عينيه !.. ويروى تورجنييف ذاته أن عربته توقفت عن السـير يوما وسـط الثلوج المتراكمة ، ولما طال بها الوقوف أطل من النافذة ليستطلع جلية الامر ، وكم كانت دهشته عنـدما رأى الحوذى والسـائس واثنين من الفلاحين العبيد يلعبون الورق . فلم يجرؤ على الكلام ، بل لبث هادئا فى مكانه حتى انتهى خدمه من اللعب .. ولا شك فى أن هذه صورة لطيفة شيقة لنظام استرقاق الفلاحين !

ولم يكن تورجنييف يفكر اذ ذاك الا فى «بولين» و(كورتافنيل) . فكان لا ينفك يكتب الى حبيبته يقول : « **ما من يوم يمر دون أن تطرأ ذكراك العزيزة على خاطرى مائة مرة ، وما من ليلة تمر دون أن أراك فى أحـلامى !.. فيـاليتنى استطيع أن أفرش حيـاتى كالبسـاط تحت قدميك المحبـوبتين اللتين أقبلهما ألف مرة !.. انك ولا شك تعلمين اننى ملك لك الى الأبد جسدا وروحا !** » وختم خطابه الذى يستأذنها فيه أن يهديها كتابه « مذكرات صياد » ، بقوله : « أما أنت فأقبل قدميك ساعات طوالا .. والف شـكر لاظافرك النـاعمة العزيزة ! » .

وكان تورجنييف يعيش وقتئذ فى موسكو .. وقد نالت فيها قصصه نجـاحا منقطع النظير . فأقبل النـاس على قراءتها ، واشتروا مئات النسخ منها ، فاذا باسمه يتألق فى

سماء الشهرة ، ويصبح موضع حديث العامة والخاصة ، فسعى الكل الى معرفته ، وفتحت أبواب القصور أمامه . وكان يؤلف مسرحيات هزلية مضحكة كتلك التى اشتهر بها الكاتب الفرنسى « ماريفو » فى القرن الثامن عشر . وكان فى حفلات افتتاح تلك المسرحيات ، يردد اسم بولين مستبشرا به ! .. وكان قلبه الجريح المفعم بحبها يخلع عليه مسحة من الكآبة والألم تليق بكاتب شاب بلغ من الشهرة أوجها . وكانت قصته « مذكرات صياد » تتسم بجرأة بالغة ، فلم تلبث ان نالت تقدير شبان الجيل الجديد واعجابهم . ولكن بوليس القيصر السياسى أخذ يراقب حركاته وسكناته ، ويقتفى أثره ، ويضيق عليه الخناق ؛ مع انه لو قد رأى ما اوتيه ذلك العملاق من أنامل رقيقة ، لما أوجس خيفة منه على الاطلاق !!

القسم الثانى

٩ - فى السجن والمنفى

قضت الثورة الفرنسية ، التى اندلعت نيرانها فى غضون سنة ١٨٤٨ ، على راحة القيصر نيقولا الاول واقضت عليه مضجعه ، فاضطر ذلك العاهل المستبد الى قمع عدة حركات ثورية نشبت فى بولندا وهولندا ، واخذ « دون كيشوت » الاوتوقراطية يكافح فى غير هوادة ويستميت فى النضال ضد سحرة الديمقراطية . وكان رجال الرقابة ، أسوة بغيرهم من الموظفين ، يتزلفون الى القيصر ويسايرونه فى أهوائه ونزواته ، حتى انهم كانوا ، كلما وقعت أنظارهم فى مقال على عبارة « جلال الطبيعة » ، يبادرون بشطبها ، بحجة ان لقب « الجلالة » لا يجوز اطلاقه الا على الذات الملكية ! ..

والعجيب فى أمر هذه الرقابة الصارمة ، أنها تركت كتابا « كمذكرات صياد » يفلت من مخالبها ، ولكن مما يدعو الى الاسف، انها لم تدع مؤلفه ينجو من قبضة يدها أمدا طويلا !

ففى عام ١٨٥٢ ، توفى فى موسكو الكاتب العظيم « جوجول » ، فكتب تورجنييف الى بولين فياردو يقول : **« ليس فى روسيا بأسرها من لايقطر قلبه دما فى هذه اللحظة الرهيبة .. لقد كان جوجول فى نظرنا أكثر من كاتب ، اذ أظهرنا على حقيقتنا وبصرنا بأنفسنا ! .. ان هذه الكلمات قد تبدو لك مشوبة بالمبالغة ووليدة الحزن والشجن، ولكنها فى الواقع صادقة خالصة ، لا يستطيع غير الروسى أن يشعر بها ويدرك مغزاها .. وانى أؤكد لك بأننى لم أتأثر فى حياتى قط تأثرى بوفاة جوجول ، حتىليخيل الى الآن ان الظلام يخيم بصمته الرهيب فوق رأسى ! »**

وما لبث تورجنييف ان كتب لاحدى الصحف مقالا يؤبن فيه أستاذه . بيد ان رقابة بطرسبرج لم تسمح بنشره ، ليس لأنه كان مثيرا للخواطر ، بل لأن جوجول كان كاتبا ، والكتاب كانوا يعتبرون اذ ذاك خطرا على المجتمع ، وكل اطراء او مديح يسبغ عليهم — حتى بعد وفاتهم — كان يعد تحريضا للشبان على الاهتمام بأمور تستوجب اللوم .. ولم يحتج تورجنييف على ذلك التصرف الأخرق ولم يغضب ، بل أرسل المقال الى موسكو حيث سمح بنشره رقيب اكثر وعيا وأرجح عقلا من زملائه فى بطرسبرج . ولكن ما ان بلغ الحادث مسامع الامبراطور حتى أمر باعتقال صاحب المقال على الفور !

وقضى تورجنييف فى السجن شهرا واحدا لم يشعر خلاله بالشقاء أو الوحدة . فقد كان الشارع الذى يقع فيه

السجن ـ على سعته ـ يضيق كل يوم بعربات زواره . وكانت النساء يرسلن اليه ايقونات مقدسة ، والفتيات زهورا مجففة ، والرجال مالذ وطاب من الطعام والشراب .. وبعد انقضاء عشرين عاما على حادث الاعتقال ، كان تورجنييف لا ينفك يروى لاصدقائه فى باريس كيف كان « قومندان » البوليس ـ بعد استسلامه لنشوة الشراب ـ يرفع كأسه هاتفا : « ليحيا روبسبيير » !

واثناء وقت فراغه فى السجن ، استطاع تورجنييف أن يدرس اللغة البولندية ، وان يضع قصة عنوانها ((مومو)) ، وهى قصة حقيقية وقعت فى منزل « فرفارا بتروفنا » والدة تورجنييف وبطلة القصة .. **وتدور حوادث القصة حول فلاح من العبيد اسمه ((جيراسيم)) ، يعمل بوابا عند سيدة مستبدة نصف مجنونة .. وهذا البواب ، الى جانب ماهو**

((كوخ المنفى)) ، بصيعه (سباسحويا)

عليه من بكم وصمم ، مخلوق دميم لا يستطيع الكلام ، واذا
تكلم ، همهم همهمة غير مفهومة ! .. وهو لا يملك من حطام
الدنيا سوى كلبة يدعوها ((مومو)) ، يحبها ويعتز بها لأنها
الكائن الوحيد الذى يعطف عليه . على أنه يحدث ذات يوم
أن يوقظ نباحها سيدة الدار ، فتأمر هذه بقتلها فى الحال
.. ويهلع الخدم جميعا لهذا الامر ، ويستحوذ عليهم الخوف

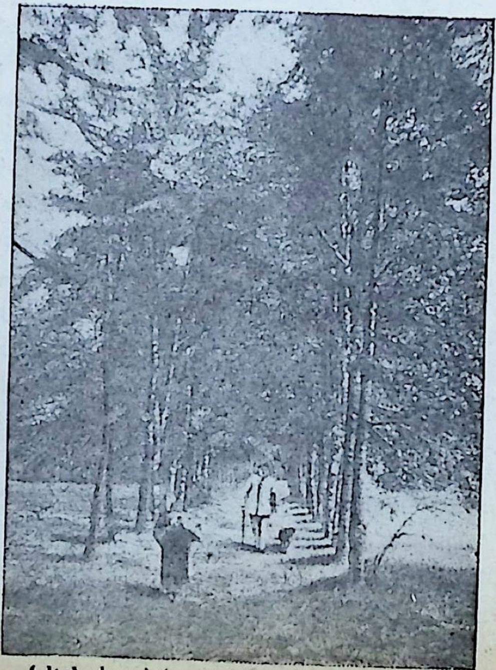

((شارع المشى)) ، بضيعة (سباسكويا)

لما يعهدونه فى ((جيراسيم)) من قوة مخيفة وشدة بأس وبطش . أما هو ، فلم يلبث أن أخذ الكلبة فى زورق الى وسط النهر ، واذا به يربط حجرين الى عنقها ، ثم يحملها بين ذراعيه ويودعها بنظرة أخيرة ، بينما راحت هى ترمقه فى حنان وثقة ، وتبصبص له بذنبها ، وتهز رأسها هزا خفيفا مستحبا . ولكنه يدير رأسه ، ويغمض عينيه ، ثم يفتح يديه .. ولم يسمع شيئا .. لا نباح ((مومو)) المسكينة ، ولا خرير المياه .. عندئذ يرفع رأسه ، فيرى سيول (الموسكوفا) وقد أخذت تتدفق فى مجراها الطبيعى وتتحطم امواجها على جانبى زورقه ..

ومع انه لم ترد فى هذه القصة ـ مثل غيرها من قصص ((مذكرات صياد)) ـ كلمة لوم او استنكار واحدة ، فان ما صوره المؤلف من تباين ظاهر بين قوة الارملة الخرقاء وسمو خلق ((جيراسيم)) وجموده المؤثر ، يعد فى ذاته انتقادا مستترا لاذعا لحال المجتمع الروسى فى ذلك العهد !

واذ انقضى شهر السجن المحكوم به عليه ، تلقى تورجنييف الامر بالتزام داره فى (سباسكوى) وعدم مغادرة املاكه . فدفع هذا الامر الجديد الكآبة الى نفسه وملأ قلبه حزنا وقنوطا ، اذ كان قد اعتاد حياة المدن وبدأ يتذوقها . وكان الاستياء البالغ يتملكه كلما فكر فى أنه لن يستطيع استشارة طبيبه الخاص فى موسكو او الاستماع الى اناشيد بولين فباردو اذا ما اتت الى بطرسبرج . فراح يتوسل ويسعى لدى الامبراطور وولى عهده كى يلغيا أمر نفيه، ولكن مساعيه وتوسلاته ذهبت ادراج الرياح ، ولم يلق منهما اى عطف او شفقة . فاضطر تورجنييف الى البقاء فى سهول روسيا الفنية الخضراء وقراها الصغيرة الساحرة فامتزج بطبيعتها،

واصبح كل ما فى هذه الطبيعة الروسية ، التى لم يرها منذ زمن بعيد ، يثير فى نفسه شعورا بالسرور المقرون بالالم والحزن .. وكان يحس ان صدره تملأه الكآبة والانقباض ولكنه احساس لم يكن ليخلو عنده من لذة مريرة عذبة !

وقد ابتاع ، فى ذلك الحين ، من احدى بنات عمه — على سبيل اللهو وتمضية الوقت — فتاة من الفلاحات دفع ثمنا لها سبعمائة روبل ، وكانت تدعى « فيوكتيسست » . وكانت على جانب كبير من الجمال ، لها قد ممشوق وقوام فارع كغصن البان .. وسرعان ما علمها تورجنييف القراءة واتخذها خادمة ثم خليلة له فى قصره (بسباسكوى) .. **ومن عجب ان حبه البوهيمى ظل دائما مرتبطا بعالم الفلاحات الجميلات الوديعات !**

١٠ — « ديمترى رودين »

ترى هل حياة العزلة هى الحياة التى تلائم الكاتب الروائى ؟ .. انها تبدو فى الواقع وخيمة العواقب عليه اذا كانت تامة كاملة ، لانها تحرمه جميع وسائل التأمل والمشاهدة . ولكنها — مع ذلك — خليقة بأن تعود عليه بفوائد جمة لو انه أوتى من المواد والخيال ما يسمحان له بالكتابة .. اما فيما يتعلق بتورجنييف ، فقد فعلت العزلة فيه فعل السحر ، نظرا لانه كان فى (سباسكوى) أقل انشغالا وانهماكا منه فى (موسكو) أو فى (بطرسبرج) ، حيث لم يكن ثمة ما يلهيه عن الكتابة والتأليف ، كما أنه كان هناك أقل انصرافا الى استقبال أصدقائه اذ قلما كانوا يترددون عليه . وفضلا عن ذلك ، **فقد كان يعيش فى وسط من الفلاحين والملاك ، كان يستمد منهم نماذج رواياته ، ويصفهم وصفا أشد جرأة من وصفه لاوساط بطرسبرج**

وموسكو .. على ان زمهرير الشتاء القارس مالبث أن ارغمه على التزام عقر داره ، فكان يكتب ويؤلف بينما كانت جاراته من حسان روسيا يعزفن له على « البيانو » ألحانا شجية من مقطوعات موزار !

وكانت نفسه قد بدأت تمل القصص القصيرة المقتضبة كالتي تضمنتها « مذكرات صياد » ، سيما وانه اخذ يحس – وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره – ان شعلة شبابه على وشك أن تخمد وانه اذا أراد أن يخلف عملا خالدا ، وجب عليه أن يشق لنفسه طريقا آخر، فيؤلف كتابا ضخما يضم موضوعا واحدا !.. وقد كتب فى هذا الصدد ، يقول : « **يجب أن أعدل عن أسلوبى القديم .. فقد قضيت وقتا كافيا فى استخراج مافى الطبيعة البشرية من عطر عكر لافرغه فى قارورات صغيرة..فهلا استروحت أيها القارىء العزيز ، نفحة من هذا العطر ، ففتحت القارورة ، وملأت منه رئتيك !** .. ان له رائحة الزهور الروسية ، أليس كذلك ؟.. ولكن كفى .. كفى .. فالمهم الآن هو : هل فى امكانى ان اقوم بعمل عظيم ؟ .. هل أستطيع أن أصوغ مؤلفا كاملا فى أسلوب رقيق هادىء جلى ؟ .. هذا ما لا أعرفه ، ولن أعرفه الا متى اقدمت على انجازه ! ولكن صدقنى ، أيها القارىء العزيز ، انك ستسمع عنى شيئا جديدا أو لن تسمع شيئا على الاطلاق!.. لذلك ، أكاد أكون راضيا بعزلتى فى الشتاء ، اذ أجد فيها متسعا من الوقت لكى أخلو الى نفسى ، بعيدا عن كل ما يتعلق بالأدب والصحافة .. واحسب اننى لن اصبح شخصية بارزة الا عندما يموت الاديب فى نفسى !! ».. وكان الناقد « انينكوف » يقول له : « اننى أنتظر منك رواية تسيطر فيها سيطرة تامة على الاشخاص والحوادث ، ولا تسترسل فيها الى التحدث عن نفسك والاشادة بها .. »

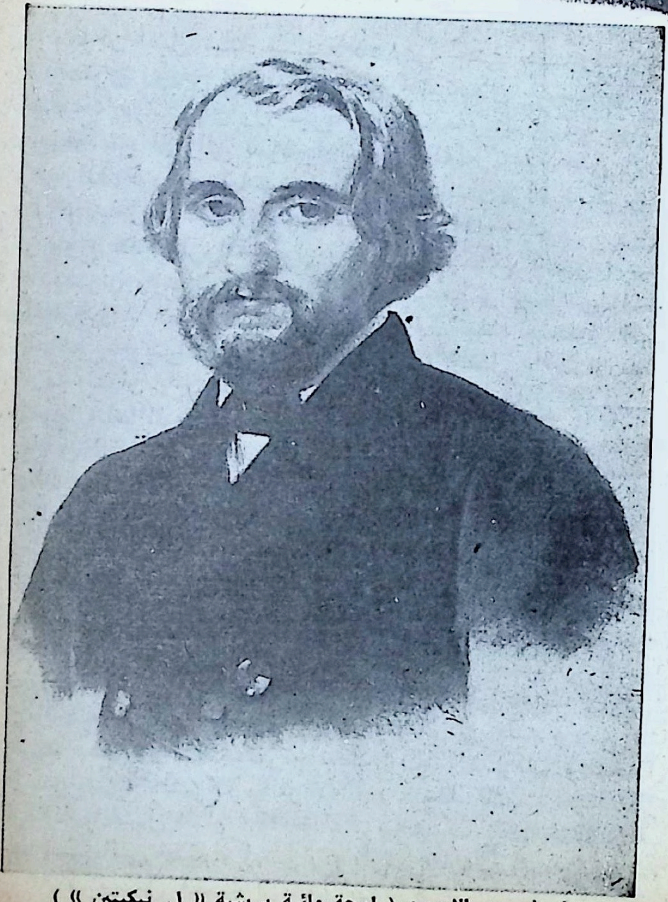

ترجنيف في سن الاربعين (لوحة مائية بريشة « ا. نيكيتين »)

وما أن أقبل شتاء سنة ١٨٥٥ ، حتى صدرت رواية « ديمترى رودين » وقد ألفها تورجنييف فى خمسة أو ستة أسابيع، فأبدع ، فى أول تجربة له ، تحفة فنية رائعة تعد من وجهة الفن الروائى نموذجا لم يرق اليه كاتب حتى الآن ، وهو اذا قورن بروايات «بلزاك» و«ستاندال» و«تولستوى» ، عد فريدا فى نوعه لما ينطوى عليه من طرافة وابتكار . ويدور موضوع هذه الرواية حول رجل فى منتصف العمر اسمه « ديمترى رودين » حل بطريق الصدفة فى بيئة من الملاك والفلاحين ، فعرف منذ الليلة الاولى كيف يستميل اليه الحاضرين ويترك فى قلوبهم أثرا بالغا ، بفضل ما يمتاز به من طلاقة لسان وحماسة ملتهبة ! .. وقد وجدته النساء عبقريا ، أما الرجال فكانوا ينظرون اليه نظرة حسد .. ولم يكن فى القرية ، من حذر الفتيات منه وراح يحاول اقناعهن بتجنبه ، سوى رجل واحد كان يبغض الانسانية بأسرها .. فقد أدرك حقيقة نفس « رودين » المجبولة على الجبن وضعف الارادة التى تستتر خلف عباراته المزيفة ومظهره الكاذب الخلاب . ومع ذلك ، فقد استسلمت فتاة الدار لحبه . واذا بها تبدى استعدادها لأن تهجر كل شىء وتتبعه وتتزوج منه . ولكن ما أن اعترضت أمها سبيلها ، حتى انهارت عزيمة « رودين » وارتد مخذولا على عقبيه .. ذلك أن الحب والارادة ما كانا ليعرفا سبيلا الى قلبه ، ومن هنا فقد دفع عنه ذلك الغرام تحت وطأة الضعف والتخاذل وليس بدافع الشرف والنزاهة ! .. وقد انتهت حياة بطل الرواية بالفشل التام ، اذ جعله تورجنييف يلقى حتفه خلف المتاريس التى نصبت فى شوارع باريس إبان ثورة عام ١٨٤٨ ، وذلك فى سبيل قضية لا يؤمن بها !

ولقد قيل ان « ديمترى رودين » ليس الا « باكونين »

نفســه .. ولعل هــذا القول لايخلو من حقيقــة ، اذ كان تورجنييف يستمد شخصياته دائما من نماذج حية ، حتى لنجد فى شخصية ((ديمترى رودين)) العواطف والانفعالات المتناقضة التى تعاقبت فى نفس تورجنييف عنــد التقــائه بباكونين . ولكن ما من شك فى ان بطل روايته يحوى أيضــا الكثير من طباع تورجنييف نفسه . فهو بارد كالثلج ويتظاهر بالحب والاخلاص . وهنا مكمن الشر كله ، لان دور العاشق المتدله الذى يحــاول أن يلعبه ، ليس خطرا عليه ــ اذ هو لايجازف فيــه بثروته ولا بصحته ــ بل على الآخرين ممن هم أكثر صراحة وسلامة طوية وقد يفقدون روحهم بسببه !

ومن طريف مايرويه المؤلف عن « رودين » ، انه تعــرف يوما الى سيدة فرنسية هى آية فى الظرف ، فأخذ يتحدث اليها عن الطبيعة وفلسفة « هيجل » حتى لقى حظوة لديها .. وسرعان ماضرب لها موعدا ، ثم اقترح عليها أن يقوما بنزهة فى نهر (الراين) ، واذا به يقضى معها ثلاث ساعات راحا يقطعان النهر خلالها طولا وعرضا فى زورق صغير .. ولكن ترى بماذا كان « رودين » يشغل نفسه فى تلك الفترة الطويلة ؟.. لقد كان يمر بأنامله فوق شعر «أليس» الناعم ، محدقا فى صفحة السماء كالحالم مرددا مرارا وتكرارا انه يكن لحبيبته حنانا أبويا ! .. أما السيدة الفرنســية التى لم تكن تتوقع مثل هذه المغــامرة الغرامية ، فقــد عادت الى منزلها حانقة ثائرة .. كذلك كان « رودين » ! .. على أن تورجنييف كان خيرا منه ، لأنه خلق بطله خلقا وابتدعه من العدم . ويكفى أن يلمس المرء فى نفسه القوة الكافية للحكم على بعض ملامح خلقه ، ليكون ذلك دليلا على أنه أصــبح يسيطر عليها !

ومما هو جدير بالاعجاب ، أن اهتم تورجنييف بانصاف

بطل روايته .. فلم يكن « رودين » كائنا ذا خلق ثابت كأبطال الروايات الدارجة التافهة ، اذ اننا كثيرا ما نغير رأينا فيه كما نغيره فى اى فرد من الافراد الحقيقيين المحيطين بنا .. فهو يثير حماسنا فى الفصول الاولى ، ثم لانلبث ان نحتقره ونقول كما كان أصدقاؤه يقولون : « انه لن يقدم يوما ما على أى عمل من تلقاء نفسه ، لأنه لا يتحلى بارادة قوية .. **ولكن منذا الذى يحق له أن يؤكد أنه لم يؤد أو لن يؤد خدمة لاحد قط ؟ .. ومنذا الذى يحق له أن يؤكد أن كلماته لم تنبت أفكارا نبيلة فى اكثر من نفس فتية لم تبخل عليها الطبيعة بمثل مابخلت به عليه من حيوية خالصة وارادة قوية ؟ !**

١١ - نهاية المنفى

تجلى وجه الشبه العظيم بين تورجنييف وبطل روايته « رودين » - أكثر ما تجلى - حين عفى عنه الامبراطور ، فقرر أن يعود الى موسكو .. فقد أثار اذ ذاك عداء الكثيرين وحفيظتهم ، لا لما كان يتصف به من عيوب أشبه ماتكون بعيوب « رودين » ذاتها ، بل لما كان يتحلى به من فضائل كتلك التى تميز بها بطل روايته ، مثل عدم المحاباة والتزام الصدق والنزاهة فى كل شيء !.. فمن الشائع عن الناس انهم ينفرون عادة من هذه الفضائل ويتمسكون بأهداب أهوائهم ونزواتهم فلا يتخلون عنها قط ، حتى أنهم ليؤثرون الزعيم الاحمق الذى يوردهم موارد التهلكة باطراء عواطفهم الجارفة ، على الرجل الشريف الذى يثبط من عزائمهم !.. وكان تورجنييف ينظر الى الحياة نظرة المراقب المتأمل ، ومن هنا كان ضعيفا وان يكن فى استطاعة هذا الطراز من الرجال أن يعيش سعيدا اذا لم يزج بنفسه فى معترك الحياة الصاخبة . بيد

ان « مذكرات صياد » كانت قد جعلت من مؤلفها رجلا سياسيا بارزا وبطلا من أبطال حركة تحرير الفلاحين الارقاء . فكان الشبان الثوار يلجأون اليه فى حماسة بالغة ، ولكنه كان لايلبث أن يخيب آمالهم ورجاءهم فيه . بل لقد كانت النساء - بوجه خاص - يشكون منه مر الشكوى ، حتى ان زوجة صديقه « هرزن » كانت تقول : « انني اشعر فى حضرة تورجنييف وكأنني فى غرفة غير مسكونة تنبعث من جدرانها رطوبة تتسرب الى عظامي ، حتى انك لتخشى أن تجلس فى أى مكان أو تلمس اى شيء .. وكل ماتتمناه وأنت فى هذه الحجرة ، ان تخرج منها الى الهواء الطلق فى أسرع وقت ! .. » وكانت تتحدث بذلك عما كانت تسميه « نظرة تورجنييف الميكروسكوبية » أو بالاحرى عن عادته « المرذولة » التى كانت تدفعه الى فحص كل شخص جالس فى حضرته من اخمص قدمه الى قمة راسه ، وكان كثيرا ما يحدق تحديقا دقيقا فى الانف وحده ، أو فى الساق ، أو فى الذقن ، دون سائر أعضاء الجسم الاخرى ..

وقد صرحت سيدة أخرى تدعى « فيرا اكساكوف » ، فى هذا الصدد تقول : « آه .. انني لا أحب تورجنييف .. فهو لا يعرف للايمان معنى ، ويعيش بغير مبادىء أدبية ، وافكاره تلطخها سيرة حياته .. » وصفوة القول ، ان تورجنييف لم يكن الا مزيجا من الضعف النفسى والتضعضع الجسمانى ، على الرغم مما اتسم به هيكله من ضخامة ملحوظة !

على ان تورجنييف كان يفيض - مع ذلك - بقوة نفسية دافقة ، ولا سيما فى كل ما يتصل بالادب والفن . فقد كان فى هذا المضمار رجلا لا يقهر ولا يلين ، اذ ما من شيء كان فى نظره يستحق الاهتمام غير الكتابة .. بل ان الحب نفسه ،

لم يكن بالنسبة اليه سوى وسيلة للحصول على مادة ادبية .. وقد بعث يوما الى كاتب شاب كان على وشك أن يتزوج عن حب ، يقول : ((**انه لمن دواعى الأسف حقا أن تستغرق فى حب امرأة واحدة !!**)) وكان يفسر ذلك بقوله : ((**ان الزواج الفاشل قد يخدم الفنان أحيانا ، أما الحياة الزوجية السعيدة الهانئة فهى تقضى عليه قضاء مبرما ! ..**)) فقد كان التقلب مع الهوى عنده ، بمثابة الغذاء الوحيد للعبقرية . حتى انه كان لا يحسن العمل الا اذا كانت الصفحة أمامه

أدباء العصر (فى مارس ١٨٥٦) : الجالسون (من اليسار الى اليمين) : جونشاروف ، ترجنيف ، دورشينين ، اوستروفسكى (الواقفون) : تونستوى ، جريجوروفتش

تضطرم بنار حب جديد ! .. وقد أسف فيما بعد لعدم زواجه ، ولكنه لم يعدل قط عن رأيه فى أن العلاقة الدائمة بامرأة واحدة خطر على الفنان.. وقد كتب ذات مرة يقول : « اننى أعرف هذا الموضوع حق المعرفة ، وقد سبق أن تعمقت فى دراسته تعمقا شديدا ، بيد اننى اذا كنت قد حرصت على عدم تناوله فى مؤلفاتى ، فما ذلك الا تجنبا منى للمسائل الشخصية المتعلقة بذاتى ، نظرا لما تسببه لى من حرج وارتباك ! »

وقد اتيحت له فرصة الزواج عدة مرات ، لما كان يتميز به من جمال قسمات واتساق خلقة ، فضلا عن ثرائه

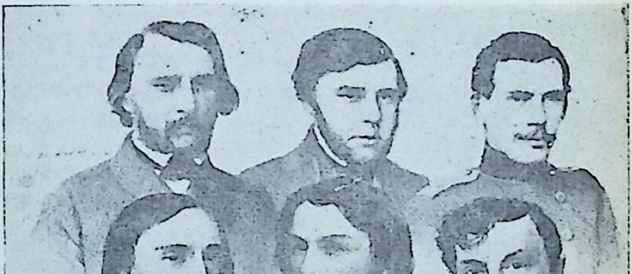

ترجنيف واقرانه من الادباء : (الصف الاعلى ، من اليسار) : ترجنيف ، الكونت سولوجب ، تولستوى . (الصف الادنى) : نيكرا سوف ، جريجوروفتش ، باناييف

وروحه المرحة . وقد كان فى مقدوره أن يظفر باعجاب أية امرأة لعوب ، ولكنه كان ـ على غرار ابطال رواياته ـ لا ينشد النصر قط ! .. ولعله لم يحسب لاى شخص فى الوجود حسابا ، ما خلا « بولين فياردو » ، رغم انه ظل بعيدا عنها عدة سنوات .. ومع انها كانت قد أتت لتغنى فى أوبرا بطرسبرج أثناء اقامته فى المنفى ، دون أن تحاول السفر اليه فى (سباسكوى) ، فقد ظل يتوق الى رؤيتها ويحلم بالعودة اليها ، حتى لقد بلغت به الجرأة ان غادر (سباسكوى) بجواز سفر زائف كى يراها فى موسكو .. وكان كثيرا ما يردد ان مصيره مرتبط بها ، وانه لن يسعه غير اللحاق بها بمجرد صدور اذن القيصر بالعفو عنه !

وقد لبث بعض الوقت فى بطرسبرج وهو شبه منفى .. وكانت روسيا اذ ذاك فى حرب مع انجلترا وفرنسا ، ولم يكن لاحد من حديث الا عن القرم وسباستوبول .. ولعل الشىء الوحيد الذى استرعى اهتمام تورجنييف فى تلك الحرب كان حوادث الحصار التى وصفها ضابط شاب يدعى الكونت « ليو تولستوى » .. فكتب لاحد اصدقائه يحدثه عنه قائلا : « هل طالعت وصفه لمعركة سباستوبول ؟ .. لقد انتزعت مطالعتها صيحة الاعجاب من صدرى ، فشربت نخب المؤلف ! » .. ولم تكد تنقضى أشهر قلائل ، حتى تعرف الكاتبان احدهما الى الآخر ؛ فتبين لتولستوى أن تورجنييف يدعى الديمقراطية ويتظاهر بها ، على حين لاح لتورجنييف أن تولستوى كثير التباهى بلقب « الكونت » الذى كان يحمله .. وليس فى ذلك ما يدعو الى الدهشة ، اذ أن العظماء العباقرة كثيرا ما تتوتر أعصابهم ، وقلما يميل احدهم الى صاحبه !

١٢ ـ العودة الى فرنسا

وفى عام ١٨٥٦ ، عقد الصلح ، فاستطاع الروس معاودة أسفارهم . وما لبث تورجنييف أن حصل على جواز سفر ، وقفل راجعا الى فرنسا حيث استأنف حياته الهادئة مع بولين فياردو .. وسرعان ما جمعته أواصر الصداقة ـ مرة أخرى ـ بالاسبانية المحدودبة الظهر ، البارزة العينين ، ذات الصوت الألهى ، وباطفال فياردو ، وابنته بولين تورجنييف التى لم تعد تتكلم الا الفرنسية . وقد زار نيقولا شقيقته فى فرنسا فكتب الى امراته يقول لها : « ان أطفال فياردو يعاملونه معاملتهم لأبيهم ، وان كانوا لا يشبهونه قط .. وانى لا أود الثرثرة ، ولكننى اعتقد انه كانت تربطه ببولين فياردو ـ فيما مضى ـ صلة أكثر عمقا وأشد وثاقا .. لقد اصبح الآن صديقا للعائلة ، يعيش مع أفرادها عيشة ناعمة هادئة .. »

وكانت الحياة فى قصر (كورتافنيل) يسودها المرح والصفاء .. فقد كان سكانه يطالعون بصوت عال ويمثلون المسرحيات الهزلية مع الاطفال وكانت بولين تورجنييف تبدع فى قيامها بدور « ايفيجينى » .. وكانت جميع الالحان الموسيقية الشائعة فى العالم تتردد بين جدران القصر ، باستثناء الحان فاجنر التى كان فياردو وزوجته يكرهانها ، أما تورجنييف فكان يوجه جل اهتمامه الى الاطفال ، فيكتب لهم المقطوعات الفنائية ويقطع العشب رطبه ويابسه هانئا سعيدا بحياته .. على أن تلك الحياة كانت تظللها سحابة من الحزن الدفين ، اذ كان تورجنييف يتدله فى حب مدام فياردو ، ويتألم من أن يعيش « وهو يوشك أن يخدع رجلا آخر ! » .. وقد زاره يوما اصدقاؤه الروس فى فرنسا ، فألفوه فى

حالة تدعو الى الرثاء ، فقال اذ ذاك لأحدهم فى لهجة ملؤها اليأس والقنوط : « **لقد حجبت شمس بولين عن عينى - منذ أمد طويل والى الابد - أنوار كل ما عداها من النساء.. وانى لأستحق كل ما أعانيه الآن من آلام ، لاننى لا أشعر بالسعادة الا متى وطئت امرأة عنقى بقدمها وسحقت أنفى فى الوحل!!** » ثم تنهد وقال : « يا لسعادة المرأة القبيحة ! »

وقد رآه تولستوى فى باريس فكتب يقول : « لم يدر بخلدى يوما انه قادر على مثل هذا الحب ! .. » وقد أخطأت « مدام اكساكوف » اذ قالت عنه : « انه عاجز عن الحب » . **والواقع أن المرأة اذا قالت عن رجل أنه عاجز عن الحب ، فانها غالبا ما تقصد التخصيص لا التعميم ، اى أنه عاجز عن حبها هى..** أما مدام فياردو ، تلك المرأة الغامضة ، فقد ظلت تحيا حياة هادئة بين زوجها فياردو وصديقها تورجنييف ، وتعطف عليهما عطف الأم الرؤوم على ولدها ، وتربطها فى الوقت نفسه علاقات غرامية بعدة أشخاص منهم مدير الاوركستر الالمانى « جول ريتز » .

وكانت تجد لذة ومتعة فى الفرار بعض الوقت من فياردو وتورجنييف . وقد كتبت لريتز فى هذا الصدد تقول : « يجب أن أسر اليك بان الرحلات الصغيرة التى قمت بها وحدى فى هذا الشتاء ، كانت لى بمثابة اجازة أثلجت صدرى وحملت الهدوء والطمأنينة الى قلبى، الذى يميل احيانا ويفتر من حب لاصدى له ، فضلا عن ان غيابى قد ساعد على مضاعفة تقديرى واحترامى لرجل غاية فى النبل والاخلاص!» ولعل الرجل الذى كانت تقصده من وراء عبارتها تلك ، هو زوجها ؛ وان تكن عواطفها نحو تورجنييف قلما كانت تختلف عن المشاعر التى تكنها لزوجها . **ويلوح أن مدام فياردو كانت - قبل كل شىء - فنانة على غرار تورجنييف ، اذ**

كانت شديدة الولع بالموسيقى ، وتميل الى الرجال الذين نسجت حياتهم مثلها بخيوط الموسيقى .. ولما كانت قد فشلت فى الحب ، فانها كانت تسمو بالصداقة الى مرتبة العبادة ، وفى هذا تقول : « لولا الصداقة المقدسة ، لقضيت نحبى منذ زمن بعيد .. واحسب اننى قد أوتيت القدرة على أن أكن شعورا بالود والصداقة لا يكن مثله مخلوق . فالصداقة عندى شعور ثابت منزه عن الانانية ، وطيد الاركان ، متين البنيان ، لايعرف الكلل أو الملل اليه سبيلا! »

على أن تورجنييف ما كان ليرضى بمثل هذه الصداقة المشتركة .. ولقد ظلت حياته أشبه بشىء ناقص فاتر ، فلما بدات صحته تعتل ، اخذ يستشير جميع أطباء أوروبا وينصرف الى مطالعة القاموس الطبى !.. وكان يحس فى قرارة نفسه انه منفى ، اذ لم تكن فرنسا فى عهد الامبراطورية الثانية لتروق له ؛ فراح يسخر من كتابها ، مستهجنا «صرير قيثارة الشاعر فيكتور هوجو ، ونقيق لامارتين ، ومذهب بلزاك الواقعى الزائف ، وسفسطة جورج صاند ! .. » وما من شىء كان يرضيه فى الحياة ؛ حتى لقد كان يعتقد ، وهو لا يزال بعد فى الاربعين ، انه لن يعمر طويلا . ولم تصدر روايته الثانية «خداع النبلاء» الا بعدان عاد الى (سباسكوى) ووطأت قدماه أرض الوطن ..

١٣ ـ « خداع النبلاء »

وقد أحرزت روايته الثانية «خداع النبلاء» ـ دون سائر مؤلفاته ـ نجاحا منقطع النظير ، وفيما يلى ملخص لها :

اقترن شاب روسى يدعى « لافرتيسكى » بامرأة لعوب ، ثم اصطحبها معه الى باريس حيث استسلمت لحب أحد الشبان الفرنسيين ..ولم يلبث الزوج أن اكتشف خيانة

امراته ، فتركها فى فرنسا وقفل راجعا الى ضيعة كان يملكها على مقربة من (أوريل) .. وهناك تعرف الى « ليزا » ، وهى فتاة روسية بارعة الجمال ، سرعان ما غزت قلبه بسحر شبابها ورقة أنوثتها .. وذات صباح ، طالع فى احدى الصحف الواردة من فرنسا نبأ وفاة زوجته ، واذ ذاك أحس بأنه أصبح حرا ، طليقا .. فراح يطارح «ليزا» الهوى ، الى أن وقعت بينهما عدة مواقف غرامية أشبه بغراميات « فيرتر » (١) .. ففى ذات ليلة ، يتقابل الحبيبان فى حديقة الدار ، ويمضيان يتبادلان اسمى عبارات الحب، ولايفترقان

فى النهاية الا بعد أن يتواعدا على الزواج فى أقرب وقت .. وتعود « ليزا » بعد ذلك الى دارها ، على حين يمكث هو وحده فى الحديقة ينصت الى ساعة المدينة وهى تدق منتصف الليل . ولما يرى انوار منزل « ليزا » تنطفىء ، والظلمة تخيم على غرفتها ، يردد هامسا : « طاب ليلك ، يا طفلتى العزيزة ! » . ويظل هكذا فى مكانه جامدا ، لا يغض من بصره عن نافذة الغرفة المظلمة .. واذ يعود « لافرتيسكى » مع الفجر الى ضيعته ، يجد نفسه وجها لوجه أمام زوجته وقد اتت تتوسل اليه ان يصفح عنها وان يردها وطفلها الى المنزل ! .. على انها لم تفقد شيئا من طيشها وخداعها ، اذ سرعان ما تذهب فى اليوم التالى لزيارة أسرة « ليزا » ، فاذا بها تسحر الجميع وتخدعهم بدلالها وجمالها . أما «ليزا» — التى حيل بينها وبين تحقيق حلمها الجميل — فانها ما تلبث أن تلجأ ، من فرط حزنها وقنوطها ، الى الدير .. وتتلاحق الاعوام ، واذا بلافرتيسكى يعود لرؤية دار الحبيبة، ويجلس فى الحديقة على المقعد الخشبى الذى طالما جلس واياها عليه

---

(١) بطل رواية « آلام فيرتر » للشاعر الألمانى «جوته» .

.. ويقع بصره على فتيان الجيل الجديد وفتياته وقد راحوا يمرحون ويملأون أرجاء الفضاء باصواتهم وضحكاتهم ، بينما كان هو يسبح بأحلامه فى الايام الخوالى ، ويعود بالذاكرة الى حبيبته ((ليزا)) ! .. وقد تبدو عقدة الرواية مبتذلة : لولا انها عولجت بشكل رائع متكامل وبأسلوب سلس وشعور رقيق فياض . ويحتمل أن يكون ما ناله الكتاب - اذ ذاك - من اعجاب ونجاح راجعا الى طلاوته الفائقة . بيد أنه لا يخلو - مع ذلك - من فلسفة عميقة فى الحياة ، وهى فلسفة خالية من التفاؤل الزائف الخداع ، اذ كل شيء فى هذه الرواية ينتهى بهزيمة الخير وانتصار الخديعة واللؤم .. على اننا نرى فيها شباب الاجيال الجديدة يتقبل الحياة فى ثقة ومرح ، فى حين أن الذين قوضت الكهولة صرح حياتهم - من أمثال ((لافرتيسكى)) - يستسلمون للقضاء والقدر ويخضعون لمشيئة الله !..ومجمل القول ، ان الرواية تفيض حكمة وانسانية ، وانها جديرة ولا شك بالنجاح الكبير الذى أحرزته !

١٤ - تحرير الفلاحين

فى عام ١٨٥٩، أصدر تورجنييف قصة اسمها ((فى الليلة السابقة)) ، تدور حوادثها حول فتاة تتطلع الى المثل العليا وتبحث عن الرجل القوى الذى يستطيع ان يشاطرها مبادئها فى الحياة ويسير عليها .. وكان الكاتب يرمز بفتاته الى روسيا الناهضة ، ويرمى من وراء قصته الى دعوة الاجيال الروسية الجديدة الى توحيد قواها وجهودها ضد عدوها فى الداخل والخارج !

ومما يجدر ذكره ، أن الكتاب صدر فى وقت كانت فيه الافكار تتطور تطورا سريعا فى روسيا .. فقد مات ((نيقولا

الاول » ـ القيصر الحديدى ـ وقضى نحبه مقهورا مغلوبا على أمره ، بعد أن كشفت حرب القرم الستار عن بسالة الشعب الروسى وازاحت النقاب عن عجز البيروقراطية المستبدة التى ظلت زمنا طويلا تتولى ادارة شئونه .. وقد صدرت عندئذ فى موسكو نشرة بغير توقيع جاء فيها : « **تقدم أيها القيصر ! .. تقدم الى محكمة التاريخ .. لقد ارهقت روسيا واستنفدت قواها بكبريائك وعنادك ، وقلبت العالم عليها ، فهلا تواضعت أمام أخوانك ، ودسست جبهتك المتكبرة فى الرغام ؟ ! .. أطلب الصفح والمشورة ، والق بنفسك بين ذراعى شعبك ، فليس لك الى الخلاص سبيل آخر** » !

وقد ساورت نيقولا الاول ـ فى أواخر أيامه ـ الشكوك فى عقيدته ونزعاته ، حتى انه كثيرا ما كان يردد : « فليفعل خلفى من بعدى ما يروق له ، أما أنا فلا يمكن أن أغير مسلكى! »

وقد لاح أن خلفه « اسكندر الثانى » على استعداد لاتباع سياسة التحرير ، اذ أثبتت الحرب أن شعبا يقوم كيانه الاقتصادى على نظام استرقاق الفلاحين ، لا يمكن أن يكافح ضد الدول الحديثة .. وسرعان ما سارت روسيا فى طريق الاصلاح سيرا حثيثا ، ولم يعد مذهب الحرية مجرد عقيدة اعتنقها حزب من الاحزاب ، بل اتجاها عاما راح يسود طبقة النبلاء أنفسهم . واذ ذاك ، بدأ القيصر اسكندر الثانى يهتم اهتماما جديا باعداد مشروع لاصلاح نظام استرقاق الفلاحين فى روسيا !

وفى أوائل عهد القيصر الجديد ، صدر قرار بالعفو عن

جميع «الديسمبريين» (١) ، ولانت شوكة الرقابة نوعا ما ، ثم ألفت لجنة لاصلاح حال الفلاح اشترك فيها الموظفون الى جانب ممثلى النبلاء.. ومالبث الوئام أن عاد يسود بين انصار الصقالبة وانصار الغرب ، اذ راح الغربيون يهللون لاندفاع روسيا فى آفاق أوروبا الواسعة. بينما طفق أنصار الصقالبة يبذلون قصارى جهدهم ليصبغوا الاصلاح بصبغة روسية محضة ، وذلك بتنظيم الملكية الاشتراكية من أجل الفلاحين ! .. وكان الاصلاح اذ ذاك من الامور الشاقة المتعذرة التحقيق حتى على أكثر الرجال استعدادا له .. على انه كان فى الواقع هدفا هينا ميسورا بالنسبة للفلاحين الذين كانوا يعملون فى المنازل ، ويطلق عليهم اسم «عبيد الارض» ، اذ كان الامر لا يتطلب أكثر من تحريرهم . أما فيما يتعلق بالفلاحين من ملاك الاراضى ، فقد كان الاصلاح غاية لا يسهل ادراكها اذ كان يستحيل تحرير الفلاحين دون تعويض سيدهم عن تحريرهم . ولذلك تقرر أن يمنح كل فلاح الارض التى يقوم عليها منزله ، والى جانبها فناء صغير . أما بقية الارض ، فكان يجب عليه أن يقتنيها مقابل تعويض يدفعه للسيد ، على أن يدفع فوائد القرض بواقع ٦ فى المائة .. وكانت تلك الطريقة مبتكرة وعادلة بقدر ما كانت تسمح به الظروف من عدالة وانصاف ، بيد انها سرعان ما أثارت استياء الجميع !

وفى عام ١٨٦١ ، صدر مرسوم القيصر بتحرير ٢٣ مليون

---

(١) فريق من الضباط الروس النبلاء ، تأثروا بمبادىء الثورة الفرنسية ، وحاولوا القيام بانقلاب دستورى فى ١٤ ديسمبر عام ١٨٢٥ .. غير انهم فشلوا ، وأعدم خمسة من زعمائهم ، وقد عرفوا فيما بعد « بالديسمبريين » .

روسى ، وكان تورجنييف وقتئذ فى بلريس ، فلما بلغه النبأ قال : ((فليبارك الله القيصر !)) .. ومما قيل له أيضا ـ وبادر بتصديقه عن سلامة نية ـ أن مطالعة ((مذكرات صياد)) قد أثرت الى حد كبير فى القيصر نفسه ، فدفعته الى اتخاذ قراره الحاسم !

على أن الفلاحين لم يشاطروا الاحرار حماستهم . . فعندما تلا عليهم القساوسة منشور القيصر فى الكنائس ، اذا بهم يتساءلون : ((ما حدود هذه الحرية ؟ . .)) ذلك لانهم كانوا يعتقدون أن التحرر من نظام الرق لن يلبث ان يجعلهم ملاكا للاراضى كلها ، وأن أراضى القيصر وحديقته ستصبح ملكا للجميع . وكانوا مقتنعين بذلك كل الاقتناع ، حتى انهم اجتمعوا فى بعض القرى وراحوا يطالبون مجلس المديرية بأن يترك لبعض السادة النبلاء قصورهم يتمتعون بها طوال حياتهم ، مكافأة لهم على ما أظهروه من ضروب الكرم والشهامة فى ظل نظام الاسترقاق ! .. غير انهم ، ما أن أدركوا أنه سيتحتم عليهم أن يدفعوا للدولة من الفوائد ما يكاد يعادل الضرائب التى كانوا يدفعونها للسيد المالك ، حتى ثارت ثائرتهم ، واستشاطوا حنقا وحقدا !

وقد تسنى لتورجنييف ـ فيما بعد ـ أن يصف فى مؤلفاته المتاعب الجمة التى عاناها الملاك الذين ارادوا أن يكونوا أسخياء كرماء .. أما هو شخصيا ، فقد حرر منذ ١٨٥٠ عددا من خدم المنازل ((عبيد الارض)) ، ومنحهم عند تحريرهم قطعا من الاراضى بغير مقابل ، ثم تنازل للفلاحين الآخرين ((الموجيك)) عن خمس التعويض المستحق عليهم .. على أنه ـ بالرغم من ذلك ـ اتهم بأنه لم يعش وفقا لمبادئه ، ونعى عليه أنه لم يحرر جميع فلاحيه الارقاء على أثر وفاة والدته مباشرة !

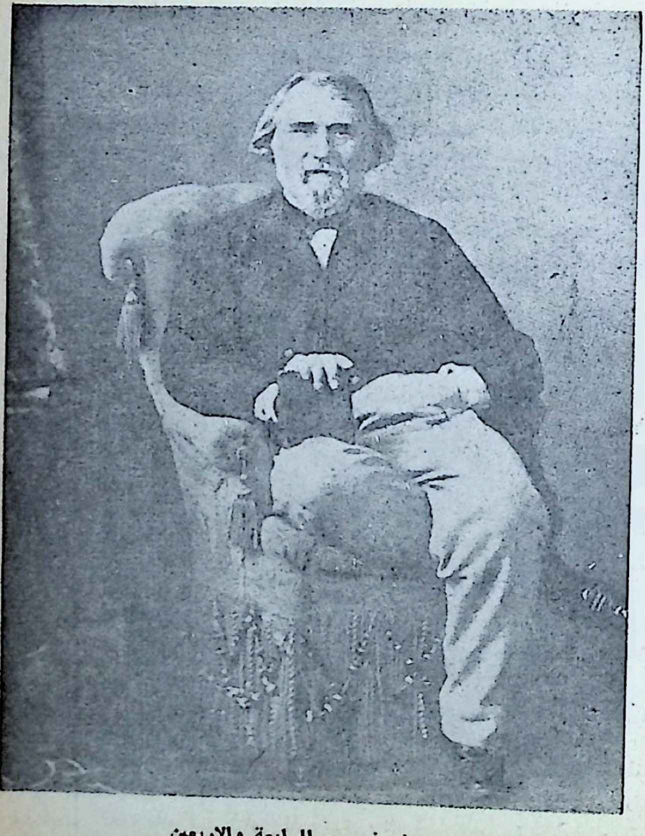

ايفان ترجنيف فى سن الرابعة والاربعين

وقد وصف تورجنييف ـ بصورة ضاحكة باكية ـ حالته بعد أن انتزع منه نصف أملاكه ، فقال : «أن الفلاحين يتركون أبقارهم ترعى فى مروجى ، ويقطعون الخشب فى حديقتى ، ويحطمون ، فى كل شتاء ، مقعدى العزيز المواجه للبحيرة ! »

.. وكان يقول أيضا لصديقه بولونسكى : « لعلنا نرى الفلاحين فى أحد الايام ، ونحن جالسون نشرب الشاى خلف الدار ، يتوافدون علينا من باب الحديقة ، ويرفعون قبعاتهم ، ثم يطأطئون رؤوسهم حتى أقدامهم . فابتدرهم أنا عندئذ بالسؤال قائلا :

ـ ماذا تريدون يا أخوانى ؟ ..

ـ أصفح عنا يا سيدنا ، لا تغضب .. انك سيد صالح واننا نحبك حبا جما ، ولكن يجب أن نشنقك !!

ـ تشنقوننى ؟ !

ـ أجل .. ان مرسوم القيصر ينص على ذلك .. لقد اتينا معنا بحبل .. فاتل صلاتك الاخيرة ، ولسوف ننتظرك قليلا ! »

وان هذا الحوار ، وان يكن لا يخلو من سخرية مرة ، الا انه يعكس الشعور الذى استبد فى ذلك الوقت بجميع المصلحين الاحرار ، بعد أن اتموا اصلاحهم ووضعوه موضع التنفيذ !

١٥ ـ « آباء وأبناء »

كانت فترة التحرير من أهم حقبات تاريخ روسيا وتاريخ حياة تورجنييف ذاته ، لأنها سجلت خاتمة عقيدة .. خاتمة مذهب الحرية الساذج الذى كان أنصاره يخالون أن قليلا من الكرم والسخاء ، كان كفيلا بتهدئة خواطر تلك البلاد الغامضة المترامية الاطراف .. وقد بذل أعضاء اللجنة

الامبـراطورية قصـارى جهودهم ، وحسـبوا فى وقت من الاوقات انهم انقذوا وحـدة الشعب ، بيـد انهم سرعان ما تبينوا مـدى ما وقعوا فيـه من خطأ .. والامـر الذى لم يستطع شيوخ الاجيال القديمة إدراكه اذ ذاك ، انهم كانوا بصدد خاتمة نظام قديم أولى وفاتحة عهد جديد اقبل ! ..
أما شبان الجيل الجديد ، فقـد اخـذوا يعتنقون مذاهب جديدة ، بعد أن نفرت نفوسهم من مذهب الحرية الفاشل .
وسرعان ما شعر تورجنييف بأنه يفقد حلقة اتصاله بشبيبة البلاد ، فبدأ الشـك يسـاوره فى السـياسة ، وطفق ايمانه بالحب يهتـز ويتزعزع ، فـكان لا يفتـأ يردد : « قليلا من الصبر ثم نرسو فى ميناء الشـيخوخة الهادىء ، حيث نلقى نشـاط الشـيوخ وأفراحهم ! » .. ومع أنه كان فى الرابعة والاربعين من عمره ، فانه لم يكن يلمس فى نفسه أى شعور بالاسف أو الأمل ، اذ كان كثيرا ما يستسلم لدوار اللانهائية الخطير الذى يفقد المصابين به كل شعور بالتوازن البشرى ! .. وكان فى هذا يقول : ((**ان الصرخات الضعيفة التى يطلقها ضميرى ، لا تزيد فى قوتها عن تلك الهمسات التى قد تخرج من شفتى وأنا واقف على شاطىء خضم صاخب مضطرب ! .. ان الذبابة تطن لحظة ثم تكف عن طنينها .. وتبدأ ذبابة أخـرى ــ تختلف عن الاولى ــ طنينهـا بدورها ، وهكـذا دواليك .. من قرن الى قرن !))**
وقد شعر تورجنييف آنئذ بالشيخوخة تتسرب اليه قبل الاوان .. وفى عام ١٨٦٠ ، كتب رواية رائعة عنوانها ((**الحب الاول**)) لعلها أجمل مؤلفاته ان لم تكن أكملها على الاطلاق .. وقد عمد فيها الى وصـف والده الـكولونيل تورجنييف ، ووالدته ، وعذراء جميلة أحبها وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، وظل يحبها الى أن اكتشف ان والده ينافسه فى حبها ! ..

وتنتهى هذه القصة بنداء حار موجه الى الشباب : « ايه .. أيها الشباب ، انك لا تبالى بشىء وكأنك تملك جميع كنوز العالم ؛ بل أن الحزن ذاته يروح عنك والالم يرضيك ! .. إنك تتمتع بالثقة والمجون وكأن لسان حالك يقول : « انظروا .. اننى أعيش وحدى ! » . بيد أن ايامك ، انت أيضا ، تمر وتزول دون أن تترك أثرا ، وكل شىء فيك يغيب كالشمس الساطعة وينقشع كسحابة صيف !.. ولعل السر فى سحرك لا ينحصر فى كونك تستطيع انجاز كل شىء .. لقد كنت انا ايضا مثلك .. واسع الآمال ، شديد التطلع الى مستقبل باهر ؛ عندما كانت تراودنى – وأنا حزين مبتئس – ذكرى حبى الاول .. ولكن ترى ماذا حل بجميع آمالى ؟ ! .. **والآن وقد بدأت ظلمات الليل تكتنف حياتى ، لم يبق لى ما هو أقرب الى نفسى من الحق ولا أعز الى قلبى من ذكرى عاصفة الربيع التى هبت ثم هدأت بهذه السرعة ! »**

وكان لا بد لتلك الفلسفة – التى تقطر حزنا ويأسا – أن تثير امتعاض الشبان وتدفعهم الى الاعراض عنها ، حتى لقد كانت علاقات تورجنييف بالكتاب الناشئين كثيرا ما كانت تؤلمه وتحز فى قلبه ، بالرغم من أنه كان من أشد رجال الأدب تواضعا معهم ؛ يعاملهم معاملة الند للند والصديق لصديقه، محاولا أن يمد لهم يد المساعدة .. بيد أنه كان يصطدم دائما بجيل قاس فظ الطباع شرس الاخلاق ، لا يحب الرقة واللطف ، ولا يميل الى ما يبديه زميلهم الاكبر من غيرة على الانسانية ولا الى ما يتحلى به من عذوبة أشبه ما تكون بعذوبة النساء !

ولكن على الرغم من الاسى والاكتئاب اللذين كان عداء الشبان له يثيرهما فى نفسه ، فانه كان يرقبهم بوصفه فنانا قبل كل شىء ، فيجد سعادة حقيقية فى محاولة فهم أولئك

الذين كانوا يصلونه نار الخصومة ! .. وكان ينظر اليهم نظرته الى ابطال قصصه ، فيتبين فيهم ملامح رجال تعساء لا يؤمنون بشيء ويرتابون فى الوقت نفسه فى جدوى القيم والافكار ، اذ كانوا لا ينفكون يقولون : ((**يجب تدمير ما يمكن تدميره .. والخير كل الخير فيما ينجو من حد السيف .. والشر كل الشر فيما تتطاير شظاياه ويتلاشى فى العدم ! .. وعلى كل فلنسدد ضرباتنا تارة الى اليسار وطورا الى اليمين، فلا يمكن أن ينجم عن ذلك ضرر ما !**)) .. وكان الآباء يبحثون فى أيام شبابهم عن مثل اعلى للبناء والتشييد ، فاذا باولئك الشبان ، الذين استفزهم ما فى العالم من نقص ومساوىء ، يريدون التحرر من كل تقليد ويعلنون الحرب على الفنون جميعا .. وكان كل فنان حر مثل تورجنييف يعتبر فى نظرهم مخلوقا شاذا لا يطاق ! . اما هو ، فكان لا يبحث بينهم الا عن نموذج يستمد منه مادة لقصصه ، فلم يحاول يوما ما الحكم عليهم أو اطراءهم ، لانه ظل دائما يؤمن بأن واجب الفنان يحتم عليه الا يقيم الدليل أو البرهان على شيء ! .. ولكنه كان يريد أن يمثل جيلين ، ويحلل ما يقرب بينهما من رابطة مشتركة متمثلة فى الحب والموت ، وما يبعد أحدهما عن الآخر من شعور الحياء والخجل لدى الآباء الذين كانوا يستميتون فى جهودهم لمحاولة فهم نفسية أبنائهم ! وقد تجلى ذلك النزاع القائم بين الآباء والابناء فى روسيا ، فى غضون سنة ١٨٨٠ ، حيث بدا الشقاق بين الفريقين أكثر جلاء ووضوحا من اى وقت مضى. ولعل فترات الانتقال من أشد الفترات فائدة للكتاب الروائيين ، بدليل أن ((بلزاك)) استقى الكثير من مواده مما كان يلمسه فى مجتمع العهد القديم من تناقض مع مجتمع نظام الامبراطورية .. اما تورجنييف ، فكان يريد أن يبين أوجه التناقض القائمة

بين جيل المادة والعلم وبين مذهب الحرية الشعرى وما بقى من رواسب جيل العقائد الدينية !

ولو أن تورجنييف لم يقدر له أن يجد النموذج الذى صاغ مؤلفه على نمطه ، لكان ذلك البحث الفكرى خطرا مستطيرا عليه .. وقد روى هو نفسه كيف عثر على هذا النموذج ، اذ قال :

« لقد طرأت على ذهنى أول فكرة لرواية « الآباء والابناء » خلال شهر أغسطس من عام ١٨٦٠ ، بينما كنت أتمتع بحمامات البحر فى (فينتنور) بجزيرة وايت .. ولقدطالعت عدة مرات فى مقالات نقدية اننى وضعت هذا الكتاب وفقا لفكرة اختمرت فى فكرى سلفا .. **أما أنا شخصيا ، فيجب أن اعترف بأننى لم أحاول قط أن أخلق نموذجا ، اذ لم تكن هناك ، ليس فقط فكرة توحى الى به ، وانما أيضا شخص حى تمتزج فيه عناصر مختلفة امتزاجا منسجما !.. فقد كنت دائما فى حاجة الى قاعدة وطيدة استطيع الاستناد اليها ..** وكان هذا شأنى فى رواية ((آباء وأبناء)) ، اذ كان بطلها وهو « بازاروف » يقوم على شخصية طبيب شاب يعيش فى الريف . وفى هذا الرجل المدهش ، تجسم العنصر الناشىء الذى قام على أساسه فيما بعد مذهب « العدمية » .. وقد كان الأثر الذى خلفه هذا الشخص قويا بعيد المدى .. وفى أول الامر ، لم يكن فى وسعى أن اتمثله لنفسى بوضوح . ولكننى مضيت استخدم عينى وآذانى ماوسعنى ذلك ، فكنت أرقب وأتأمل ما يحوط بى ، وأحاول الاستسلام فى بساطة لما يخالج صدرى من مشاعر وأحاسيس .. »

والعقدة فى قصة ((آباء وأبناء)) بسيطة ، غاية فى البساطة ، كما هى الحال دائما فى جميع قصص تورجنييف .. وهى تتلخص على النحو التالى :

يذهب شابان لقضاء اجازتهما عند والدى أحدهما ثم عند والدى الآخر .. وسرعان ما تتضح ، مما يدور بينهم جميعا من حوار ومناقشات ، معالم ذلك النزاع القائم بين جيلى « الآباء والابناء » ، وشقة الخلاف التي تفرق بينهما ، والمصاعب التى يلاقيها أحدهما فى فهم عقلية الآخر ، على الرغم مما يربطهما من أواصر المحبة والتقدير . ويقع بطل الرواية وهو بازاروف « العدمى » فى غرام امرأة شابة تدعى « مدام اودينتسوف » ، فيعاملها بقسوة وفظاظة مثلما يعامل والديه .. واخيرا يقضى نحبه كالابله الحقير ، على أثر حقنة طبية. فيذهب موته سدى كحياته ، ويبكيه والداه اللذان لم يفهماه وانما أحباه حبا جما !

ولتحديد ملامح ذلك الجيل الجديد من الشبان ، ابتكر تورجنييف لفظ « عدمى » ، واطلقه على « بازاروف » ، وهو لفظ مشتق عن كلمة لاتينية بمعنى « لا شىء » ، **وتعنى كل رجل لا يريد الاعتراف بشىء ، أو بالاحرى لا يحترم شيئا ، وينظر الى الحياة نظرة الساخر الناقد ، فلا يخضع لأية سلطة ، ولا يقبل أى مبدأ بغير بحث وتدقيق ، بالغا ما بلغت المنزلة التى يتمتع بها هذا المبدأ بين الناس !**

وقد صادفت كلمة « عدمى » رواجا كبيرا منذ ذلك الحين، حتى لقد ظل شبان الثورة فى روسيا يعرفون بالعدميين ردحا طويلا من الزمن . ولكن اتراهم لم يكونوا الا معارضين؟ .. لقد كانوا يعتبرون انفسهم ، قبل كل شىء ، من ذوى النزعة العلمية ، ويرون انهم ينتمون الى ذلك الجيل الذى كان أول من أراد أن يطبق الطريقة العلمية على السياسة .. وقد كان « بازاروف » يؤثر أن يكون واقعيا على أن يكون فوضويا ، اذ كان الابناء قد ضاقوا ذرعا بثرثرة الآباء عن الاصلاح ، مما جعلهم يرددون :

« **لقد أدركنا ان الكلام عن القروح التى تنخر نفوسنا لا يكفي ، وان الثرثرة وحدها لا تؤدى الا الى الابتذال وما تتشدق به المذاهب من مبادىء جوفاء !** .. وتبين لنا ان الرجال الذين سبقونا لا مناقب لهم ولا مزايا ، واننا نهتم بالترهات والتفاهات كشعارات « الفن للفن » و « القوة المبدعة التى تجهل نفسها » و « البرلمانيات » و « ضرورة المحامين » ، وغير ذلك من البدع التى لا طائل تحتها ، بينما الحاجة ادعى الى التفكير فى خبزنا اليومى ! .. وفى الوقت الذى تخيم فيه الخرافات على عقولنا وتخنقنا ، وتشهر شركاتنا المساهمة افلاسها بسبب عدم توافر الرجال من ذوى النزاهة والشرف ، وتسفر حرية الفلاحين نفسها — التى تهتم بها الحكومة اهتماما زائدا — عن فشلها فى بلوغ الهدف المنشود ، لما طبع عليه فلاحونا من استعداد دائم لان يسلبوا انفسهم ، كى يتعاطوا المشروبات المسمومة فى الحانات ! »

أما الآباء ، فكانوا يبثون شكواهم فى هدوء وتؤدة قائلين : « **اننا لم نعد نصلح الا للتقاعد ! .. لقد انتهينا من ترديد انشودتنا الاخيرة** » .. وعبثا حاولوا أن يتقربوا — فى لباقة ومودة — من الابناء ، فقد كان الجيل الجديد يجدهم متأخرين رجعيين ، لا خير يرجى من التفاهم معهم ! على ان الآباء كانوا يعتبرون انفسهم — مع ذلك — دعاة حضارة راقية ، اذ كانت لهم أذواقهم فى الشعر والفن ، وكانت لهم جهودهم ومحاولاتهم لتفهم الادب الجديث وتذوقه .. بيد ان ابناء الجيل الناهض كانوا يأبون الا أن يتجاهلوا كل ما يمت الى الادب بصلة ، وان ينأوا بأنفسهم عن كل مايتصل بالنبلاء من قريب أو بعيد ، غير مكتفين بمد يد المعونة الى الشعب ، حريصين فى الوقت ذاته على أن يكونوا جزءا منه وأن يعيشوا بينه .. وكانوا فى هذا يقولون : « انكم تعتقدون ،

أيها السادة النبلاء ، أنكم رجال عظماء ، وانكم بلغتم ذروة الكمال البشرى ، لمجرد امتناعكم عن ضرب خدمكم ، بينما نحن لا نطالب بغير الضرب والبطش ! » .. وهكذا بدأت تتولد فى « بازاروف » ميول الارهابيين الذين لم يكونوا قد ظهروا بعد على مسرح الحياة الروسية !

وقد أحدث الكتاب دويا كبيرا فى روسيا ، الا انه لم يكن بالصورة التى كان يرجوها له تورجنييف .. فقد كان يحب « بازاروف » ويعطف عليه ، حتى لقد اضطر عند انتهائه من سرد وقائع وفاته ، الى تحويل راسه خوفا من أن تنهمر دموعه على مخطوطاته فتبللها ! .. وكان يصف بطله قائلا : « اننى أشاطر بازاروف جميع عقائده ، ماعدا أفكاره عن الفن! » . وخلافا لما كان يتوقعه تورجنييف، قابلت الاحزاب المناهضة للاصلاح، الكتاب بسرور مفعم بالسخرية والتهكم ، وراحت أشد دوائر المحافظين تمسكا بمبادئها تبدى استياءها لتحرير الفلاحين الارقاء ، واذا بها تتخذ من شخص « بازاروف » حجة استندت اليها للمطالبة بضرورة تطبيق نظام الاستبداد المطلق، واذا بها تقبل على تورجنييف مهنئة مؤيدة لتنديده فى روايته بروسيا الفتية الناهضة . ومن حسن حظ هذا الاخير : انه لم يقف على التقرير الذى رفعه البوليس الى القيصر وأثنى فيه على المؤلف ثناء عاطرا لاصداره رواية سخر فيها من الثوريين ولقبهم باسم « العدميين » اللاذع . أما هو فلو لم يوضح للرأى العام اعجابه ببازاروف ، لكانت روايته قد منيت بالفشل التام . وما لبثت الشبيبة التى رأت فى الكتاب صورة ساخرة لها ، ان وقفت منه موقف العداء. فكتب تورجنييف يقول : « **لقد أظهر لى الناس الذين كنت أحبهم واعطف عليهم فتورا قريبا من السخط والاشمئزاز ، على حين رحت اتقبل تهانى**

اعدائى من رجال المعسكر المعارضين ! .. وقد عجبت لذلك وشعرت بقلبى يدمى ، ولكن ضميرى لم يؤنبنى قط ، اذ كنت أؤمن كل الايمان بأنى اتممت بكل دقة وشرف النموذج الذى أردت أن أرسمه . ولقد رسمته ، ليس فقط بغير زعم باطل أو ادعاء ، وانما أيضا فى عطف وحب جمين ! »

ولم يلبث تورجنييف ان أرسل خطابا طويلا الى طلبة « هيدلبرج » الروس ــ الذين كانوا قد احتجوا على كتابه احتجاجا شديدا ــ رد فيه على ماوجهوه اليه من عبارات اللوم ، ولا سيما فيما يختص بالآباء ممثلى طبقة النبلاء القديمة ، لمعالجته موضوعهم فى جو ملائم يدعو الى العطف عليهم .. وقد قال لهم فى رسالته :

« أن ما يقال عن الآباء ومحاولتى رد اعتبارهم ومكانتهم اليهم ، لا يدل الا على شىء واحد هو أن أحدا لم يفهمنى !.. واننى لأرجو منكم أن تحدقوا فى هذه الوجوه .. وجوههم .. انها لا تعكس غير الضعف والاسترخاء وبلادة النبلاء !.. وقد دفعتنى حاسة الفن الى اختيار خير الممثلين للطبقات العاملة لأبرهن على رسالتى . فاذا كانت الزبدة فاسدة فبالاحرى كان اللبن .. » ثم استطرد فقال : « واننى اختم خطابى بهذه الملاحظة .. فاذا كان القارىء لايحب بازاروف بكل مافيه من فظاظة وقسوة وشراسة ، فالذنب فى ذلك ذنبى لأننى لم ابلغ غرضى.. اننى لم أحاول التزلف كالكلاب، ولو اننى فعلت ، لااستطعت بلا شك أن استميل الشبان ؛ ولكنى لم أرغب فى شراء حظوتى بهذا العمل الخسيس .. واننى لأفضل أن اخسر الحملة كلها على أن اكسبها بهذه الخديعة ! .. لقد تخيلت وجها قاتما شرسا يكاد يكون متوحشا قويا ، ونبيلا شريفا ، ومع ذلك حكم عليه بالفناء

لانه يقف دائما على باب المستقبل !! .. ومعاصرى الشبان يصيحون فى ، وهم يهزون رؤوسهم : « نقد هويت ياصديقنا الشيخ !.. لقد الحقت بنا الاهانة » ، فلم يبق لى — على حد ماجاء فى انشودة الفجر — الا ان انتزع قبعتى وانحنى طويلا .. »

وقل ان يوجد خير من ذلك المثل النابض ، للدلالة على زيف المناظرات وبطلانها وما ينتاب الكاتب من ضعف يجعله يتأثر بحكم معاصريه ورايهم فيه !.. فها هو ذا تورجنييف، الذى قوبل بحرارة واعجاب ، ووضع فى طليعة الروائيين الروس بفضل قصة ممتعة شائقة مثل « خداع النبلاء » ، يفقد تلك المكانة فى صدور الشبيبة الروسية من جراء كتاب هو فى الحقيقة من الروائع التى يفخر بها الادب ويعتز .. ان حكم الناس مشوش متقلب غالبا ، **« الا ان قيظ النهار لن يلبث أن يمر ، ويخلفه المساء ، ثم تخيم ظلمة الليل .. ذلك الليل الذى يضم جميع المتعبين ، الذين أضنتهم المحن ، فى حظيرة واحدة هادئة ! . »**

١٦ – خصام تورجنييف وتولستوى

لم تتوتر علاقات تورجنييف بالشبان وحدهم ، بل سرعان ما دب الخصام بينه وبين تولستوى ايضا .. فما ان تم التعارف بين الاديبين الكبيرين ، حتى أخذت جريدة تولستوى تطلع كل يوم بآراء متناقضة متضاربة عن تورجنييف.. فكانت تارة تقول انه انسان ممل مضجر اشبه ما يكون بطفل ، وتارة أخرى تقرر انه رجل ذكى ولكنه لا يؤمن بالذكاء ولا بشىء على الاطلاق ، وتارة ثالثة تؤكد انه لم يحب قط فى حياته وانما اراد فقط أن يحب !.. ومع ان تلك الآراء لم تكن عارية تماما من الصدق، فقد كان فى مقدور

تورجنييف أن يرد عليهـا بقوله : **« ان تولستوى لم يحبنى قط ، وانما أراد فقط أن يحبنى ! »**

وفيمـا كان الرجـلان يقيمـان معـا فى باريس ، كتب تورجنييف الى صديقه « انينكوف » يقول : « اننى لا أستطيع التقرب الى تولستوى على الرغم من كل جهودى فى هذا السبيل .. انه على النقيض منى فى كل شىء .. فمَا أحبه أنا ، يكرهه هو ، والعكس صحيح ! .. واننى لأشعر بالارتباك يستحوذ على فى حضرته ، ولعله يشعر هو أيضا بمثل هذا الاحساس . وليس من شك فى انه سيصبح رجلا عظيما يشار اليه بالبنان ، وسوف اكون أنا أول من يصفق له ويعجب به .. ولكن من بعيد ! »

والحق ان الرجلين لم يخلقا ليعيشا معا فى تفاهم ووئام ، وكان هـذا الداء بينهمـا بغير دواء ! .. وقـد أوضحت زوجة تولستوى أسباب القطيعة بينهما فقالت : « التقى تورجنييف يوما بتولستوى عند « فيث » فى (ستيبانوفكا) بولاية اورلوف ، ودار الحديث بينهما حول الاحسـان . فروى تورجنييف أن ابنته ، التى تلقت ثقافتها فى الخارج ، فتاة كثيرة الاحسان الى الفقراء والبؤساء .. فقال تولستوى انه لايحب هذا النوع من الاحسان ؛ اذ ان الواجب يحتم على الانسان الا يختـار فقراءه على الطريقة الانجليزية ويخصهم بجزء ضئيل محدود من دخله ، فالاحسان الحقيقى هـو الذى يصـدر عن القلب ويلبى نداءه الاول . فهتف تورجنييف : « اتعنى بذلك اننى لا أحسن تربية ابنتى ؟ » وأجابه تولستوى بأنه لايقصد أحدا بالذات ، وانما هو يعبر عن رأيه الخاص ! فصـاح فيه تورجنييف غاضبا : « اذا تماديت فى الحديث على هذا النحو ، فلن اتوانى عن صفعك ! » . وما لبث تولستوى ان انصرف متوجها الى المحطة الواقعة

بين املاكنا وأملاك « فيث » . وهناك بعث يطلب بنادق وطلقات، ثم ارسل الى تورجنييف خطابا يطالبه فيه بالتكفير عن الاهانة التى الحقها به ، **وأفهمه أنه لن يتظاهر بالقتال أى أنه لم يكن يرغب فى نزال بين اديبين يصحبهما ثالث ، او فى مبارزة تنتهى بقرع كؤوس الشمبانيا ، انما يبغى القتال حتى الموت ! .. ثم سأل تورجنييف أن يأتى مزودا ببندقية الى (بوجوسلوف) حيث يجده فى انتظاره عند أطراف الغابة !**

« وقضى تولستوى الليل بطوله فى الانتظار . وفى الصباح، بعث اليه تورجنييف يقول انه ليس على استعداد للنزال وفقا للشروط التى يقترحها تولستوى ؛ وطلب أن تكون المبارزة عادية . واذ ذاك ، رد عليه تولستوى قائلا : « انك تخشانى، ولكننى احتقرك وارفض ان أوجه اليك كلمة واحدة بعد الآن ! .. » . وانقضت سبعة عشرة سنة على ذلك الحادث دون أن يرى أحدهما الآخر !

وكان تورجنييف يجد صعوبة بالغة للاحتفاظ بعلاقته بصديقه « هرزن » نفسه ، فقد كان يذهب لرؤيته كل عام فى لندن حيث كان قد لجأ واصدر جريدة «الناقوس» التى نالت شهرة واسعة بين ثوار العالم قاطبة . اما هرزن الذى اصبح من أنصار الصقالبة ، فكان يزعم أن فى أوروبا الغربية حضارة قذرة لطخت نفوس الشعب ؛ وان فى استطاعة العنصر الروسى وحده ــ الذى ظل محتفظا بهمجيته وحيويته ــ أن ينقذ البشرية .. وكان يتهم تورجنييف بأنه يتعلق بالغرب تحت تأثير ضعف الشيخوخة . ولكن تورجنييف كان يدفع عن نفسه هذا الافتراء بقوله : **« حتى لو كنت فى العشرين من عمرى ، لفضلت الانظمة الغربية .. انني أوروبى، وأحب هذا القلم الذى حملته منذ عهد الصبا !»**

١٧ ـ ((الدخان))

بعد أن انصرف عنه أصدقاؤه ، ازداد مصير تورجنييف ارتباطا بآل فياردو ، وأصبح تعلقه ببولين أشد توثقا من رابطة الحب ذاتها . وكان لا يفتأ يكتب اليها قائلا : **((انني استطيع أن أصارحك القول بانني احمل لك بين ضلوعي عاطفة لم يسبق للعالم أن عرف مثلها ولن يعرف مثلها قط !))**

وفى عام ١٨٦٤، اعتزلت ((بولين)) المسرح. واستقر ((لويس)) مع أفراد اسرته فى (بادن) حيث لحق بهم تورجنييف ، وشيد لنفسه منزلا مجاورا لمنزلهما . وكانت ((بادن)) خير مقر لمهاجر مثله. اذ سرعان ما تعرف فى مجتمعاتها الى شخصيات غريبة من مختلف بلاد العالم والى عدد كبير من الروس ، فاستطاع ان يتأمل تصرفاتهم ، وان يدرس طباعهم وأخلاقهم ، واذا به يجد فى حياة المدنية مادة خصبة لروايته التى اصدرها بعد ((الآباء والابناء)) ، وهى رواية ((الدخان)) التى تعد من اشهر رواياته ، والتى تشبه فى موضوعها رواية ((خداع النبلاء)) .. وتتلخص وقائعها فى ان شابا يدعى ((ليتفينوف)) صحب خطيبته ((تاسيانا)) وعمتها الى (بادن) حيث التقى بامرأة جميلة طائشة تدعى ((ايرين)) كان ليتفينوف ، وهو لا يزال طالبا ، قد وقع فى هواها ، ولكنها هجرته فجأة فى الوقت الذى كان يتهيأ فيه للاقتران بها ، ثم تزوجت من رجل على جانب عظيم من الثراء ! .. وها هى ذى اليوم تقيم فى (بادن) مع زوجها وهو قائد برتبة جنرال ، وسيم القسمات ، جميل المحيا ، ولكنه أبله مغفل ! .. انها تسيطر على عالم تحتقره كل الاحتقار .. وسرعان ما يبعث لقاؤها بليتفينوف فى نفسها شعور بالاسف لفراقه والرغبة فى استرداده . فترسل اليه باقة من الازهار ،

وان هى الا أيام حتى تنجح فى اجتذابه واستمالته اليها من جديد .. ومع انه يعلم حق العلم أن خطيبته افضل من « ايرين » المجنونة ، فانه لا يتورع ـ مع ذلك ـ عن هجرها واغراء « ايرين » بالهروب معه ! .. ولكن الشجاعة تخون « ايرين » فى اللحظة الاخيرة ، فتقرر البقاء بجانب زوجها ، وبذلك تقوض صرح حياة ليتفينوف للمرة الثانية ! .. وبعد انقضاء عدة سنوات على هذا اللقاء ، يقترن ليتفينوف « بتاسيانا » . أما « ايرين » فتكون قد تقدمت بها السن ، وتظل ـ على الرغم من ثرائها ـ أمرأة شقية تعسة ، بعد أن انصرف عنها الشبان لطيشها وغرورها !

وانه ليستحيل على القارىء أن ينسى بعض مواقف هذه الرواية ، مثل لقاء « ايرين » بليتفينوف على السلم حيث يمر بها دون أن يعرفها بسبب النقاب الذى يحجب وجهها .. ومثل باقة السوسن التى يجدها فى حجرته وقد بعثت بها اليه سيدة مجهولة .. ومثل مشهد ايرين وهى على افريز المحطة تحدق فى ليتفينوف بعينيها الناعستين ، وقد ارتدت قبعة سفر لا تكاد تضم جدائل شعرها المتهدل .. وأخيرا مثل رحيل ليتفينوف الذى يستمد منه الكتاب عنوانه : « الدخان » . وقد صور المؤلف هذا الرحيل قائلا :

« كانت الريح تهب فى وجه القطار ، وسحب الدخان تتراقص أمام النافذة سوداء تارة بيضاء تارة أخرى ، بينما كان ليتفينوف يشيعها بنظراته البعيدة ، محدقا فيها وقد تملكه صمت رهيب .. وفجأة طرأت على ذهنه فكرة غريبة .. كان وحيدا فى المركبة ، لا يشغله شاغل ، فاذا به يجد نفسه يهتف : « دخان ! دخان ! » وبغتة لاح له كل شىء كالدخان .. حياته .. الحياة الروسية .. كل ما هو انسانى ولا سيما كل ما هو روسى .. لم يكن كل شىء فى نظره الا كالدخان أو

البخار ! .. كل شيء بدا له فى تغير مستمر ، فالصور تتتابع مختلفة ، والاحداث تتلاحق سراعا ، غير أن كل شيء يظل فى الواقع على ما هو ! .. كل شيء يسير سيرا حثيثا ويندفع الى حيث لا نعلم .. كل شيء يتلاشى دون أن يخلف وراءه أثرا أو يبلغ غاية ! .. واذ ذاك ، عادت به الذاكرة الى ما وقعت عليه انظاره من أحداث فى لجة تلك السنوات الاخيرة الصاخبة ، فالفى نفسه يهمس : ((دخان ! دخان !))

على أن رواية «الدخان» لم تكن رواية فحسب ، بل كانت أيضا نقدا شديدا لاذعا تناول فيه تورجنييف العالم والقواد من أصدقاء ايرين وأصدقائه القدامى.. فقد كان تورجنييف قد ضاق ذرعاً بالاهانات التى كان يقذفه بها أولئك الشبان الخياليون الذين كانوا يتوهمون أن روسيا هى منقذة الانسانية ، ومن ثم اتخذ من روايته سلاحا لشن هجومه المضاد عليهم .. وقد حوت الرواية ـ الى جانب تصوير أشخاص القصة الرئيسيين ـ وصفا واقعيا لاذعا لروس (بادن) حتى ليقف القارىء على احاديثهم الجوفاء ، ويكاد يسمع الضجيج الذى يثيرونه حولهم وقد خيمت عليهم سحابة كثيفة من دخان سجائرهم ! .. على أن تورجنييف لم ينه الرواية بمثل ما انهى به رواية « آباء وابناء » ، أى بموت بعض ابطالها واستسلام البعض الآخر للقضاء والقدر، وانما ضمنها ـ لأول مرة ـ انشودة جديدة ، هى انشودة الأمل ، اذ جعل « ليتفينوف ». ـ بعد عدوله عن ملاحقة ايرين ـ يذهب الى الريف ليزرع أراضيه ، ويعنى بشئون فلاحيه ، ويعانى الامرين من النظم الجديدة التى لا يعمل بها والنظم القديمة التى فقدت قيمتها وفعاليتها . فكان يتحتم عليه أن يتذرع بالصبر الذى لا يعرف الكلل دون أن يتورع ـ مع ذلك ـ عن أن يمارس أحيانا أساليب الحيل والخداع

.. ولا يتوانى عن التوسل بالحيلة والخداع. أما «تاسيانا» ، فتكرس حياتها فى خدمة فلاحى قريتها حيث تنشىء لهم مستوصفا ، وتتفانى فى القيام بأعمال نافعة مجدية وأن تكن بسيطة متواضعة .. وهكذا يلمس القارىء فى الرواية أن نسمة الحياة المكافحة تطرد أمامها غيوم اليأس والقنوط ، فيتجلى العالم الحقيقى قاسيا لا يرحم، وان كان جميلا عذبا كالريف فى الصباح، عندما تنقشع ظلمات الليل رويدا رويدا ، ثم تتلاشى تاركة الفضاء فسيحا لأشعة الشمس الضاحكة !

القسم الثالث

١٨ ـ السنوات الأخيرة

لقد شبه تورجنييف ، فى قصته «الدخان» ، الفكر الروسى والجهود غير المنظمة التى تبذلها بلاده فى سبيل الوصول الى حالة استقرار مبهمة ، بذلك الضباب الذى يكسو المروج لحظة ، ثم لا يلبث أن يتبخر دون أن يترك أثرا يدل عليه . وهو اذ أصدر ذلك الحكم ، انما قد حكم بعقله لا بقلبه ، لانه كان روسيا وكثيرا ما كان يشعر هو نفسه بالحاجة الى أن يكتنفه مثل هذا الضباب !

ومع انه كان يرى فى نفسه رجلا أوروبى النزعة ، فانه لم يكن يشعر بالراحة فى اى بلد من بلاد أوربا.. ففى عام ١٨٧٠، حل لاول مرة فى منزله بمدينة (بادن) ،ولم تلبث الحرب السبعينية أن اعلنت بين فرنسا والمانيا . وكانت الفكرة التى كونها لنفسه اذ ذاك عن المانيا قائمة على العاطفة ، بدليل أن جميع الالمان الذين تناولهم بالوصف فى رواياته ، كانوا يتسمون بالغباء ويبعثون على الاشفاق ! .. ومن هنا ، فما أن اعلنت الحرب ، حتي أخذ يرتعد هلعا وجزعا علي الالمان ،

اذ صورت له مخيلته « نابوليون الثالث » وقد راح يكتسح بلاد « جوته » و « هيجل » بجيوشه الجرارة ، وينزل بها الخراب والدمار .. ولكن ما أن اكتشف أن المانيا كانت على غير ما تخيله عنها — اى أنهـا كانت مادية قوية فظة — حتى اتخذت عواطفه وميوله اتجاها آخر جعله يندد بضم (الالزاس) الى المانيا . وقد كتب فى هذا يقول : « انه لمن الغريب حقا — فى مثل هذه الأيام — الا يكون المرء لا المانيا ولا فرنسيا .. فقد يصبح مراقبا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وليس فى ذلك ما يستحب أو يستوجب الزهو ، ولكن ما الحيلة اذا ما ولد المرء مراقبا ؟ ! »

ولم تلبث الحرب أن حرمت أسرة فياردو جميع مواردها ، وقطعت عليها جميع سبل الحيـاة ، فلما عرض على مدام فيـاردو أن تعطى دروسا فى فن الغناء فى لنـدن ، انتقلت الاسرة بأكملهـا الى عاصـمة الانجليز ، ثم بادر تورجنييف باللحاق بها هناك ! .. **وكانت هذه أول مرة يقيم فيها ردحا طويلا من الزمن فى انجلترا .. وقـد بدت له الحيـاة فيها مليئة بالنشاط ، الا انها كانت مغبرة قاتمة تحمل الكآبة الى النفس .** ولعل اكثر ما استرعى انتباهه فى تلك البلاد برود أهلها وجمودهم ! .. فقـد حضر فى أحـد الايام فى جامعـة (كمبريدج) مناقشة بين الطلبة موضوعها : « هل يستحق اعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية عطف الانجليز ؟ » ، وبعد أن استمع الشبان فى هدوء تام الى الحجج المؤيدة للاقتراح والمعارضـة له ، اقترعوا ضـده بالاجماع . فقال عنـدئذ تورجنييف : « الآن فقط بـدأت أدرك لمـاذا انتم ، معشر الانجليز ، لا تخشـون الثورة ! » وكانت متعتـه الحقيقيـة الوحيدة تنحصر اذ ذاك فى السفر الى اسـكتلندا لممارسـة الصيد فى ساحاتها وملاعبها !

وفى أواخر شهر نوفمبر من عام ١٨٧١ ، عاد آل فياردو الى باريس . وبعد رحلة وجيزة الى روسيا ، لحق بهم تورجنييف بدوره ، بل لو أنهم قد سافروا الى استراليا ، للحق بهم هناك أيضا دون تردد ! .. وقد استأجرت الاسرة وصديقها طابقين ، يعلو أحدهما الآخر ، فى منزل بشارع (دويه) رقم ٤٨ .. وكان الطابق الخاص بتورجنييف مؤلفا من ثلاث غرف ، وكانت فى حجرة مكتبه اريكة يقضى عليها الجزء الاكبر من سحابة يومه ، وقد علقت على جدرانها لوحة زيتية تمثل منظرا طبيعيا رائعا بريشة الرسام « روسو » وصورة بارزة تبين جانبا من وجه بولين ، وقطعة من المرمر نحتت عليها يدها ..

وكانت أواصر الصداقة قد أخذت تتوثق بينه وبين ((فلوبير)) ، والشقيقين ((جونكور)) ، و ((دوديه)) ، و ((زولا)) ، فضلا عن أنه كان يجتمع بكثير من مواطنيه الروس الذين كانوا يرون فيه ((سفيرا لثقافتهم)) فى باريس .. وقد كان يستقبلهم فى أدب ورقة جمين ، ويكرم مثواهم ، حتى انه لم يكن يتردد فى وضع مقدمة لكتاب الفه أحدهم أو الحكم على كتاب أصدره آخر ، معرضا حكمه أحيانا لمعارضات عجيبة متناقضة ، ولكنه كان فى حاجة الى مثل هؤلاء الزائرين ، لانهم كانوا يحملون اليه نفحة من نسيم روسيا العليل الذى كانت نفسه المعذبة تجد فيه دواء لسقمها .. وفى الوقت الذى كان الشبان الروس يتجاذبون فيه أطراف الحديث — فى غير ما كلل أو ملل — فى مسكن تورجنييف ، كانت تنبعث من الطابق الاسفل الحان «البيانو» العذبة يصحبها صوت مدام فياردو الساحر الخلاب .. ومع انها كانت اذ ذاك فى الخامسة والخمسين من عمرها ، فقد كانت تأسر دائما قلوب جميع أصدقائها ! .. وفى عام ١٨٧٤ ، اشترى تورجنييف ولويس فياردو منزلا ريفيا فى (بوجينال)

اسمه « لى فرين » سرعان ما صار مكانا يصطاف فيه كل عام مع آل فياردو. وكانت روابط الصداقة التى تشده الى آل فياردو قوية متينة ، ولكنها لم تكن تخلو — مع ذلك — من شوائب الحزن والاسى . فكانت كلما تقدمت السن بتورجنييف ، ازداد شعوره بالاكتئاب ، واحس أنه أضاع حياته سدى — سواء بوصفه انسانا أو كاتبا روائيا — وان كل شىء قد انتهى ! .. وكان ، فى غمرة اسساه ، لا ينفك يناجى نفسه قائلا : **« ها أنذا أجلس الى مكتبى وقد خيم على ذهنى ظلام أشد سوادا من الليل .. والايام تمر بى فاترة لا طعم لها ولا هدف ، وكأنها لحظة عابرة من الزمن ! .. لم يعد لى الحق ولا الرغبة فى الحياة .. اننى أعيش دون أمل وأحيا بغير رجاء ! »**

ومن العوامل العديدة التى أدخلت تلك الكآبة على نفس تورجنييف ، عاملا الغربة والحنين الى الوطن .. وقد تحدث عنه الكاتب الفرنسى «بول بورجيه» ذات مرة يقول : «حسبك أن تلتقى بتورجنييف وتستمع الى حديثه — ولو ليلة واحدة — حتى تتبين الى أى حد ظل العنصر الروسى سليما فى هذا الشيخ المديد القامة ، ذى اللحية الطويلة البيضاء ، والانف العريض ، والنظرات الساذجة ، ولكى تلمح أن شخصية أخرى قد امتزجت بشخصيته الاولى ، وهى شخصية الرجل العالمى ، اذ أن ذكرياته تتناول أوروبا بأسرها من أقصاها الى أقصاها ، فهو تارة يصف منظرا فى جزيرة (وايت) بانجلترا ، وطورا شارعا فى مدينة جامعية بألمانيا ، وتارة ثالثة حيا من أحياء ايطاليا ، وكل ذلك بلغة فرنسية سليمة تدل على أنه قضى زمنا طويلا فى بلادنا ، واختلط بها اختلاطا كاملا عميقا .. »

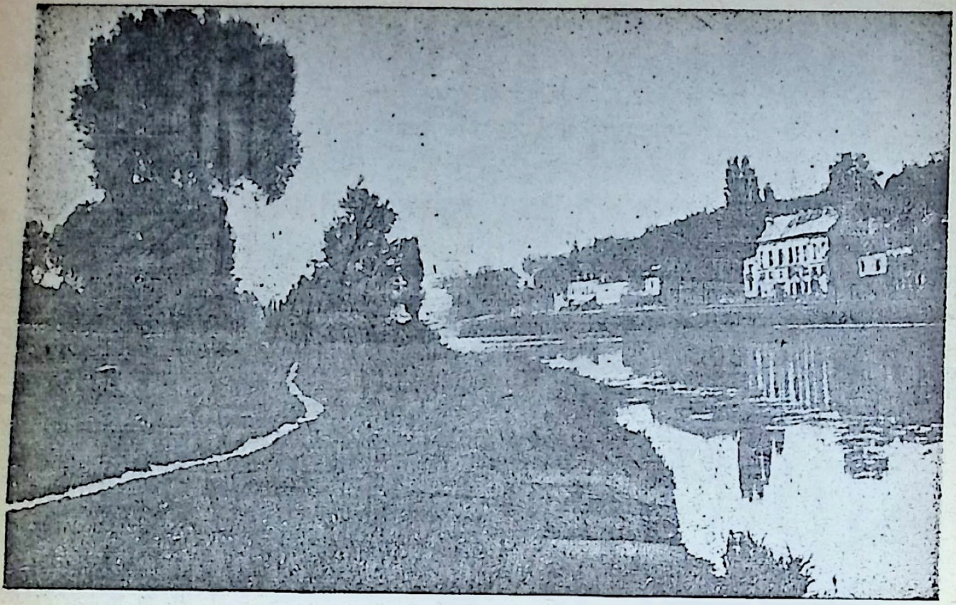

« شاليه » ترجنيف ، فى ضاحية (بوجيفال)

والواقع ان تورجنييف ظل — رغم ما بدا عليه من مظاهر الرجل العالمى — روسيا حرا اصيلا ، اذ يستحيل على المرء ان يغدو رجلا عالميا فى قرارة نفسه ! .. فالمادة الغزيرة الخفية التى يستمد منها كل منا افكاره هى — على غير علم منا — ذكرى طفولتنا ومطالعاتنا الاولى ، وربما أيضا ماورثناه عن أجدادنا من شعور وعواطف . ففى كل ذلك مادة وفيرة خصبة تظهر فى أحلامنا ، وتعد بالنسبة للكاتب التربة الوحيدة التى نبتت فيها أفكاره ! ولو كان فى استطاعة الانسان — بانتقاله من بلد الى آخر — أن يكتسب روحا جديدة ، أى أن يصبح مواطنا روحيا لبلد آخر ، لما تألم تورجنييف وتعذب كل هذا العذاب ، ولكن انى له ذلك ؟ ! .. وانه لمن المتعذر على كاتب — حتى لو كان يعرف بلدا أجنبيا حق المعرفة — ان يجعل أحداث روايته تدور فيه مع شىء قليل أو كثير من الواقع أو ما يشبه الواقع .. فالكاتب الانجليزى مثلا ، يستطيع ان يصف بطلا انجليزيا فى بيئة فرنسية ، لان بطله قد يحس عندئذ احساس الانجليزى ، وينظر الى أشخاص الرواية الآخرين من الاجانب نظرة رجل يتحلى بثقافة المؤلف نفسه ! ، أما اذا حاول أن يخلق بطلا فرنسيا يدور حوله موضوع احدى قصصه ، ويجعله ينطق بلسانه ، فانه يقدم — فى هذه الحالة — على عمل قد ينجم عنه خطر عظيم عليه !

اما فيما يختص بتورجنييف ، فقد كانت المادة الحقيقية التى يتغذى بها فنه ، سهول (سباسكوى) ، والفلاحين الروس ، ونبلاء العهد القديم ، والشبان الثوريين ، وأولئك النساء الجميلات الغريبات الاطوار .. وقد قال يوما للشقيقين « جونكور » : « اننى احتاج ، لتأليف رواياتى ، الى شتاء قارس ، وصقيع أشبه بصقيع روسيا ، وبرد

زمهرير، واشجار تفطى أغصانها الثلوج المتجمدة ! »..ولعله كان يشعر بأنفاسه تختنق فى منزل (دويه) رقم ٤٨ !

والحالة النفسية التى تنتاب الكاتب الذى لا يجد حوله موضوعات تلائمه ؛ لأشبه بحالة الجائع الذى ينقصه الطعام ! .. وكانت هذه حال تورجنييف ، حتى لقد فكر عندئذ فى مشروع قصة تدور فصولها حول بطل روسى يعيش فى فرنسا ، كى يبين فيها وجه الاختلاف بين الروس والفرنسيين .. وكانت أحداث القصة تدور على النحو التالى :

((غادرت فتاة روسية ، من اللاتى يعتنقن مبادىء ((العدميين)) بلادها ، وحلت فى باريس حيث التقت بشاب اشتراكى فرنسى واقترنت به . وسارت الامور فى هذه الاسرة الصغيرة على خير ما يرام ردحا من الزمن ، لما كان يجمع بين الزوجين من كراهية مشتركة نحو القوانين والتقاليد . ولكن الزوجة ما لبثت أن التقت بشاب روسى راح يقص عليها ما يصنعه الاشتراكيون من جلائل الاعمال فى وطنهم ، فتدرك اذ ذاك انه ليست ثمة علاقة بين أهداف الثوريين الروس وأفكارهم وشعورهم، وأغراض الاشتراكيين الالمان أو الفرنسيين ، وان هوة سحيقة تفصل بينها وبين زوجها الذى كانت تعتقد حتى الآن انها على وئام تام معه !

ومع أن الموضوع كان شائقا ممتعا ، وكان فى وسع تورجنييف أن يعالجه على أكمل وجه ، الا انه لم يرق له أو يجتذبه ، لأن الموضوع لم يكن روسيا قحا ! .. ويبدو ان ميوله نحو الغرب بدأت تضعف وتضمحل رويدا رويدا كلما تقدمت به السن . فمن المسلم به أن الشيوخ يعودون دائما الى أفكار طفولتهم الاولى ، ويموتون وشفاههم تتمتم بكلمات لم تنطق بها منذ عهد الطفولة الاولى . ويفسر علماء النفس

هذه الظاهرة بقولهم : « ان ما يكتسب فى البداية ، يفقد فى النهاية ! » .

هكذا أصبح تورجنييف ـ بعد أن كان يتمنى من أعماق قلبه ان يرى روسيا تتجه نحو الغرب ، وتستلهم أفكاره ، وتلتمس منه النصح الروحى ـ يقول لاصدقائه الروس أن الفرنسيين والالمان استنفدوا نشاطهم وحيويتهم ، وان اراءهم لا تثير فى نفسه غير النفور والاشمئزاز ! .. وقد قال فى أحد الايام ، وهو فى زيارة لصديقه « فلوبير » : « أجل ، انكم قوم لاتينيون حقا ، وفى نفوسكم اثر من مخلفات الرومان وتعلقهم بالقانون ، وصفوة القول أنكم رجال القانون ! .. أما نحن ، فعلى النقيض من ذلك . واليكم مثلا : اننا فى روسيا لصوص ، بيد انه اذا ارتكب رجل عشرين سرقة واعترف بها ، فان المحكمة لا تتردد فى تبرئته اذا ثبت لها انه كان جائعا أو محتاجا .. أجل ، انكم رجال القانون والشرف ، أما نحن ـ فرغم ما نسير عليه من اوتوقراطية ـ فرجال .. » .. واذ راح يبحث عن كلمة يعبر بها عن فكرته ، أضاف أدمون دى جونكور كلمة « الانسانية » ، فأردف تورجنييف قائلا : « أجل ، هو ما تقول .. اننا رجال الانسانية ، أو بمعنى آخر اقل تمسكا بالعرف والمصطلحات ! » .. على أن كل عنصر يميل الى التفاخر بنفسه عادة ، ومن ثم لم يستنكر أصدقاؤه اللاتينيون المحيطون به فكرة انهم من رجال القانون ، بينما كان تورجنييف يتحدث عن احتقار الروس للغرب بلهجة لا تخلو من اللوم لأولئك الاجانب !

وعندما كان تورجنييف يعكف عن الكتابة ـ وقلما كان يفعل اذ ذاك ـ كان يستوحى ذكريات صباه .. وهكذا أصدر روايتى « مياه الربيع » و « لير .. ملك السهول » ، ثم أضاف قصة جميلة رائعة الى كتابه « مذكرات صياد »

لاهدائها الى «جورج صاند» ، وعنوانها : «الذخيرة الحية» ، وهى عبارة عن حوار بسيط يدور مع فلاحة تعيش طريحة الفراش فى كوخ صغير، لا تستطيع الحراك لما الم بها من سقم وهى فى صدر شبابها ، ولا تتناول من طعام أو شراب سوى ما يتصدق به عليها جيرانها .. انها تعيش وحيدة ، وليس لها من سلوى غير ما يصل الى مسامعها من أصوات العالم الصاخب وذلك الكلب التائه الذى يمر بها من وقت لآخر ، فيقف برهة الى جانب فراشها ثم ينصرف .. وهى - مع ذلك - تظل تقية صالحة مستسلمة لمشيئة الله ، فتنعم بالسعادة وراحة البال !

١٩ - تعليم الشعب الروسى

ولكن ترى ما الذى كان يجرى فى روسيا التى لم تكن لتغيب لحظة واحدة عن بال تورجنييف ؟ .. لقد كاد يسود البلاد عندئذ شعور عميق بخيبة الامل على اثر الاصلاحات التى اجريت فيها ، اذ ظل الفلاحون على ما كانوا عليه من بؤس وشقاء قبل تحريرهم ، وأخذ النبلاء يشكون مر الشكوى بعد ضياع نصف أملاكهم .. وليس فى الواقع ما يجعل الناس أشد قنوطا ، مثل ثورة يطول أمد انتظارها ثم لا تأتيهم بالرفاهية المرجوة منها ، فيتلاشى كل شعور بالثقة فى قلوبهم ، وتنطفىء جذوة الحماسة فى صدورهم ، ويسقط المرء الى احط مما كان عليه !

وسرعان ما نما بين الشبان شعور عميق بعدم الثقة بالوسائل المشروعة ، ورغبة جامحة فى الاستهتار بها ، فاذا هم يرون انه لم يعد أمامهم ما ينتظرونه او يرجونه من القيصر وموظفيه ، فيقررون الهجرة الى الخارج ، ليرتشفوا من مناهله مبادىء المذاهب الاشتراكية والثورية . وكان

بعضهم يعمل من منفاه على نشر مبادىء اوروبا الجديدة فى روسيا عن طريق المنشورات السرية . حتى اذا ما جاء عام ١٨٧١ ، اشادت الجمعية الوطنية فى باريس بالعمل المثمر الذى يقوم به الثوريون الروس .. وفى سويسرا ، كان الطلبة الروس يعيشون مع المنبوذين من الجمعية الوطنية ، فنقلوا عنهم فكرة الثورة الاجتماعية .. وازاء ذلك ، لم يلبث القلق ان استحوذ على حكومة بطرسبرج ، فأمرتهم جميعا بالعودة الى روسيا !

وهكذا ، لم تبزغ شمس عام ١٨٧٣ ، حتى كان الشبان الثائرون المتحمسون قد انتشروا فى سائر انحاء البلاد .. وبدأت النساء المتعلمات يلعبن دورا خطيرا فى هذا المضمار ، اذ ان مدارس التعليم للبنات كانت قد أخذت تعم روسيا منذ عام ١٨٧٥ ، فوجد الشبان فى زميلاتهم خير عون لهم على نشر رسالتهم ، مما ضاعف من مخاوف الحكومة وقلقها !

.. ولقد كان الفتيان والفتيات يصبون الى تعديل النظام القائم ، ولكنهم كانوا يجهلون الطريق الذى يتعين عليهم سلوكه لبلوغ غايتهم . فقد كان الفلاحون والعمال بالنسبة لهم ، أشبه بشعب أجنبى لا يدرك حتى أفكار تلك الشبيبة التى تدعى أنها تحبهم .. وما لبث أن هداهم تفكيرهم الى ان الواجب يتطلب منهم « الاندماج فى الشعب » مباشرة ، واطلاعه على مدى ما يعانيه من شقاء ، وارشاده الى الطريق الذى يكفل له التخلص منه . وكانت « صوفى باردين » تقول : « **انا نريد أن نغرس فى نفوس أفراد الشعب فكرة المثل الاعلى لنظام خير من النظام القديم وأكثر اتفاقا ومبادىء العدالة ، وأن نوقظ الشعور الغامض الدفين الراقد فى أعماق قلوبهم ! !** »

وفى الفترة ما بين عامى ١٨٧٢ ، ١٨٧٨ ، اختلط بعامة

الشعب ما يقرب من ألفين أو ثلاثة آلاف شاب من الجنسين، ينتمى معظمهم الى الطبقة الارستقراطية ، وجانب منهم الى طبقات أخرى من مهندسين ، وأطباء ، ومولدات ،ومعلمين.. وسرعان ما انتشروا فى الريف أفرادا وأزواجا ، تجمعهم أواصر زواج صورى ، وراحوا يستخدمون جميع وسائلهم الفنية لكسب ثقة الفلاحين ، حتى اذا ظفروا بها ، تلوا عليهم المنشورات الثورية وفسروها لهم . وكان بعضهم يرتدى احيانا زى « الموجيك » للعمل فى الحقول أو يتطوع للخدمة فى المصانع الى جانب العمال !

وكان تورجنييف ، فى كل مرة يعود فيها الى روسيا ، يبدى اهتماما كبيرا بتلك الحركة ، رغم أنه لم يكن يعود الى وطنه الا للعناية والاهتمام بشئونه الخاصة ، ولا سيما بعد أن فقد كل أمل فى نيل اعجاب مواطنيه أو احتلال منزلة كبار الكتاب فى نظرهم ! .. فقد كان الجمهور الروسى قليل الاكتراث بما ينشره . أما هو فلم يكن ينفق سوى فترات قصيرة فى موسكو أو بطرسبرج ، اذ كان يلجأ الى منزله القديم فى (سباسكوى) حيث كان يعكف على العناية بحديقته ، وتنسيق أزهارها ، ودراسة أخلاق جيرانه وطباعهم .. وكان كثيرا ما يحدثهم عن فرنسا والفرنسيين ، ويشرح لهم طريقتهم الشاذة فى فهم الاسرة والحب ، ويصف الغربيين الآخرين وبخاصة الانجليز الغريبى الاطوار الذين كان ذوقهم يبعث الحيرة فى النفوس ، وكيف أن « ثاكرى » يستغرق فى الضحك عند سماعه احدى قصائد « بوشكين » التى لم يكن يفهمها !.. وكان تورجنييف يهتم بأراضيه حيث كان وكيله وفلاحوه ينهبون ويسلبون كل ما امتدت اليه ايديهم ، فكان يقيم كل عام حفلة شائقة يحضرها جميع

الفلاحين « الموجيك » والفلاحات بملابسهن الحمراء المطرزة بالذهب .. وفى تلك الحفلات ، كان سيد (سباسكوى) يقف متطلعا متأملا ـ فى شك متزايد ـ فى هذا الشعب الذى قيل له أن أوروبا ستحيا على يده يوما ، وقد راح ينظر الى أفراده وهم يرقصون ويشربون ، ويرقب روسيا الجديدة باهتمام وشغف !

وفى عام ١٨٧٦ ، أصدر رواية جديدة عنوانها « الاراضى العذراء» ، فأثار ، فى تلك المرة أيضا ، ثائرة الكثيرين عليه ..

وبطل الرواية طالب ثورى يدعى « نيجدانوف » عينه « سيبياجين » ـ وهو موظف كبير يعد نفسه من الاحرار ـ مدرسا عنده .. فسافر الى الريف حيث شاطرته «ماريان» ـ ابنة شقيق « سيبياجين » ـ أراءه الثورية ، ثم أعتقدت هذه انها تحبه فاعربت له عن رغبتها فى الاختلاط بالشعب .

فيهرب الشابان ، ويلجآن الى جار لهما يدعى « سولومين » وهو مدير مصنع له نزعة ثورية .

و « سولومين » شخصية جديدة لم يسبق لتورجنييف أن عالج مثلها .. انه يمثل رجل الافكار الحديثة ؛ ولكنه رجل العمل الدائب الذى طالما بحث عنه تورجنييف فى روسيا بغير طائل ، ثم خيل اليه انه اكتشفه فى الجيل الجديد الناشىء من الشعب .. ولم يكن « سولومين » متحمسا ولا محبذا لمغامرة نيجدانوف وماريان . **« .. لم يكن يعتقد أن نيران الثورة أوشكت أن تندلع فى روسيا ، على أنه لم يشأ أن يفرض رأيه ، فكان يترك الآخرين يختبرون قوتهم ، مكتفيا بالتطلع اليهم ومراقبتهم .. وكان يشاطرهم أراءهم الى حد ما ، لانه كان من الشعب ، ولكنه كان يلاحظ تخلف هذا الشعب الذى يستحيل أن تسير الامور بدونه ، وكان**

يرى ضرورة اعداده زمنا طويلا، ولكن بطريقة أخرى ولغرض آخر ! »

أما « نيجـدانوف » فهو ـ على النقيض من سولومين ـ رجل خيالي كسائر الشخصيات التى ابتكرها تورجنييف . ولكن اتراه يؤمن بالثورة ؟ .. أجل ، انه يؤمن بها ، ولـكنه ضعيف متخاذل .. وانه ليناجى نفسه فى الرواية قائلا :

« الا لعنة الله عليك ، أيها الفنان العاثر المتشكك ! .. اى ثورى تريد أن تكون بربك ؟ ! . انظم الشعر اذا أردت ، واخل الى نفسك وأفكارك وعواطفك الوضيعة الحقيرة، ولكن، بالله عليك ، لاتتصور أن نزواتك وغضباتك العصبية تشبه ، من قريب أو بعيد ، غضبة الرجل وثورته الشريفة ! .. هلا أخبرتنى ، يا هملت ، ما العمل ، كيلا أحـذو حذوك فى كل شيء ، وخاصة فى تلك اللذة المهينة التى أشعر بها وأنا انحو باللائمة على نفسى، وامطرها وابلا من الشتائم واللعنات؟!» .

ويعانى « نيجدانوف » آلاما ممضة لما يلقاه حوله من قلة ادراك وعـدم اكتراث ، فيقول : « لقد انقضى على خمسة عشر يوما وأنا اختلط بأفراد الشعب .. وانه لمن المتعـذر على المرء جقا أن يتصور أمرا أشد سخفا من ذلك . . لست من النصـار الصـقالبة ، ولست من أولئك الذين يستسلمون لارادة هذا الشعب السـاذج القوى .. كلا ، فاننى أريد ـ على العكس من ذلك ـ أن أؤثر فيه ، ولكن ما الحيلة ؟ .. ترى كيف السبيل الى بلوغ ما أصبو اليه ؟ .. اننى فى كل مرة أجـد فيهـا نفسي بين افراد الشعب ، لا يسـعنى غير الانصات اليهم ومراقبة ما يحيط بى من أمور .. اننى فى كل مرة أحاول فيها الكلام ، لا تلبث محاولتى ان تبوء بالفشـل .. اننى أشعر بانى لا أصلح لشىء ، ويخيل الى انى أشـبه بذلك الممثل العاثر الذى يقوم بتمثيل دور يفوق مواهبه ! »

اما خاتمة الرواية ، فتقطر حزنا ومرارة ، اذ يبلغ الفلاحون السلطات عن المتعلمين الذين يتشدقون بعبارات خطرة مثيرة للخواطر ، فيلقى القبض عليهم ، وينتحر « نيجدانوف » وتتزوج « ماريان » من «سولومين » ! .. وفى هذه المرة أيضا ، انتهى الامر بتورجنييف الى أن وهب الفتاة المتحمسة المرهفة الاحساس للرجل القوى ، مؤثرا اياه بذلك على الرجل الخيالى أو الـ « هملت » الروسى .. ومن عجب، ان أكثر الرجال ثقافة واوفرهم علما كثيرا ماينفرون من المنطق ، ويخصون باحترامهم واجلالهم العمل المتواضع الدائب .. وهكذا كان تورجنييف يعجب « بسولومين » لتوازنه اذ كتب يصفه قائلا : « انه يتحلى ببصيرة ثاقبة ويتمتع بصحة كالصخر .. وهذا أمر عجيب عندنا ؛ لاننا ظللنا نعتقد حتى اليوم ان الرجل الذكى الفطن يجب ان يكون مريضا !.. » ومما يوضح أيضا خلق سولومين قوله : « أما مهمتكن أنتن ، أيتها النساء ، فتنحصر فى تهذيب شقيقاتكن من أفراد الشعب ، وليس هذا بالامر الهين ! .. وعليكن أن تدرسن الحروف الابجدية للاطفال ، وتوزعن الادوية على المرضى .. وقد تقلن ان هذا العمل ليس فيه تضحية ، ولكن اسمحن لى بأن اصارحكن القول بأن تمشيط شعر الطفل المصاب بمرض القراع، تضحية قل من يستطيع الاقدام عليها .. » وكانت خاتمة الرواية فى مصلحة سولومين وحده ، اذ امتدحه تورجنييف وأشاد به قائلا : « اننا فى حاجة الى مثل هؤلاء الرجال الاقوياء ، ذوى الاجسام الضخمة واللون الواحد ، ولسنا بحاجة الى أى شىء سواهم ! » .

وكان طبيعيا الايرضى الكتاب احدا ، اذ أثار تورجنييف — فى تلك المرة أيضا — حفيظة قرائه وسخطهم ، وخيب رجاءهم

.. لقد كان تورجنييف يتمتع بقدرة عجيبة على استثارة المحافظين والتقدميين على السواء !.. فلئن كان الاستياء الذى أظهره الابناء نحو المؤلف قد بدا اذ ذاك عنيفا بالغا ، فان استنكار الآباء ماكان ليقل عنه حدة ، لما تبينوه من اخطار تتهددهم فى تلك القوة العاملة الرهيبة ، الكامنة فى رجال من أمثال « سولومين » .. أما الفنانون ، فكانوا يقولون أن شخصية « سولومين » من نسج الخيال ، وأن روسيا لم تعرف قط رجالا على غرارها !

٢٠ - تورجنييف والشبيبة

لما كانت روسيا من البلاد السريعة التقلب والتحول ، فان مسرحها السياسى لم يلبث أن شهد عدة تطورات حاسمة جعلت الاوضاع فيها تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه حين فكر تورجنييف فى كتابة « الاراضى العذراء » . فقد ارادت السلطات قمع حركة « المبشرين » بالثورة ، من أمثال « نيجدانوف » و «ماريان» ، الذين كانوا يسعون للاختلاط بالشعب ، فاعدمت البعض منهم ، ونفت البعض الآخر الى مجاهل سيبيريا . فكان ان أساءت تلك التدابير الحاسمة الى نظام الحكم أكثر مما اساءت الى الشبان الثوريين أنفسهم ؛ اذ سرعان ما تحول هؤلاء الشبان من وسائل الدعاية السلمية الى وسائل الارهاب وما تنطوى عليه من قتل واغتيال وتخريب وتدمير ! .. وقد حدث ، غداة اليوم الذى صدر فيه الحكم على الثوريين المعتقلين ، أن اطلقت فتاة رصاص مسدسها على الجنرال «تريبوف» حكمدار بوليس بطرسبرج ، فأصابته بجروح . ولما سئلت عن السبب الذى دعاها الى ارتكاب فعلتها ، أجابت بأنها لا تكن للجنرال أية ضغينة شخصية ، وان كل ما كانت تبتغيه هو معاقبته ، لانه أمر فى

يوم زار فيه السجن ، بجلد طالب من المعتقلين السياسيين رفض أن يقوم نحوه بواجب التحية.. فما كان من السلطات الا أن أطلقت سراح الفتاة وأخلت سبيلها !

على أن حوادث الارهاب أخذت تنتشر بشكل متزايد فى سائر أنحاء البلاد . فلما قررت الحكومة اعلان الاحكام العرفية ، قابلت لجنة الثوريين التنفيذية تلك التدابير التعسفية بأن حكمت بالاعدام على القيصر اسكندر الثانى ، على الرغم مما عرف عنه من طيبة واصلاح ، وما بذله من جهود صادقة فى سبيل انصاف شعبه . فقد اعتبرته اللجنة المسئول الوحيد عما وصلت اليه البلاد من تمرد وانهيار !

وعندما رجع تورجنييف الى روسيا فى عام ١٨٧٩ ، دهش لما خصه به مواطنوه من استقبال باهر لا يحظى به غير العظماء.. فقد راحوا يدعونه الى جميع الحفلات ، ويطلبون اليه أن يقرأ كتبه على الملأ . أما الفتيات اللاتى سبق أن انهلن عليه بشتائمهن ولعناتهن منذ ستة أشهر فقط عقب نشره لروايته « الاراضى العذراء » ، فقد طفقن يرجونه أن يوقع لهن بامضائه على نسخ من الرواية نفسها ! .. على أن مظاهر المجد التى أخذت تحوط به ، كان لها ــ فى الواقع ــ ما يبررها ويعللها ؛ اذ كان معروفا عن تورجنييف أنه يمثل مبدأ الحرية ، وأنه من المطالبين بالدستور ، **ومن ثم كان الروس المعتدلون الذين يستنكرون وسائل القمع العنيفة وينفرون من وحشية الاعتداءات ، يجدون سلواهم فى تكريم ذلك الكاتب ، رمز الافكار السياسية التى لا يجرؤون على المجاهرة بها .** ثم أنه كان قد صار كاتبا كلاسيكيا يشار اليه بالبنان ، حتى أن العمال كانوا يقتربون منه فى محطات السكك الحديدية ، ويسألونه عما اذا كان فعلا مؤلف « مذكرات صياد » !

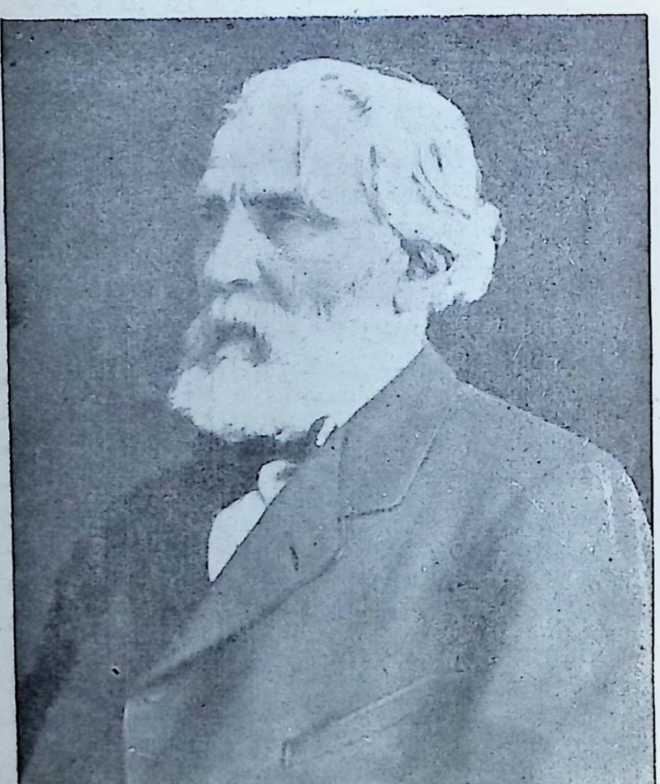

صورة لترجنيف فى عام ١٨٧٩

أما هو ، فلم يكن ليخفى عليـه أن الفرض الحقيقى الذى كان يحتجب وراء جميع مظاهر الحفاوة التى كان يحاط بها ، انما هو غرض سياسى محض .. وقد صرح هو نفسه بذلك فى خطاب القاه فى موسكو اذ قال : « **ان الجماهير لا تصفق لى ، لأننى كاتب روائى ، بل لأننى من الموالين للأحرار !** »

ولكنه كان يلاحظ فى حسرة وأسى ، أن أشد الشبان تمسكا بمبادئهم الثورية ، يقاطعون جميع الحفلات التى كانت تقام لتكريمه ، مما كان يحز فى نفسـه ويؤلمه أشد الايلام ، اذ أن الانسان قلما يرغب فى نيل استحسان أحد ، رغبته فى الظفر بتأييد أولئك الذين يعرضون عنه ويندّدون به !

وقد دعاه ـ ذات مرة ـ بعض الكتاب الناشئين ممن يتعـاونون فيما بينهم على اصـدار مجلة ثورية ، الى حفلة سمر . فاذا به يفشل فى التفاهم معهم نظرا لان كل شىء كان يبعده عنهم .. فقد كان مضيفوه من أفراد الشـعب الذين اضطروا الى الكفاح والنضال طويلا لكسب قوتهم ؛ فى حين كان هو رجلا ثريا نبيلا ، من أولئك الذين استغلوا الفلاحين ردحا طويلا من الزمن ، وان يكن عن غير عمد.. فضلا عن أن مظهره الطبيعى كان مناقضا لمظهرهم ، فقد كان عملاقا ؛ على حين كان مضيفوه أقزاما يتضـورون جوعا وبؤسا .. واذ سألوه : « ما رأيك فيما يجرى فى روسـيا من أحداث ؟ .. وهل تعتقد أننا على أبواب ثورة كثورة فرنسا فى عام ١٧٨٩ ؟ » ، أجاب تورجنييف بأن المستقبل بيد الله وحده ، وان الثورة غير محتملة الوقوع ، لان المعارضـة منقسمة على نفسها .

وقد سئل مرة أخرى عما اذا كان الواجب يقضى بالانضـمام الى الارهابيين أو الاختلاط بالشعب ؟ فصمت هنيهة ، ثم قال : « أرى ان الشبان ما زالوا يحاولون تبين ما يجب عليهم عمله. فأولى بهم هم أن يجيبوا على هذا السؤال .. أما فيما

يختص بى ، فاننى لا أزور روسيا الا لماما ، ومن ثم ليس من الميسور على حل المشاكل السياسية العويصة ! »

٢١ ـ تصالح تورجنييف مع تولستوى

فى عام ١٨٨٠ ، ذهب تورجنييف لقضاء بعض الوقت عند « تولستوى » تلبية لدعوته .. وكان هذا الاخير يجتاز أزمة نفسية حادة ، فأراد ـ بدافع المحبة والرغبة فى الوئام ـ ان يتصافى مع من يكون قد اختلف معهم أو أساء اليهم .. ولم تكن الضغينة والحقد من شيم تورجنييف ، ومن ثم فما ان عرض عليه « تولستوى » الصلح ، حتى قبله على الفور عن طيب خاطر ، واذا به يسافر الى (ياسنايا بوليانا) بعد ثلاثة أشهر ، ويمضى فى التردد على منزل صديقه بعد ذلك حتى سنة ١٨٩٠ .. وقد وجدت الكونتة تولستوى فى شخصه شيخا طاعنا فى السن ، ضعيف الارادة كالاطفال ، بيد أنه استطاع ـ مع ذلك ـ أن يسحرها بحديثه ولا سيما بمقدرته الفائقة على سرد القصص والطرائف ، حتى لقد كان يخيل للمستمع اليه أنه يرى ما يصفه رؤية العين !

.. أما تولستوى ، فقد وجد فيه شخصية ساحرة جذابة ؛ ولكنه استاء مما لاحظه عليه من كآبة تدفعه الى الابتعاد عن جوهر الامور والتمسك بقشورها ! .. وعلى اثر رحيل تورجنييف ، بعث اليه تولستوى بخطاب ، رجاه فيه الا يحدثه قط عن مؤلفاته ، اذ قال : « الله وحده يعلم ما ينتابنى ـ اذ أعيد مطالعة مؤلفاتى أو اسمع احدا يتحدث عنها ـ من شعور مزدوج ، هو مزيج من الخجل والخوف من أن أكون مثارا لسخرية أحد .. واننى ، وان كنت أحبك واثق بما تكنه لى فى أعماق قلبك من شعور طيب واحساس

صادق ، الا انه يبدو لى انك أنت أيضا تسخر من كل ذلك .. فدعنا اذن من الحديث عن مؤلفاتى » .. واستطرد يقول : « أن المقارنة بين كائنين بشريين مستحيلة ، فان لكل منهما طريقته الخاصة فى حل مشكلاته .. »

وقد رد تورجنييف عليه بقوله : « على الرغم من انك تسألنى الا احدثك عن كتبك ، فانه لا يسعنى الا أن أصارحك القول بأننى لم أسخر منك قط ، لا كثيرا ولا قليلا .. اننى أحب بعض مؤلفاتك ، ولا أعجب بالبعض الآخر ، ولكن فيم السخرية ؟ .. لقد كنت أعتقد أنك تخلصت من هذا الشعور الصبيانى منذ زمن بعيد ! »

وليس هناك ما هو أدعى الى الأسف حقا من قيام عداء بين روحين عظيمتين ، خلقتا لتجل أحداهما الاخرى وتقدرها وتحترمها ، فاذا بهما تتخاصمان مدى الحياة ، وتنتصبان احداهما فى وجه الاخرى كفارسين مقنعين لا يستطيعان رفع قناعيهما ، رغم أن كل ذلك قد يكون راجعا الى هفوة بسيطة أو مجرد شعور طبيعى !

وانه لمن السهل على المرء أن يتصور كيف كانت الاعمال الصغيرة التى يأتيها تورجنييف ، تثير ثائرة تولستوى وتغضبه .. فقد حدث فى عام ١٨٨٠ ، أن وجد تورجنييف فى (ياسنايا بوليانا) زمرة من الشبان سرعان ما عرف كيف يجتذبهم ويستميلهم اليه بطرائفه والاعيبه ؛ نتيجة لما اكتسبه من خبرة وبراعة فى مسايرة الناس وارضائهم مدة اقامته عند مدام فياردو .. فضلا عن انه كان يحب دائما أن يفتن من حوله ويثير اعجابهم ! .. وفى احدى الليالى ، طلب الى كل من المدعوين ــ على سبيل التسلية وقضاء الوقت ــ أن يروى قصة امتع تجربة حب اجتازها فى حياته . والمعروف عن تورجنييف انه من أقدر الناس على

رواية الطرائف وقل أن يبزه أحد فى هذا المضمار .. فانطلق يروى أنه أحب فتاة ، وظن أنها لا تبادله الحب ، ولكنه لاحظ فجأة ــ وهو يلقى عليها نظرة عابرة ــ أن انظارها عالقة به ، فأدرك عندئذ أنها هى أيضا تبادله حبا بحب . فكانت ذكرى غرامه تلك ، من أعطر ذكرياته وأذكاها .. وما ان فرغ تورجنييف من سرد قصته ، حتى اخذ الفتيان والفتيات الحاضرون يتطلعون الى بعضهم بعضا ! .. وفى تلك الليلة نفسها ، انطلق تورجنييف يرقص مع طفلة لا تتجاوز الثانية عشرة من عمرها رقصة « الكانكان » ، وهى رقصة شاذة خليعة الحركات . وقدسجل تولستوى ذلك الحدث فى يومياته قائلا : « تورجنييف .. « كانكان » .. انه لأمر محزن !! » . وفى ليلة أخرى بلغ فيها عدد الجالسين الى مائدة الطعام ثلاثة عشر مدعوا ، قال تورجنييف : « على الذين يرهبون الموت ، أن يرفعوا أيديهم ! » ، ثم رفع هو يده . فذكر تولستوى هذه الليلة أيضا فى يومياته بقوله : « كيف لا يخشى تورجنييف أن يخشى الموت ؟ ! »

وقد بذل الرجلان جهودا صادقة فى سبيل اقرار الصلح والوئام بينهما ، ولكن فى غير جدوى .. وقد كان كل منهما يعرف ويعترف لصاحبه بأنه كاتب عظيم ، بيد انهما كانا على طرفى نقيض .. فما كان يجده أحدهما عظيما قيما ، يعده الآخر تافها سخيفا ، حتى لقد كان تورجنييف يعارض معارضة شديدة مذهب تولستوى فى الادب . ومع انه لم يكن يؤمن فى حياته الا بالفن ، فانه لم يستطع ان يفهم مؤلف كتاب ((ما هو الفن ؟)) .. وقد كتب الى الناقد الكبير « بولونسكى » فى هذا الصدد يقول : «اننى ارثى لتولستوى .. ومع ذلك ، فلكل انسان طريقته فى قتل براغيثه !! » . وقال مرة اخرى بشأن اعترافات تولستوى : « انها رائعة

وعظيمة حقا بما تنطوى عليه نبراتها من صدق وأمانة وقوة حجة ، ولكن مبادئها خاطئة ، اذ تؤدى بنا فى النهاية الى انكار كل حياة عاملة وانسانية انكارا تاما .. انها بمعنى آخر نوع من العدمية ! »

٢٢ – « ماريا سافينا »

فى أثناء اقامة تورجنييف فى (ياسنابوليانا) . خلال عام ١٨٨٠ ، قال للكونتيسة تولستوى انه قد كف عن الكتابة لان قلبه لم يعد ينبض بالحب ، وانه يستحيل عليه أن يخط سطرا واحدا طالما هو محروم من العاطفة التى تملأ كيانه وتهز نفسه .. وليس من شك فى ان مدام فياردو كانت حتى تلك الفترة تحتفظ بسيطرتها كاملة عليه ، بدليل انه كان يسر فجأة الى أصدقائه ، فى تلك اللحظات التى كان يبدو فيها شديد البهجة والسرور باقامته فى روسيا ، قائلا : « اذا دعتنى مدام فياردو فى هذه اللحظة ، فلا مندوحة لى من تلبية دعوتها ! » .. ولطالما كان يستنكر – مع ذلك – تلك الحياة التى يقضيها مع زوجة رجل آخر ، حتى لقد كان يدعو الشبان – فيما مضى – الى مقاطعة الزواج ، ولكن اذا به اليوم يقول لهم : « تزوجوا .. لانكم لا تستطيعون أن تتصوروا مدى قسوة الشيخوخة ؛ عندما يتحتم عليكم على الرغم منكم أن تمعنوا فى خداع رجل آخر ، فتتلقوا الابتسامة كأنها صدقة ، وتعيشوا كالكلب الهرم الذى يود سيده أن يطرده لولا دافع العادة والشفقة ! . »

وعلى الرغم مما كان تورجنييف يكنه من حب عميق لمدام فياردو ، فقد استرعت نساء اخريات اهتمامه وأثارت شغفه ، فى المدة الاخيرة التى قضاها فى روسيا ، حيث جمعته بهن أواصر وثيقة قوية .. ولكن اتراها كانت أواصر الحب ؟

الممثلة « ماريا سافينا » ، صديقة ترجنيف فى شيخوخته

.. ربما ، اذ لكلمة الحب اكثر من معنى ، وان تكن عواطف تورجنييف قد ظلت دائما تتأرجح بين الشهوة والصداقة ، حتى لقد كان كثيرا ما يحدث صديقاته الجميلات عن ايديهن وما تثيره فى نفسه من حب واعجاب .. فقد كتب ذات مرة الى « البارونة فريفسكى » يقول : **« اننى أود أن أقضى بجوارك بضع ساعات اتناول خلالها الشاى ، واتطلع الى النقوش التى ترتسم على زجاج النافذة ، وقد غشته سحابة رقيقة من الجليد ، أو بالاحرى ان أحدق فى عينيك الجميلتين الساحرتين ، وألثم من وقت الى آخر أنامل يديك الناعمتين ، فلكم أعبد هاتين اليدين ! »** .. وبعد ذلك بفترة وجيزة ، عاد يكتب اليها يقول : « اننى لأشعر بالشيخوخة تسرى فى كيانى ، وليس فى ذلك ما يدعو الى الغبطة ، بل فيه ما يبعث على الكآبه والحزن ! .. واننى أرجو من صميم قلبى ـ قبل أن ينتهى كل شىء ـ أن أتمكن مرة أخرى من ان انطلق الى الفضاء .. فهل لك أن تساعدينى ؟ .. »

ولكن اتراه كان يرجو حقا مغادرة أرض الصداقة الصلبة ؟ .. لقد مضى يقول لها فى خطابه : « لقد أحببتك كصديقة عند لقائك للمرة الاولى ، وشعرت اذ ذاك برغبة ملحة فى الاستمتاع بك ، ولكن زهرة حياتى كانت قد ذبلت ، وبت على أعتاب الشيخوخة ، وانطفأ ما كان يضطرم فى قلبى من حماس وفى جسمى من قوة ، فلم يكن دافع الرغبة من القوة بحيث يحملنى على طلب يدك للزواج ! .. ورغم انه كانت هناك أسباب تعترض سبيلى فى ذلك الوقت، فقد كنت اعرف حق المعرفة انك لن تقبلى أبدا ما يسميه الفرنسيون « بالمهزلة » ، ولعل هذا ما يفسر سلوكى ! . »

وقد كان مسلك تورجنييف نحو « البارونة فريفسكى » وهو فى الستين من عمره ، أشبه بمسلكه نحو « تاسيانا »

ـ شقيقة صديقه باكونين ـ وهو شاب يافع لم يتجاوز العشرين ربيعا ! .. وقد شاءت الاقدار لهذا الفنان العظيم ، الذى خلد الحب العاطفى فى رواياته ، ان يقع فى شرك حب جديد ، ولكن على طريقته المعهودة ! .. وغير خفى ، أن بين الشيخوخة والشباب وجوه تشابه عديدة ، اذ عندما ينشأ المرء خياليا فى طفولته ، فانه يظل على حاله الى النهاية ، ومن هنا تمتاز غراميات الشيوخ وغراميات الشباب بذلك السحر المقرون بالأسى الذى يخلعه عليها الحياء والخجل !..

ففى عام ١٨٧٩ ، خيل الى تورجنييف أنه اكتشف فى روسيا ((بولين فياردو)) جديدة ، فى شخص ممثلة مجهولة تدعى ((ماريا سافينا)) ، وكانت فتاة تقوم اذ ذاك بتمثيل أدوار ثانوية فى مسرحيته الهزلية ((شهر فى الريف)) . ولكنها سرعان ما استطاعت ، بما اوتيته من موهبة عظيمة ومقدرة فائقة على التمثيل ، أن تبرز فى جميع ما أسند اليها من أدوار ، فاذا بها تسترعى اهتمام المؤلف ، وتظفر باعجابه ، فأقبل يخطب ودها ويتقرب اليها ، وان هى الا فترة وجيزة ، حتى نشأت بينهما أواصر صلة وطيدة.. على ان تورجنييف لم يكن يرى فيها مجرد امرأة جميلة ساحرة ، وانما كان يعتبرها أيضا فنانة موهوبة على جانب عظيم من الفطنة ورقة الشعور . وكان مايختلج عندئذ فى أعماق قلبه من مشاعر نحوها ، يشبه ذلك الاحساس الذى تملكه عندما تعرف الى مدام فياردو ! .. وكانت سافينا ـ شأن مدام فياردو ـ فنانة ساحرة تعرف كيف تلهب حماس الجمهور ، فكان تورجنييف لاينفك يقول لها : ((مهلا ، يا صديقتى ، أرجو أن تظل صورتك مطبوعة دائما فى ذاكرتى ، كما أراها فى هذه اللحظة !)) .. وراح يبثها احلامه ، ويحدثها عن مشروعاته ، ويكاشفها بآرائه الصريحة فى معاصريه من الادباء

والكتاب . وكانت « ماريا » خير من يفهم عواطفه وأفكاره على حقيقتها ، اذ كانت روسية مثله ، فضلا عن أنها كانت تمتاز على مدام فياردو بسحر الشباب ونضارته ، فقدكانت فى الخامسة والعشرين من عمرها ، عندما وقفت على خشبة المسرح - لاول مرة - لتمثيل مسرحية « شهر فى الريف » . وقد التقى بها تورجنييف - على حد قوله - فى الوقت الذى تصافى فيه الجمهور الروسى معه ، وصفح عنه ، وأحاطه من الحفاوة والتكريم ما بعث فيه روح الشباب ، ورد اليه شجاعته المفقودة .. وكان يتساءل اذ ذاك قائلا : « ترى هل تنبت فى جذوع هذه الشجرة اليابسة ، براعم جديدة ؟ .. لقد غمرت النساء الجميلات ، بعطفهن وحنانهن ، قلبى الهرم ، فناسترد تحت لمساتهن الناعمة لونه الاحمر الارجوانى الذى ذوى منذ زمن بعيد ، فاشتعل فيه ما انطفأ من نار الشباب وحماسته .. » . وقد كتب مرة الى « سافينا » ، اذ فارقها ، يقول : « اننى أحس الآن انك احتللت فى حياتى مكانة لم يشغل مثلها غيرك .. وهذا مايجعلنى أفكر فيك كثيرا بل أكثر مما يجب .. اننى أحبك ! »

وقد دعاها تورجنييف ذات مرة ، الى قضاء بضعة أيام فى (سباسكوى) ، اذ كان العمل يدعوها الى السفر من بطرسبرج الى أوديسا فى جولة مسرحية تمر فى طريقها بسباسكوى . ولكنها رفضت دعوته ، واكتفت بأن أذنت له أن يصحبها حتى (اوريول) ، فى المقصورة التى أعدت لها فى عربة السكة الحديدية .. وهناك غادرها ، ولم يلبث أن كتب اليها فى اليوم التالى قائلا : « عزيزتى ماريا جافريلوفنا سافينا .. لقد انقضت على عودتى ساعة ونصف الساعة . . أما الليلة التى أمضيتها فى أوريول ، فكانت ليلة ممتعة ، لأننى لم أنشغل فيها الا بالتفكير فيك ، ولكنها كانت مضنية ايضا ، لاننى

نشدت فيها الكرى ، فلم أعرف اليه سبيلا .. وحين كنت ليلة أمس تطلين من نافذة القطار المفتوحة ، وانا واقف أمامك خاشعا صامتا ، أحسست برغبة ملحة فى اختطافك ، ولكنى اصغيت — فى اللحظة الاخيرة — الى صوت العقل والحكمة .. وخيرا فعلت ، والا لاصبحت مضغة فى افواه الصحف ، ولك ان تتصورى ما كنت ستنشره عنى .. واننى لأكاد أتخيل مقالا منشورا فى احدى صفحاتها تحت عنوان ((فضيحه فى محطة اوريول)) ، ويجرى على النحو التالى : ((وقع أمس حادث من أغرب الحوادث واشدها مدعاة للدهشة والعجب .. اذ بينما كان الكاتب ((ت ..)) ، وهو شيخ طاعن فى السن ، واقفا على افريز المحطة ، يودع الممثلة الشهيرة ((س ..)) قبيل سفرها الى اوديسا حيث دعيت لاحياء سلسله من الحفلات المسرحية الرائعة ، اذا به ينقض عليها عند تحرك القطار ، وينتزعها فجاة من النافذة وكأن به مسا من الشيطان ! .. الخ .. الخ ..)) فيا للفضيحة ، ويا للضجة التى كانت ستثار اذ ذاك فى روسيا ! .. ومع ذلك ، فقد كنت على وشك الاقدام على مثل هذا العمل الطائش الذى كثيرا مايرتكب المرء مثله فى الحياة !)) .

وفى الايام التى تلت رحيلها ، لم يكن يتردد فى أعماق نفسه سوى صدى نغمة واحدة .. كان يشعر بأن الساعة التى قضاها فى ذلك القطار ، وأحس خلالها انه عاد شابا يافعا فى العشرين من عمره ، كانت بمثابة آخر وميض ينبعث من مصباح شبابه ، وان الباب الموارب الذى يخفى وراءه شيئا عجيبا غامضا ، قد أوصد الى الابد !

وفى السنة التالية ، قبلت سافينا — لانحراف صحتها — أن تقضى بعض الوقت فى (سباسكوى) . فاحتفل تورجنييف بيوم مقدمها ايما احتفال ، وكان فى الوقت الذى يطالع فيه لضيوفه مقطوعاته الشعرية ، ويتنزه معهم فى الغابة للاستماع الى انغام الليل ، لايفوته ان يدرس ضيفته ويراقبها عن

كتب .. وقد كتب اليها فيما بعد يقول : « لقد عرفتك فى تلك الايام معرفة تامة ، مع كل ما تتميزين به من صفات وعيوب، فلم تسفر دراستى لك الا عن ازدياد تعلقى بك !.. وانك لتجدين فى صديقا مخلصا تستطيعين أن تثقى به كل الثقة .. »

على انه لم يكد يمضى شهر، حتى عقدت خطبة «سافينا»، فتحول حب تورجنييف ــ فى تلك المرة أيضا ــ الى نوع من الصداقة ، ومع ذلك فقد كتب اليها بعد شهرين يقول : « هلا تصورت هذا المنظر الرائع .. البندقية فى شهر اكتوبر .. غريبان جالسان فى جندول ، احدهما عملاق ثقيل الحركات ، اشيب الشعر ، ضخم القدمين ، ولكنه سعيد للغاية ، والآخر امراة فتية ذات شعر أسود وعينين سوداوين ساحرتين ، ولنفترض انها كانت تحس هى الاخرى بسعادة غامرة .. وانهما ليزوران معا الكنائس والمعالم الاثرية ، ثم يتناولان طعام العشاء ، ويذهبان فى المساء الى المسرح . ثم .. ولكن هنا تقف مخيلتى فى احترام .. » وقد ختم خطابه ــ كعادته ــ بالحديث عن اليد ، فقال : « اننى لم أعرف قط يدا بلذ تقبيلها مثل يدك ! »

٢٣ ــ تورجنييف ، وفلوبير ، ودوديه ، وزولا

لم تكن غراميات تورجنييف فى روسيا لتستطيع أن تلعب الا دورا ثانويا فى حياته، بعد ان انتقل مقر عائلته نهائيا الى فيلا (لى فرين) ببوجيفال ، ومنزل (دويه) رقم ٤٨ بباريس .. وكان لايفتأ يقول : « اننى لو خيرت بين ان أصبح اعظم عباقرة العالم على الا ارى آل « فياردو » ، وبين ان أصبح بوابا فى أقصى طرف من أطراف العالم ، لاخترت ان اكون بوابا ! »

وانه لمن الميسور على المرء أن يتصور السنوات العشر

التى قضاها تورجنييف فى باريس ، فى بيئة «جورج صاند» ، و «فلوبير» ، والشقيقين «جونكور» ، و « ألفونس دوديه » ، و « زولا » ، و « موباسان » الناشىء ! .. لقد كان يعجب بجورج صاند اعجابا شديدا نظرا للأثر الذى تركته فى نفسه وهو فى شرخ الشباب ، ولكنه سرعان ما تبين ــ بعد أن تقدمت به السن ــ أن صورة العالم التى رسمتها له ؛ كانت غامضة نوعا ما ، بيد أنه ظل مع ذلك مدينا لها بالحقيقة غير الكاملة التى وجدت وستجد دائما من يتعلق بها فى تلك السن التى يستحيل فيها بلوغ الحقيقة الكاملة ! على أن علاقته بفلوبير كانت أشد توثقا . اذ ما ان تعرف اليه فى عام ١٨٥٨ ، حتى صارا صديقين حميمين ؛ ازدادت العلاقة بينهما توطدا على مر الزمن . ويقول الفونس دوديه : « كانت هناك رابطة ، وانسجام رقيق ساذج بين هاتين الطبيعتين العبقريتين اللتين جمعت بينهما جورج صاند وشدتهما احداهما الى الاخرى ! .. فقد كان فلوبير الكثير الدعابة ، والناقد اللاذع ، و الـ « دون كيشوت » ، يمثل بصوته الجهورى الأجش ، ودقة ملاحظته الساخرة ، وما يبدو على مشيته الثابتة وحركاته العنيفة من مظهر النورمنديين الغزاة ، العنصر القوى فى تلك الرابطة الروحية .. ولكن منذا الذى كان يستطيع ان يتوقع أن ذلك العملاق الآخر انما يحمل بين جنبى هيكله الهائل الضخم ، نفس امرأة كتلك المرأة الرقيقة المشاعر التى وصفها تورجنييف فى مؤلفاته .. تلك الروسية العصبية المزاج ، المسترخية ، الملتهبة الحواس ، الرهيبة كالقوة الثائرة ؟! .. ولكن يبدو أن الارواح تخطىء غالبا ــ وسط ضجيج مصنع البشرية الهائل ــ فى أختيار هياكلها ، فتحل أرواح الرجال فى هياكل النساء ، وتحل أرواح النساء فى هياكل

العمالقة الجبابرة !!

وكان الاديبان الكبيران يبديان نفس الاهتمام بكمال الاسلوب ، مع الفارق أن تورجنييف كان أشد ميلا الى البساطة من فلوبير .. وقد قال اسكندر توماس : « أن **فلوبير عملاق يقطع أشجار الغابات ليصنع منها عيدانا من الكبريت، أما تورجنييف فانه يحول أشجاره الى ألواح رفيعة بيضاء ليشيد بها منازل من الخشب بحجم الانسان !** » .. لكن احترامهما للفن مالبث ان قرب بينهما وعزز صداقتهما . وكان فلوبير — الذى كان يلقب تورجنييف « بالمسكوفى الطيب » — يعتبره من خيرة المستشارين فى الادب وأقدرهم ! وقد كتب عنه ذات مرة يقول :

« لقد قضيت أمس مع تورجنييف يوما من أمتع أيام حياتى ، اذ تلوت على مسامعه الصفحات المائة والخمسين التى الفتها من كتاب « القديس انطوان » . وبعد ذلك قرأت عليه ما يقرب من نصف كتاب « الاغانى الاخيرة » .. فياله من مستمع ، وياله من ناقد ! .. لقد بهرنى بسداد رأيه وفطنته .. آه .. ترى اى درس من الممكن أن يأخذه على يده ، جميع الذين يدعون النقد ، لو انه أتيح لهم الاستماع اليه ؟!.. انه يلاحظ كل كبيرة وصغيرة ولا يدع شيئا واحد يفلت منه .. وهو لاينسى ابدا — بعد استماعه الى قصيدة مؤلفة من مائة بيت — كلمة نابية او نعتا فى غير محله .. وقد اسدى الى بشأن كتاب « القديس انطوان » نصيحتين أو ثلاثا من أدق النصائح وأكثرها قيمة ! »

وعلى اثر انتهاء الحرب السبعينيه ، راح تورجنييف يزور كل يوم احد صديقه فلوبير . وكان هذا الاخير يستقبل أصدقاءه فى منزله « ببارك مونسو » فى باريس ، وهو يلبس عباءة ويضع على رأسه طربوشا مغربيا . وكان تورجنييف

يأتى كل مرة متأبطا أحد مؤلفات «جوته» أو «سوينبورن»، فيترجم لاصدقائه جانبا منها عن ظهر قلب.. على ان فلوبير ما لبث ان ترك منزله الى مسكن آخر بضاحية (سان اونوريه) حيث استؤنفت المجالس الادبية . ويقول «هنرى جيمس » الذى كان يتردد على تلك المجالس من وقت لآخر:
« كان الحديث فيها يتناول أسلوب الكتابة بوجه خاص ، وكان جميع الحاضرين يعتقدون ان الفن والاخلاق شيئان متباينان تماما ، وان أهم ما فى الرواية الاسلوب ! .. »

وقد أعرب فلوبير فى أحد الايام لمدام جورج صاند عن أسفه لعدم اتفاقه مع أصدقائه على أسلوب جديد من أساليب النثر الفرنسى ، كان قد راق له وشغف به ، فقال :

« أن التفاهم معهم امر عسير ! .. وهناك رجلان أحبهما حبا جما واعتبرهما فنانين بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وهما تورجنييف وزولا . ومع ذلك ، فانهما لايتذوقان البتة نثر « شاتوبريان » ولا « جوته » .. ان العبارات التى تسحرنى ، تبدو فى نظرهما جوفاء . فأينا على صواب ؟.. ولكن كيف يتسنى لى بعد ذلك أن أنال اعجاب الجمهور ، بينما أقرب المقربين الى بعيدون عنى ؟ ! .. ان كل ذلك يبعث الاسى فى نفسى .. لكن بالله عليك .. لا تسخرى ! »

وعندما كان الكاتبان يجتمعان ، كان تورجنييف هو الذى يتكلم غالبا ، بينما كان فلوبير ينصت اليه فى احترام وانتباه بالغين.. وقد وصف موباسان «فلوبير» بقوله : « انه ينصت الى تورجنييف فيما يشبه التدين ، ويحدق فيه بعينيه الواسعتين الزرقاوين ذات الجفون المتحركة ؛ ويرد على ذلك الصوت الناعم العذب بصوت جهورى ينطلق كالنفير تحت شاربيه اللذين يشبهان شاربى المحارب المغولى القديم ! »

على أن هذا الإختلاف الهين فى الذوق، ماكان ليقطع حبل

الود بين الاديبين اللذين كانت تجمع بينهما روابط قوية أخرى .. فقد كان كلاهما يميل الى الشعر .. وقلما كانا يفكران فى المستقبل ويعدان عدتهما له ، فضلا عن أنهما كانا يسعيان الى غرض واحد هو الادب ! **وقد كانت لهما كذلك نفس الفلسفة ، ونفس التشامخ والانفة أمام عالم يناصبهما العداء، ونفس الترفع عن الابتذال ونفس النزعة الرومانتيكية.**

وقد كان لفلوبير الفضل الاكبر فى توثيق عرى الصداقة بين تورجنييف والكتاب الفرنسيين الآخرين فى ذلك العهد . ففى عام ١٨٧٢ دعاه فلوبير الى تناول طعام العشاء مع « تيوفيل جوتييه » ، و « ادمون دى جونكور » . وقد وصف هذا الاخير تورجنييف الشيخ بقوله : « تورجنييف .. ذلك العملاق الرقيق ، والهمجى الظريف .. لقد سحرنا منذ أول ملعقة حساء ارتشفناها ، بشعره الابيض الغزير المتهدل على عينيه ، والخط العميق الذى يشق جبينه من أحد صدغيه الى الآخر كأنه خط محراث ، ثم بحديثه الصبيانى وبما يمتزج فى نفسه من سذاجة ورقة هما سحر العنصر الصقلبى ، وهو سحر يمتاز عنده بطابع شخصى غريب ، وعلم غزير ، ومعلومات عامة ، وأفق واسع .. »

وقد أقيمت ندوات أخرى ، ثم سرعان ما انضمت مدام جورج صاند الى حلقة الاصدقاء ، وكانت عندئذ تزداد شبها بالمومياء ، ولكنها كانت تفيض سذاجة ورقة ومرحا !.. ووقعت الندوات من نفس فلوبير موقع الاستحسان، وراقت له كثيرا ، فاقترح اقامتها فى كل شهر . وفى اليوم الرابع عشر من شهر ابريل ، اقيمت فى مطعم (كافيه ريش) الندوة الاولى بحضور أربعة من المدعوين لم يفرق بينهم الا الموت وهم : فلوبير وتورجنييف وزولا والفونس دوديه .

ولم يكن زولا بالرجل الذى يعجب تورجنييف . فان

مرارته وشكواه المستمرة من ذلك الحجر الذى يقول انه فرض على مؤلفاته ، كانت تدهش رجلا أكبر منه سنا ارتضى للظلم ورضخ له ، واعتبره من مقتضيات تطاحن الكائنات فى سبيل البقاء ! .. والى جانب ذلك ، لم يكن تورجنييف يحب فن زميله ويتذوقه ، وقد كتب الى فلوبير فى هذا الصدد يقول : « لقد قرأت قصة لزولا واننى لأرثى له .. أجل ، انه لايثير فى نفسى غير الاشفاق ، واخشى الا يكون قد قرأ شيئا لشكسبير . وهذا فراغ يستحيل عليه ملؤه .. » وكان من رأى تورجنييف وفلوبير ، أن الكتاب الناشئين من أمثال زولا ، فى حاجة الى قليل من الشعر فى التعبير ، وسلاسة فى الاسلوب !

على انه غالبا ما كانت تخيم على محافلهم الادبية سحابة من الكآبة والحزن .. فكان « تيوفيل جوتييه » يردد : «انى اشعر بأنى أصبحت فى عداد الاموات ! » . فاذا بتورجنييف يهتف : « أما أنا ، فأحس احساسا آخر .. انكم ولا شك تعرفون المسك حين تنتشر رائحته فى البيت ؛ ثم لاتلبث ان تملأ الخياشيم وتظل عالقة بها زمنا طويلا .. وهاأنذا أشم دائما حولى رائحة الموت والفناء والانحلال !! » . وكانت رائحة الموت هذه تقض مضجعه ، وتثير الجزع فى نفسه ، حتى ان وفاة كل صديق حوله ، كانت تذكره بقرب أجله .. وقد كتب عقب وفاة جورج صاند يقول : « لقد تألمت أشد الالم لوفاة جورج صاند .. ياللمسكينة ! .. ويالقلبها الذهبى الذى كان يختلج فى صدرها طاهرا نقيا لا تشوبه شائبة ولا يلطخه أى شعور صغير او حقير أو كاذب ! .. والآن قد استقر كل ذلك فى تلك الحفرة المظلمة البشعة التى فغرت فاها وابتلعتها ، ويا ليتها علمت ما ابتلعت !.. ولكن

ما العمل ؟ .. ان علينا أن نشمخ برؤوسنا ، ونترفع عن الصغائر ! »

وفى عام ١٨٧٨ ، بلغ تورجنييف الستين من عمره ، فكتب يقول : « انها بداية النهاية ! .. فالحياة بعد الاربعين تنحصر فى التخلى عن كل شىء وتصبح بعد الستين حربا دفاعية يخوض الانسان غمارها ضد الموت ! ». وفى أحد أيام ١٨٨٠ ، روى لاصدقائه أنه أصيب خلال الليل بنوبة قلبية ، شاهد خلالها على جدار الغرفة المواجه له بقعة كبيرة سوداء ، صورها له الكابوس الرابض فوق صدره وهو بين اليقظة والنوم ، انها ملاك الموت ! » . وفى تلك السنة بالذات ، قضى فلوبير نحبه فشيع الشقيقان جونكور ، ودوديه ، وزولا ، جثمانه حتى مقبرة روان ، وكانت تفوح فى أرجائها رائحة الشجر الزكية .. أما تورجنييف ، فلم يشترك فى تشييع الجنازة اذ كان يقوم وقتذاك باحدى رحلاته الاخيرة فى روسيا ، حيث جلب لنفسه سخط الشعب الروسى ، على أثر ما اقترحه عليه من فتح اكتتاب لتشييد نصب تذكارى، تخليدا لذكرى صديقه الراحل !

على ان الندوات الادبية ظلت تعقد فى مواعيدها المألوفة ، وأن تكن الاحاديث فيها والمناقشات لم تتناول من الموضوعات غير الموت ! .. وفى ذلك يقول تورجنييف : « **لقد ألفت فكرة الموت ، ولكننى أقصيها بعيدا عنى فى كل مرة تطرأ على ذهنى، فتضمحل وتتلاشى ، اذ من نعم « الضباب الصقلبى » علينا نحن الروس ، أنه ينقذنا من منطق افكارنا ، ويحول بيننا وبين الاستمرار فى طريق الاستدلال والاستنتاج الى النهاية !** »

٢٤ - الموت

ما أن حل عام ١٨٨٣ ، حتى بدأ المرض ينتاب تورجنييف،

فأجريت له عملية جراحية لفتح خراج فى جسمه ، ولكن لما كان أديبا وفنانا قبل كل شيء ، فقد كتب الى دوديه يقول : « كنت أفكر فى أثناء العملية فى ندواتنا ، وأحاول أن أجد الكلمات الملائمة التى أستطيع بها ان أصف لك وصفا دقيقا تأثير مبضع الجراح وهو يشق جلدى ، متوغلا فى لحمى كأنه سكين لقطع الموز ! » . واذ راحت وطأة المرض تشتد عليه ، قرر الطبيب « شاركو » انه مصاب بالذبحة الصدرية ، ثم أشار عليه بالتزام الفراش وعدم الحركة . واذ ذاك أطلق تورجنييف على نفسه اسم « بطريق الحيوانات الرخوة » ، وحاول أن يجد له عزاء فى فلسفة الاستسلام القائمة على ما يسميه « اليأس المريح » ، وقضى بعض وقته فى وضع طائفة من الحكم ، حتى يسير عليها من هم فى مثل حالته ، ومن هذه الحكم قوله : « **يجب قبل كل شيء التأمل فى الماضى، وتلبية مقتضيات الحاضر والخضوع لها ، وعدم التفكير فى المستقبل .. ويجب ، كى نعيش فى سلام ، الا نباشر اى عمل أو حتى نقرر القيام به ، كما انه يتعين علينا الا نثق بأحد وألا نخشى شيئا .. وعلى كل حال، ففيم الحركة ؟.. هل المحار تتحرك ؟ .. ومع ذلك فهو يعيش** » . على أنه سرعان ما تبين أن الذبحة الصدرية التى قيل انه مصاب بها ، لم تكن سوى سرطان فى نخاع السلسلة الفقرية ، وظل تورجنييف يعانى من مرضه آلاما مبرحة ، على الرغم مما كان يتناوله من أدوية ومسكنات .. فكان يقضى الليالى ساهدا ، محاولا ــ بما يتحلى به من صبر وجلد شديدين ــ أن يعمل بنصائح الفيلسوف شوبنهور الذى يأمر بأن يحاول المرء تحليل آلامه كى تخف وطأتها .. على انه كان ــ مع ذلك ــ يصرخ من شدة الالم ، فيستغيث بالموت تارة ، ويتوسل تارة اخرى الى مدام فياردو ان تقذف به من

النافذة . بيد انها كانت ترد عليه مازحة : « ولكنك ياعزيزى تورجنييف ، ضخم ثقيل للغاية .. ثم أن ذلك قد يضرك !! » فلم يكن يتمالك نفسه من الابتسام .. وعاش بعد ذلك ثلاثة شهور فى شبه غيبوبة . ثم ما لبث أن كتب الى الناقد انينكوف قائلا : « لقد كنت فى أعماق البحر ، حيث وقعت أنظارى على وحوش مخيفة شنيعة تلتف بعضها حول بعض .. انه مشهد لم يقدم احد على وصفه لان أحدا لم يعش بعده ليصفه ! »

وما ان أدرك تورجنييف ان أيامه باتت معدودة ، حتى بدأ يهتم باعادة طبع مؤلفاته كاملة .. وقد كان يود لو دفن تحت قدمى أستاذه بوشكين ، بيد انه كان يعتقد فى قرارة نفسه انه لا يستحق هذا الشرف ! .. وقد ارسل اليه تولستوى خطابا يواسيه فيه قائلا : **« لقد كان لنبأ مرضك وقع أليم فى نفسى .. وعندما بلغنى ما وصلت اليه حالك من خطر ، أدركت مدى حبى لك وتعلقى بك ، وشعرت بانك لو قضيت نحبك قبلى لمت حزنا وغما عليك .. »** . فرد عليه تورجنييف قائلا : « صديقى العزيز نقولايفيتش ، لم أكتب اليك من امد بعيد ؛ لاننى كنت مريضا . والحق اننى الآن ارقد على فراش الموت .. اننى لن أشفى من مرضى أبدا ، ولا داعى للتفكير فى ذلك مطلقا .. اننى أكتب اليك لاعبر لك فقط عن مدى مايخالجنى من غبطة ، لاننى كنت فى أحد الايام من معاصريك ! .. وهاأنذا اتقدم اليك بآخر رجاء متوسلا اليك ان تستأنف أعمالك الادبية .. ولشدما أسر لو اننى كنت واثقا من ان خطابى سيؤثر فيك .. اننى عاجز عن الاكل والكلام والنوم ، ومجرد ذكر هذه الاشياء يرهقنى . فأتوسل اليك يا صديقى ، يا كاتب روسيا الاعظم ، ان تجيبنى الى رجائى . وأرجو ان تفيدنى باستلامك هذا

الخطاب ، واسمح لى بأن اضمك الى صدرى ، واقبلك للمرة الاخيرة ، انت وزوجك وجميع أفراد أسرتك .. لقد بلغ منى التعب والاعياء كل مبلغ .. فأرجو المعذرة ! »

وكانت سافينا الحسناء الساحرة تراسله أيضا .. وقد رد عليها يوما بقوله : « وقع خطابك فى نفسى الحزينة وحياتى الكئيبة وقع زهرة الورد فى نهر عكر .. لقد تخلت عنى شجاعتى ، وانى لا احاول ان اتطلع الى المستقبل ؛ فأرجوك الا تسمحى لى بأن أداعب الحلم العذب .. برؤيتك مرة اخرى .. ياصديقتى العزيزة ، اننى لا اجرؤ على التفكير فى معنى كلماتك .. تذكرى من وقت لآخر مدى ما شعرت به من حزن لفراقك فى باريس !.. واننى واثق من انه لو قدر لنا أن نلتقى قبل ذلك فى الحياة .. ولكن ما الفائدة ؟ .. انى لاتطلع الآن الى نعشى .. الى مستقبل زاهر ! »

وقد كتب تورجنييف فى خاتمة احدى رواياته يقول : « **كيف مرت الحياة بهذه السرعة ؟ .. وكيف أصبح الموت قريبا هكذا ؟ .. ان الموت لاشبه بصياد أوقع فى شبكته سمكة ، ثم تركها لحظة فى الماء .. فالسمكة تواصل التخبط فى الماء وسط الشبكة ، بينما الصياد قد يقبض عليها متى شاء ! »** .

وفى أثناء مرضه ، كان تورجنييف يقرض بعض الشعر المنثور ، ومن ذلك قوله : « هذه السماء الزرقاء الصافية الأديم .. وهذه السحب الناصعة البياض .. واريج هذه الازهار .. ورنة هذا الصوت العذب الحنون .. وجمال درر الفن الوضاء .. **وابتسامة السعادة على ثغر الحسناء** .. ولكن ما الفائدة ؟ .. ما الفائدة من ذلك كله ؟ .. أن مايلزمنى الآن هو ملعقة مَن هذا الدواء الكريه العقيم اتناولها كل ساعتين !! »

وقبل أن يقضى نحبه بخمسة عشر يوما ، دعا مدام فياردو الى الاقتراب منه ، وطلب اليها ، والدموع تترقرق فى عينيه ، ان تكتب ماسيمليه عليها ثم قال : « انى اود ان اكتب قصة تدور فى رأسى » . فقالت : « املها على .. اننى لا اكتب الروسية بسرعة ، ولكن أظن انك لو تذرعت بقليل من الصبر ، لوصلت الى نتيجه » . فأجابها : « كلا ، كلا ، اننى لو امليت عليك بالروسية لوقفت عند كل كلمة أو عبارة لاختيار الفاظى .. اننى أريد أن املى عليك القصة بجميع اللفتات التى يعرفها كلانا ، مستخدما العبارات التى ترد عفوا على ذهنى » ..

ولقد فعل .. أما القصة فكانت قصة نبيل روسى فاسد عنوانها « خاتمة » ..

وما لبث المرض ان بلغ من تورجنييف كل مبلغ حتى أصبح فى حالة هزال وضعف شديدين . وكان يقول : «وانى للمرء ان يعيش وله قدمان كأرجل الجراد ؟ » . وقدتساءل يوما فى احدى قصائده النثرية قائلا : « ترى .. فيم سأفكر وأنا على فراش الموت ؟ » . ولكنه مات فى غمرة الهلوثة والهذيان ، اذ راح يصيح : « أنظروا .. يا للغرابة ! .. ان ساقى معلقة هناك فى الزاوية .. والغرفة ملأى بالنعوش » ومع ان جميع الواقفين حوله كانوا من الفرنسيين ، الا انه طفق يتكلم بالروسية ويردد أشعارا : لعل استاذه «بابورين» قد لقنه اياها فى صباه على ضفاف البحيرة الرقراقة تحت أغصان الصفصاف ، ولعله قد خيل اليه انه يشم رائحة الكتان والقمح تنبعث من سهول روسيا التى طالما احبها فى صباه ..

وأفاق فى لحظاته الاخيرة من غيبوبته ، وعاد اليه صفاء ذهنه ، فقال : « اقتربوا .. لقد ازفت ساعة الفراق ! » ..

ثم نظر الى مدام فياردو وقال : « ها هى ذى ملكة الملكات ، وكم لها من أياد بيضاء على الانسانية ! »

ولم يكن يتألم اذ ذاك ، بل راح ينطفىء رويدا رويدا ، وبعد أن انتفض مرتين كالطير الجريح ، لفظ آخر أنفاسه .. وفى اليوم التالى لوفاته ، بدا جبينه مقطبا تحت تأثير اختلاجات الموت . على ان وجهه سرعان ما استرد مسحته الطيبة المألوفة ، حتى لقد كان أصدقاؤه يتصورون انهم سيرون شفتيه تنفرجان مرة اخرى عن ابتسامة الارتياح والرضا !

وقد جمعت الحفلة الدينية حول نعش تورجنييف ، جموعا غفيرة من العمالقة الروس المقيمين فى باريس ، وقد اكفهرت وجوههم وتجهمت حزنا على الصديق الراحل .. وجاءت كثيرات من المعجبات به من مختلف البلدان لتوديعه الوداع الاخير .

وكان اصدقاؤه الكتاب يسيرون خلف نعشه الى المحطة وقد عادت الى ذاكرتهم الاقاصيص التى كان يقصها عليهم فى اجتماعاتهم حول مائدة فلوبير ، تلك الاقاصيص التى كان يخال « انها تخرج من جوف سحابة كثيفة دكناء ثم لاتلبث أن تستحوذ على القلوب والمشاعر ! » .

ونقل الجثمان الى روسيا بعد أن أبن « رينان » الفقيد فى المحطة . وقد كانت جنازته فى روسيا انتصارا لم ير مثله أديب منذ عهد بوشكين ، اذ رافقته جماهير لا تحصى حتى مقره الاخير . وقد وجه حزب الارهاب نداء لتكريمه ، ووضع المعتقلون السياسيون فى مختلف سجون روسيا على قبره أكاليل الازهار وهى تحمل العبارة الآتية : **« من قبل الموتى الى الخالد »** . وهكذا خضعت تلك الشبيبة التى طالما عكر ارتيابها فيه صفو حياته ، وأولت جثمانه فى النهاية من

الاحتـرام والتبجيل ما هو خليق بأن تهتز له جوانح فنـان عظيم على قيد الحياة ! .. ولكن يبدو أن الموت هو وحـده الكفيل بأن يحمل الناس على الاعتراف بالعبقرية وتكريمها !

وبعد خمسة وعشرين عاما من وفاة تورجنييف ، أنشأ معهد العلوم فى (بطرسبرج) معرضا لمخلفات تورجنييف ، جمعت فيه مختلف الاشياء البسيطة التافهة التى نحـاول بواسطتها عبثـا أن نحيى ذكرى العظمـاء من الراحلين ..

ولقد ضم المعرض كل شيء .. من مفكرة « فافارا بتروفنا » التى حوت تلك العبارة : « ١٨ اكتوبر سنة ١٨١٨ ميلادالابن أيفان » ، الى مكتب سباسكوى الشهير تعلوه بندقية الصيد ..وسرعان ما لاحظ الحراس وجود باقة من الازهار الناضرة أمام صورة تورجنييف ، وضعتها سيدة عجوز راحت تعاود الكرة كل يوم .. كانت تلك المرأة هى « ماريا جافريلوفنـا سافينا » ، ولا شك فى انه لم يكن هناك ما يسر له تورجنييف ويرتاح اليه ، خير من تلك الازهار اليـانعة النـاعمة التى تضعها أنامل صديقة وفية !

عزيزى القارىء ..

والآن ، بعد أن قرأت سيرة حياة « ترجنيف » كما أبدع فى تحليلها « أندريه موروا » ، تعال نقرأ معا هذه « الترجمة الكاملة » للقصـة الطويلة « ميـاه الربيع » ـ أو سـيول الربيع » ـ وهى القصـة التى قرر مؤلفهـا ترجنيف عنـد نشرها انها .. واقعية .. تصور غراما «عاشه» هو بالفعل ، كما أسلفت لك القول فى افتتاحية هذا الكتاب :

مياه الربيع

(أغنية روسية قديمة)
أيتها السنون الفرحة
أيتها الايام السعيدة
ما كان أشبه جرياتك
بجريان مياه الربيع

— ١ —

فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، عاد « سانين » الى غرفته . فما أن أشعل خادمه الشموع حتى صرفه ، وارتمى على مقعد قرب المدفأة ، ودفن وجهه فى يديه . انه لم يشعر فى حياته يوما بما يشعر به الآن من اعياء ، جسمى ونفسى .. لقد عاد من سهره فضاها مع نساء لطيفات ورجال مثقفين . كان بعض هاته النساء على حظ وافر من الجمال ، وكان جميع الرجال تقريبا على جانب كبير من الذكاء والموهبة . وقد وفق هو نفسه فى الحديث ، بل لقد لمع نجمه . ومع ذلك لم يشعر فى حياته يوما بما يشعر به الآن من السأم ، الذى تحدث عنه الرومانيون فى سالف الازمان ، **لم يشعر فى حياته يوما بما يشعر به الآن من « اشمئزاز من الحياة » ، وهو شعور ملك عليه نفسه ، واستبد به استبدادا !**

لو أنه كان أصغر سنا ، لبكى من شدة القلق والضجر والاضطراب . ان مرارة لاذعة كاوية تنفذ الى اعماق نفسه كأنها العلقم مذاقا .. ان شعورا بالغثيان والألم يخنقه خنقا ويلفعه بضباب كضباب ليل الخريف ، يحيط به من كل جانب . وهو لا يعرف كيف يتخلص من هذا الظلام ، ولا من

هذه المرارة .. وهو لا ينتظر أن يخفف النوم عنه وطأة هذا العذاب ، فهو يعرف أنه لن ينام !

وأخذ يفكر .. أخذ يفكر تفكيرا كسولا ، ثقيلا ، خبيثا ، فكر فى غرور الانسان ، وسخفه ، وتفاهته ، وزيفه .. واستعرض جميع الاعمار ، فلم يستثن منها عمرا (لقد دلف هو الى الثانية والخمسين من عمره) . ان الانسان ليظل طوال حياته يجهد نفسه فى فراغ ، يضرب الماء بعصا ، يكذب على نفسه ، صادقا نصف صدق ، واعيا نصف وعى . ثم تهبط الشيخوخة على الرأس فجأة كأنها الثلج..ومع هبوط الشيخوخة يدلف الخوف من الموت ، وما ينفك هذا الخوف يشتد ، وما ينفك ينهش ويفترس ويضنى .. الى أن يثب المرء الى الهاوية !

والمحظوظون هم الذين تنقضى حياتهم على هذا النحو .. فسعيد ذلك الذى يبلغ النهاية ، قبل أن يرى الأمراض والآلام تعلوه كما يعلو الحديد الصدأ ! .. ان الحياة لا تبدو لـ « سانين » بحرا متلاطم الامواج ، كما يصورها الشعراء ، بل محيطا هادئا لا يعكره شىء ، ساكنا شفافا حتى أعمق أعماقه المظلمة .. وهو يتصور نفسه جالسا فى مركب مترنح ، يرى هناك ــ فى ذلك القاع المظلم ذى الحمأ ــ حيتانا ضخمة وغيلانا شوهاء ، هى شرور الحياة .. هى الأمراض ، والآلام ، والجنون ، والشقاء ، والعمى !

وانه لينظر فيرى غولا من هذه الفيلان يخرج من الأعماق ، ويظهر على سطح الماء ، فتتضح معالمه ، ويصبح فى الوقت نفسه أشد نكرا وهولا . دقيقة واحدة ، ثم يقلب الغول المركب !

.. لكن الغول يختفى ، يبتعد ، يعود الى قاع البحر ،

ويتلبد فيه .. فيدور الماء حوله .. ولكن ساعته آتية .. لسوف يقلب المركب !

هز سانين رأسه ، واندفع ينهض عن مقعده . وسار فى الغرفة جيئة وذهابا ، ثم جلس الى مكتبه ، ففتح أدراجه واحدا بعد آخر ، وأخذ ينبش اوراقه ، وخاصة الرسائل القديمة التى وصلت اليه من نساء .. انه لا يعرف ، هو نفسه ، لماذا يحرك هذه الادراج . انه لا يبحث عن شىء . كل ما يريده هو أن يشغل نفسه بأمر من الأمور ، تخلصا من هذه الافكار التى تعذبه .

وبعد أن فض عددا من هذه الرسائل ، عرضا ، وقد وجد فى أحداها زهرة جافة ذهب لونها ، هز كتفيه ، ونظر الى الموقد ، ووضع الرسائل جانبا ، وهو ينوى أن يحرق — عاجلا أو آجلا — هذه الوريقات التى لا طائل تحتها .. ومر بيديه على جميع الأدراج بسرعة ، فاذا هو يحملق على حين فجأة ، **ويخرج ببطء علبة صغيرة ، ثمانية الشكل ، من طراز قديم ، ثم يرفع غطاءها ببطء .. كان فى العلبة ، بين طبقتين من القطن المصفر اللون ، صليب صغير من عقيق !**

ونظر سانين الى هذا الصليب دهشا ، بضع لحظات ، ثم اذا هو يتنهد على حين فجأة .. ان قسمات وجهه تعبر عن الحسرة والفرح معا ! .. كان المعنى الذى ظهر على وجهه اشبه بالمعنى الذى يظهر على وجه انسان يلقى على حين فجأة صديقا لم يره منذ مدة طويلة ، ولكنه أحبه حبا رقيقا ، فاذا هو يظهر له بغتة ، كما كان فى الماضى ، على شىء من التغير ، أحدثه التقدم فى السن !

ونهض سانين ، فعاد الى المدفأة ، ثم جلس على مقعده من جديد ، ودفن وجهه فى يديه مرة أخرى ! ..

« لماذا يحدث هذا .. اليوم ؟ »

كذلك تساءل سانين ! .. وعادت الى ذاكرته أمور انقضت منذ مدة طويلة :

***

فى صيف عام ١٨٤٠ ــ وكان سانين فى الثانية والعشرين ــ مر بمدينة فرنكفورت ، فى طريق عودته من ايطاليا الى روسيا . لم يكن يملك يومئذ ثروة كبيرة ، ولكنه كان مستقلا ، بلا أسرة تقريبا . وكان قد ورث بضعة آلاف روبل عن شخص يمت اليه بقربى بعيدة ، فقرر أن ينفق هذا المبلغ فى خارج روسيا ، قبل أن يصبح موظفا من موظفى الدولة ، هذه الوظيفة التى كان يرى أن الحياة بدونها مستحيلة !

وقد نفذ سانين هذه الخطة تنفيذا دقيقا ، حتى انه ــ يوم وصل الى فرنكفورت ــ لم يكن قد بقى له من المال الا ما يكفيه للعودة الى (بطرسبرج) . ولم تكن السكك الحديدية كثيرة فى ذلك العصر ، فكان الناس يسافرون فى عربات عامة ، ومن ثم ابتاع سانين تذكرة السفر ، لكن العربة لم تكن لتتحرك الا فى العاشرة مساء ، فكان أمامه وقت طويل يجب أن يقضيه فى فرنكفورت قبل السفر . ومن حسن حظه أن الجو كان جميلا فى ذلك اليوم ، فبعد أن تناول سانين غداءه فى فندق (البجعة البيضاء) ، الذى كان مشهورا فى ذلك الوقت ، أخذ يضرب فى المدينة ، فمضى ليشاهد مسرحية « آريان دانيكير » ، فلم تحظ باعجابه كثيرا . وحج الى بيت « جوته » الذى لم يكن قد قرأ له الا « آلام فرتر » ، فى ترجمة فرنسية .. ثم قام بنزهة على شواطىء نهر (الماين) ، ولم يلبث ان أخذ الضجر يتسرب الى نفسه .. حتى اذا حلت الساعة السادسة ، وقد أعياه المسير وأغبر حذاءه ، وجد نفسه فى شارع من أصغر شوارع فرنكفورت . وهناك لمح ، على جدار بيت من البيوت المتباعدة

فى ذلك الشارع ، هذه اللافتة : (حلوى ايطالية . «جيوفانى روزيلى ») .

فدخل سانين يريد أن يشرب كأسا من شراب الليمون ، لكنه لم يجد فى الحانوت أحدا ! .. ورأى فى مؤخرة المكان ، على رفوف خزانة مطلية ، زجاجات عليها بطاقات مذهبة ، وآنية مليئة بالبسكويت والشوكولاتة والفاكهة المحفوظة ، وكانت الزجاجات تصطف فوق الارفف كما فى الصيدليات . لكن الحانوت كان خاليا ، الا من قطة شهباء كانت فوق مقعد عال قرب النافذة ، تطرف عينيها ، وتهز قوائمها ، وقد اصطبغت بلون ارجوانى ساطع من الاشعة المائلة التى تلقيها عليها الشمس الغاربة . وعلى الارض كرة كبيرة من خيوط الحرير قد تدحرجت على مقربة من سلة الحطب المنقوشة المقلوبة .

وكانت تنبعث من الغرفة المجاورة جلبة غامضة .. لكن سانين ظل ساكنا ، بينما كان جرس الدخول يرن .. واخيرا هتف يسأل بصوت عال :

ــ أما من أحد هنا ؟

واذا بباب الحجرة المجاورة يفتح فى هذه اللحظة ، فينبهر سانين اعجابا !

- ٢ -

كانت فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها تندفع الى الحانوت ، وقد انسدل شعرها الاسود على كتفيها العاريتين ، وامتدت ذراعاها الى الامام . فلما لمحت سانين هرعت اليه ، وامسكت بيده ، وجرته وهى تصيح بصوت لاهث :

ــ تعال حالا ، من هنا .. تعال انقذه !

على ان دهشة سانين ماكانت لتسمح له بأن يستجيب لنداء الفتاة فى الحال ، فظل مسمرا فى مكانه .. انه لم يكن

قد شهد فى حياته مثل هذا الجمال قط . والتفتت الفتاة اليه مرة أخرى ، وقالت له :

ـ تعال ، تعال !

وكان فى صوتها ، ونظرتها ، وحركة يدها المنقبضة التى وضعتها على خديها الشاحبين فى تشنج ، من الاضطراب والحزن والذعر ما جعل سانين يتبعها سريعا نحو الباب الذى كان قد ظل مفتوحا . فاذا به يرى ـ فى الغرفة التى دخلها وراء الفتاة ـ فتى فى نحو الرابعة عشرة من عمره ، مستلقيا على أريكة من الشعر ذات طراز قديم . وكان الفتى شديد الشبه بالفتاة . فلما لاحظ سانين ذلك ، ادرك انه اخوها !

وكان الفتى شاحبا بدرجة ملحوظة ، حتى لقد كان لون وجهه قريبا من لون الشمع أو الرخام . وكانت عيناه مغمضتين ، وكان ظل شعره الكثيف الاسود أشبه ببقعة على جبينه الذاوى وحاجبيه الدقيقين الساكنين . وكانت اسنانه المشدودة تبرز من بين شفتيه الداكنتين . وبدا وكأنه كف عن التنفس . أما ذراعاه ، فقد تدلت احداهما على الارض ، بينما استقرت الاخرى وراء رأسه . وكان الفتى مرتديا ملابسه ، حتى لقد كانت أزراره محكمة حتى الذقن ، وربطة عنقه تطوق رقبته .. وصاحت الفتاة تقول :

ـ مات ، مات .. لقد كان منذ لحظة جالسا هنا يتحدث معى ، فاذا هو يسقط فجأة ، ثم لا يتحرك بعد ذلك ! .. رباه .. رباه ، ألا تستطيع أن تنقذه ؟ .. ليت أمى كانت بالبيت !

ثم أردفت تقول بالايطالية :

ـ هيه يا بانتاليون ، هل جئت بالطبيب ؟

فأجابها صوت اجش من وراء الباب ، يقول :

ـ لقد أرسلت لويزا الى الطبيب ، ياآنسة .

ودلف الى الفرفة رجل عجوز قصير ، يرتدى سترة رسمية ، مزدانة بأزرار سوداء ، ولها ياقة تحوطها ربطة عنق عالية ، وكان سرواله من القطن الاصفر ، وجوربه من الصوف الازرق .. وقد دخل يعرج فى مشيته لما كان يعانيه من تصلب فى ساقيه . وكان وجهه الصغير يختفى تماما وراء غابة كثيفة من الشعر الاشهب الاشبه بلون الحديد . وكان شعره الذى يوحى بمنظر الاحراش ، ويتجمع فى خصلات تسقط حول رأسه فى شتى الجهات ، يجعله يبدو كالقنبرة ! .. ومما كان يزيد الشبه تكاملا ، ان المرء ماكان ليستطيع أن يميز تحت تلك الكتلة الشهباء القاتمة الا أنفا مدببا ، وعينين صفراوين مستديرتين !

واستطرد العجوز يقول بالايطالية :

ـ ان لويزا أسرع منى ، فأنا لا أستطيع أن اركض !

وكان يرفع قدميه واحدة بعد أخرى ، من فرط ما كان يعانيه من الم بسبب داء النقرس . وكان ينتعل حذاءين ضخمين عاليين مربوطين بأشرطة .. ولم يلبث ان قال :

ـ لقد جئت بماء .

قال العجوز ذلك ، وهو يمسك بيديه اليابستين المعروقتين عنق القارورة الطويل .

فصاحت الفتاة :

ـ ولكن ، أليس من المحتمل أن يموت ونحن ننتظر الطبيب ؟!

ثم اضافت ، وهى تمد يدها نحو سانين :

ـ لعلك تستطيع أن تفعل شيئا لمساعدتنا يا سيدى !

فقال بانتاليون :

ـ يجب أن ننزف منه دما .. انها السكتة !

وكان سانين يعرف ـ رغم جهله بالشئون الطبية جهلا

تاما ـ ان نوبات السكتة القلبية لا تصيب من هو فى الرابعة عشرة من عمره . فقال لبانتاليون :
ـ بل هذا اغماء ، وليس بسكتة . هل عندكم فرشاة ؟
فرفع العجوز وجهه المنقبض ، وسأل :
ـ ماذا ؟
فأجابه سانين بالالمانية والفرنسية :
ـ فرشاة ، فرشاة !
ثم قال ، وهو يحرك يده بحركة من ينظف ثيابه بفرشاة :
ـ فرشاة ، فرشاة .
ففهم العجوز أخيرا ، فقال بالايطالية :
ـ آه ، فرشاة .. طبعا عندنا فرشاة !
ـ الى بها بسرعة اذن، فسوف ننضو عنه ملابسه، وندلك جسمه بالفرشاة .
ـ حسنا ، حسنا .. وهل نصب ماء على رأسه ؟ الا ترى ان نسكب ماء على رأسه ؟
ـ لا ، لا .. سنرى فيما بعد .. هات الفرشاة أولا ، أسرع !

ووضع بانتاليون قارورته على الارض ، وهرول خارجا من الغرفة ، ثم عاد بعد قليل ، يحمل فرشاة للثياب وأخرى للشعر . ولم يلبث أن أقبل كلب مجعد الوبر ، يحرك ذيله تحريكا عنيفا ، وراح ينظر الى العجوز والفتاة وحتى الى سانين نفسه نظرة مستطلعة ، كأنه يتساءل عن سبب تلك الجلبة وذلك الاضطراب فى البيت !
وفك سانين أزرار سترة الفتى ، وحل ياقة القميص ، ورفع كميه ، ثم تناول الفرشاة ، وأخذ يدلك بها صدر الفتى ويديه بكل قوته . وفى الوقت ذاته ، عكف بانتاليون على تدليك حذاءى الصبى وسرواله بحماسة لا تقل عن حماسة

ونظر « سانين » الى الصليب دهشا ، وقد عبرت قسمات وجهه عن الحسرة والفرح معا ! (صفحة ١٢٥)

سانين ، بينما ركعت الفتاة قرب الاريكة ، وطفقت تمسك برأس المريض ، وتحتضن بنظراتها وجه اخيها ، دون أن يختلج لها جفن .. وكان سانين يدلك بلا توقف ، لكنه كان يلاحظ الفتاة من طرف عينه ، فيقول بينه وبين نفسه :

ـ لله ، ما اجملها !

ـ ٣ ـ

ومع أن أنف الفتاة كان كبيرا نوعا ما ، فقد كان جميلا مستقيما .. وكان ثمة زغب يسير يلقى على شفتها العليا ظلا خفيفا . وكان لون بشرتها ناصعا متجانسا ، كأنه العاج أو الزبد الابيض . وكان شعرها متموجا لامعا ، كشعر « يوديث » التى رسمتها ريشة «آلورى» ، وحفظت صورتها فى قصر (بيتى) !

على أن عينيها ـ بوجه خاص ـ كانتا تخطفان الابصار .. كان لونهما اشهب قاتما ، وحدقة كل منهما محفوفة بحاشية سوداء .. كانتا عينين رائعتين ساحرتين ، حتى فى تلك الساعة التى يطفىء فيها الذعر والالم ما فيهما من بريق !

وتذكر سانين ـ رغما عنه ـ البلاد الجميلة التى عاد لفوره من زيارتها . لكنه لاحظ أن الجمال الذى كان أمامه الآن ، لم يقع بصره على مثله حتى فى ايطاليا .. وكانت الفتاة تتنهد تنهدا طويلا متفاوتا . ذلك أنها كانت تحبس انفاسها، كأنها تنتظر فى كل مرة أن ترى ما اذا كان أخوها قد عاد يتنفس من جديد .. وكان سانين ماضيا فى تدليك المريض، دون أن يستطيع أن يمنع نفسه من مراقبة بانتاليون أيضا ، الذى كان وجهه الغريب يستوقف انتباهه .

وكان العجوز قد أدركه التعب ، فراح يلهث .. وكان كلما حرك فرشاته على جسم المريض مرة ، أطلق زفرة

شاكية ، بينما أخذت خصلات شعره الكثيفة المبللة بالعرق تتأرجح ثقيلة فى كل اتجاه ، كأنها مساحة نباتية كبيرة بللها المطر .. وهم سانين بأن يطلب من العجوز أن يخلع حذاءه على الاقل ، الا انه لمح الكلب ، وقد انتصب فجأة على قائمتيه الخلفيتين ، وأخذ فى العواء ، وقد أهاجته جدة المشهد . فصاح العجوز فى الكلب قائلا :

ـ تارتاجليا !

وفى تلك اللحظة نفسها ، تبدل وجه الفتاة ، وتقوس حاجباها ، وزاد اتساع عينيها ، وأشرق الفرح فى نظرتها .

فأنعم سانين نظره فى المريض ، فرأى وجهه يسترد بعض لونه ، ولمح أهدابه تتحرك ، ومنخريه ينبسطان . وبدأ الفتى يستنشق الهواء من خلال أسنانه التى كانت ما تزال مشدودة ، ثم أطلق زفرة . فصاحت الفتاة :

ـ ايمليو .. حبيبى اميليو !

وأخذت عينا المريض السوداوان تتفتحان رويدا .. كانتا ماتزالان تشعان بنظرة مبهمة ، لكنهما كانتا تشرقان بابتسامة واهنة . وما لبثت ان انتقلت تلك الابتسامة الذاوية نفسها الى شفتيه الشاحبتين ، فاذا به يحرك ذراعه المتدلية ، ويرفعها دفعة واحدة الى صدره .. وعادت الفتاة تردد ، وهى تنهض :

ـ ايمليو !

وكان وجه الفتاة يفيض اذ ذاك بعاطفة بلغت من العنف أن من كان يراها يحسب أنها ستجهش بالبكاء ، أو ستنفجر ضاحكة ضحكا مجنونا .. وصاح من وراء الباب صوت ، يقول :

ـ ايمليو ؟ .. ماذا به ؟

***

ودلفت الى الغرفة بخطى سريعة عجوز ترتدى ثيابا نظيفة ، ويعلو وجهها الاسمر شعر أبيض بلون الفضة . ودخل فى أثرها رجل كهل ، ثم خادمة راحت تطل برأسها من فوق كتفه .. وهرعت الفتاة الى لقائهم . وقالت وهى تقبل السيدة بحركة عصبية :

ــ لقد انقذ يا اماه .. انه حى يا أماه !

فقالت السيدة :

ــ ولكن ما الذى حدث له ؟ .. لقد كنت عائدة الى البيت ، فرأيت لويزا ومعها الطبيب .

وفيما كانت الفتاة تقص على أمها كل ما وقع لأخيها ، اقترب الطبيب من المريض الذى كان قد بدأ يصحو ويبتسم . وكان المريض يبدو وكأنه يشعر بالخجل لما سبب لهؤلاء الناس جميعا من عناء .. وقال الطبيب مخاطبا سانين وبانتاليون :

ــ أرى انكما دلكتما جسمه بفرشاة .. لقد أحسنتم صنعا .. انها فكرة رائعة ، وسنرى الآن ما الذى نستطيع أن نصفه له أيضا !

قال ذلك ، ثم أخذ يجس نبض الفتى . ولم يلبث أن هز رأسه قائلا :

ــ أرنى لسانك !

وانحنت الأم على ابنها فى قلق بالغ ؛ فابتسم لها الفتى ابتسامة مشرقة ، ثم مضى يشخص اليها بعينيه ، وقد تضرج وجهه .. ورأى سانين أن وجوده أصبح لا داعى له ، فأراد أن ينصرف ، ولكن ما أن وضع يده على مقبض باب الدخول ، حتى رأى الفتاة تنتصب أمامه ، وتستوقفه قائلة :

ــ أتتركنا ؟ .. اننى لا احتجزك ، ولكنك ستعود الينا فى

المساء ، أليس كذلك ؟ .. **آن لك علينا حقوقا . فلعلك أنت الذى انقذت أخى من الموت ، ونحن نريد أن نشكر لك ما أسديته الينا من يد ..** ان أمى تحرص على أن تعبر لك بنفسها عن امتنانها ، فيجب أن تذكر لنا اسمك ، وأن تعود الينا لتشاركنا فرحنا !

فاعترض سانين قائلا :

ــ ولكننى مسافر هذا المساء !

فهتفت الفتاة فى حرارة :

ــ ان فى الوقت متسعا .. عد الينا بعد ساعة ، فنتناول معا كأسا من الشوكولاته . هل تعدنى بذلك ؟ .. يجب أن أعود الى المريض حالا .. اننا نعتمد عليك !

ولم يجد سانين مفرا من أن يجيبها :

ــ سأحضر .

فصافحته الفتاة بقوة ، وهرعت الى حيث كان يرقد أخوها .

وفى اللحظة التالية ، كان سانين يسير فى الشارع !

ــ ٤ ــ

حين عادسانين بعدساعة ونصفساعة الىحانوت(روزيلى)، استقبل كما يستقبل أحد اقرباء الاسرة .. وكان « ايميليو » جالسا على الاريكة التى كان يرقد عليها فى الصباح ؛ حين كانوا يدلكون له جسمه . وكان الطبيب قد أوصى له بدواء ، ونصح بالتزام كثير من الحيطة فى معاملته ، وقال ان عليه أن يتجنب الانفعالات ، لأن الفتى كان عصبيا ولديه استعداد للاصابة بأمراض القلب . ومع انه قد سبق أن اغمى على ايميليو قبل ذلك ، الا أن نوبة الاغماء لم تبلغ قط ما بلغته فى تلك المرة من طول وعنف . على أن الطبيب أكد مع ذلك أن

كل خطر قد زال .. وكان ايميليو يرتدى ثوبا فضفاضا ، يليق بمريض فى دور النقاهة ، وقد أحاطت أمه رقبته بوشاح من الصوف الازرق . وكان الفتى مرحا ، حتى لكأنه فى عيد ، وكان كل ما حوله يشع فرحا !

وأمام الأريكة ، وعلى مائدة مستديرة مفروشة بغطاء أبيض ، كان ثمة ابريق كبير من الخزف ، ملىء بالشوكولاته العبقة ، وقد صفت حوله فناجين ، وأقداح ، وفطائر ، وقطع من الخبز ، وبعض أزهار . وكان فى الفرفة ست شموع تحترق على شمعدان من الفضة القديمة . وكان الى جانب الاريكة مقعد وثير من طراز « فولتير » ، وهو الذى دعى سانين أن يجلس عليه حين أقبل .. وكان جميع الاشخاص الذين تعرف اليهم سانين فى الحانوت صباحا قد تجمعوا الآن حول المريض ، بما فيهم الكلب تارتاجليا والهرة . وكانت السعادة تتجلى على وجوههم جميعا ، حتى لقد كان الكلب يتحرك ويعدو فى مرح ، بينما انطلقت القطة تطرف بعينيها تبحث عن شخص يدللها !

وما لبث سانين أن اضطر الى أن يذكر اسمه للموجودين، ويقول لهم من أين هو ، ويحدثهم عن أسرته . فلما ذكر انه روسى، ظهرت الدهشة فى نظرات الام وابنتها ، حتى لقد افلتت منهما صيحة : « آه ! » . وقالتا انه يجيد الكلام بالالمانية ، لكنهما دعتاه الى الاستمرار فى الكلام بالفرنسية اذا كان يروقه ذلك ، لأن كلتيهما تفهمان الفرنسية وتتحدثان بها .. وبادر سانين ، فاستغل اقتراح محدثتيه . وابدت المرأتان اعجابهما باسم « سانين » ، حتى انهما ما كانتا لتصدقان ان من الممكن لروسى أن يكون اسمه سهلا على النطق الى هذا الحد . وقد أعجبهما اسمه الاول كذلك ، وهو «ديمترى» ، اعجابا كبيرا .. وأسرعت أم الفتاة تقول انها فى شبابها قد

شهدت أوبرا عنوانها «ديمتريو وفيليبو» ، لكنها ترى الآن أن « ديمترى » أجمل وقعا فى الاذن من « ديمتريو » !

وقضى سانين على ذلك النحو ساعة بأكملها ، يتحدث مع هاتين الايطاليتين اللتين أفضيتا اليه أيضا بجميع أحداث حياتهما .. وكانت الام هى التى تستأثر بالحديث غالبا . فعرف سانين منها اسمها ، وهو « ليونورا روزيلى » ، وعرف أنها أرملة « جيوفانى باتيستا روزيلى » الذى وفد الى (فرنكفورت) منذ خمس وعشرين سنة ، وانشأ فيها ذلك الحانوت . وكان جيوفانى باتيستا ينحدر أصلا من مدينة (فيسانس) . ولقد كان رجلا ممتازا ، رغم أنه كان نزقا متكبرا ، ورغم أنه كان فوق ذلك « جمهوريا » .. وحين قالت مدام روزيلى هذا الكلام ، أشارت بيدها الى لوحة زيتية معلقة على الحائط فوق الأريكة . ثم أضافت تقول ، وهى تتنهد :

ـ يجب أن اذكر ان الرسام ـ وهو جمهورى أيضا ـ لم يبرز الشبه ابرازا تاما !

ذلك أن ملامح جيوفانى باتيستا كانت تظهر فى الصورة وكأنها ملامح شقى عابس كاسر من قطاع الطرق !

وقد ولدت مدام روزيلى فى تلك المدينة القديمة الجميلة ، مدينة (بارم) ، التى تضم تلك القبة الرائعة التى طلتها ريشة الرسام الخالد « كوريج » ، الا أن مدام روزيلى عاشت شطرا كبيرا من حياتها فى ألمانيا ، حتى كادت تصبح ألمانية .. وأضافت تخبر سانين ـ وهى تهز رأسها فى أسى ـ انه لم يبق لها فى الحياة الا تلك البنت وذلك الابن (قالت ذلك وهى تشير اليهما باصبعها) ، ثم ذكرت أن اسم ابنتها هو « جيما » ، وان اسم ابنها هو « ايمليو » ، وان كليهما

ممتازان مطيعان ، وخاصة ايمليو .. وهنا ، قاطعت الفتاة أمها بقولها :

– وأنا ، ألست مطيعة ؟

فأجابتها الأم :

– آه .. وأنت جمهورية أيضا !

وصرحت مدام روزيلى فى ختام حديثها بأنها تكسب رزقها ، ولكن الاعمال لم تعد تسير سيرا حسنا كما كانت فى عهد زوجها ، الذى كان فنانا كبيرا فى صناعة الحلوى .. فصدق بانتاليون على قولها بلهجة جادة ، ولغة ايطالية ، قائلا :

– لقد كان رجلا عظيما !

– ٥ –

كانت « جيما » ، وهى تصغى الى حديث أمها ، تضحك تارة ، وتتنهد تارة أخرى ، وتدغدغ كتف أمها تارة ثالثة ، وتلوح لها بأصبعها مهددة تارة رابعة ، ثم تنظر اليها بعد كل ذلك . ونهضت أخيرا ، فاحتضنت أمها بذراعيها ، وقبلتها فى قمة رأسها ، فأثار هذا ضحك الام حتى أخذت تطلق صرخات مدوية .

وما لبث ان قدم بانتاليون أيضا الى الفتى الروسى .. وكان بانتاليون فيما مضى مغنيا فى الاوبرا ، لكنه ختم حياته الفنية منذ مدة طويلة ، وأصبح يحتل فى أسرة روزيلى مكانة خاصة ، فكان صديق الاسرة وخادمها معا ، بل كان شيئا بين الصديق والخادم . ورغم انه كان يقيم بألمانيا منذ عدة سنوات ، فانه لم يتعلم من الالمانية الا الشتائم ، حتى ان شتائمه نفسها كانت تفوح منها رائحة اللغة الايطالية . وكان يقول عن جميع الالمان تقريبا انهم أوغاد انذال . لكنه كان –

على العكس من ذلك ـ يجيد الكلام بالايطالية اجادة كاملة ، ذلك انه كان ينحدر من مدينة (سينيجا جليا) التى قيل ان المرء يستطيع أن يسمع فيها « اللغة التوسكانية من فم رومانى » !

وكان ايمليو متكاسلا ، مستسلما للاحساسات الممتعة التى تخامر مريضا فى دور النقاهة ، أفلت من خطر كبير . وكان يسهل على المرء أن يلاحظ من جهة أخرى أن أفراد أسرته يحيطونه بجميع أسباب الدلال والرعاية .. ولم يفته أن يعرب عن شكره لسانين فى خجل واضطراب ، لكن انتباهه كان منصبا على الاشربة والحلوى أكثر من غيرها .. وقد اضطر سانين أن يحتسى قدحين كبيرين من الشوكولاته ، وان يأكل مقدارا ضخما من البسكويت ، اذ أنه كان لا يكاد يفرغ من أكل قرص من البسكويت حتى تقدم اليه جيما قرصا آخر ، فلم يكن يسعه أن يرفضه !

وما أن انقضت لحظات قليلة ، حتى أحس سانين أنه كان بين أفراد تلك الاسرة كأنه فى بيته . ومر الوقت فى سرعة البرق .. وقد افاض سانين فى الحديث عن روسيا ، ومناخها ، والمجتمع الروسى ، والفلاح الروسى ، ورجال القوزاق ، وحرب عام ١٨١٢ ، وبطرس الاكبر ، والاغانى الروسية ، والاجراس الروسية . وكانت المرأتان لا تساورهما الا فكرة غامضة عن تلك البلاد التى ولد فيها سانين . فكم كانت دهشته حين سألته السيدة روزيلى ، أو السيدة لينور - كما كانوا يدعونها فى أكثر الاحيان ـ قائلة :

-- الا يزال القصر الذى شيد فى بطرسبرج من الجليد ، فى القرن الماضى ، والذى قرأت منذ مدة قريبة وصفا له فى كتاب عنوانه « روائع الفن » ، قائما الى الآن ؟

فما كان من سانين الا أن هتف دهشا :

— ولكن ، هل تظنين يا سيدتى أن الصيف لا وجود له فى روسيا ؟

فاعترفت له السيدة روزيلى بأنها لم تكن تتصور روسيا الا سهلا تغطيه ثلوج دائمة ، ويسكنه أناس يلبسون الفراء طوال العام ، وانهم جميعا من العسكريين .. واستطردت تقول : « الحق ان هذه البلاد هى اكثر بلاد الدنيا كرما وحفاوة ، وانها الوحيدة التى يتصف فيها الفلاحون بالولاء والطاعة ! »

وحاول سانين أن يمدها وابنتها بمعلومات أكثر صدقا ودقة عن روسيا . فلما تحدث عن الموسيقى ، رجته هى وابنتها أن ينشدهما لحنا روسيا ، وهما تشيران الى بيانو صغير فى أحد أركان الحجرة . فلبى سانين رجاءهما فى غير كلفة ، وقام الى البيانو ، واخذ يعزف عليه بأصبعين من اليد اليمنى ، وبثلاث أصابع من اليد اليسرى (هى الابهام والوسطى والخنصر) ، ثم غنى لهما لحن « السارافان » ، ولحن « فى الشارع ، على البلاط » ، بصوت « التينور » الذى يخرج من الانف قليلا .

فامتدحت المرأتان صوته وعزفه كثيرا ، لكنهما انتشتا — خاصة — من عذوبة اللغة الروسية ورنينها ، فسألتاه أن يترجم لهما كلام الاغنيتين . بيد أن سانين رأى أن شعر الاغنيتين لا يعطى فكرة عالية للغاية عن الشعر الروسى ، فآثر أن ينشدهما قصيدة « بوشكين » الغزلية « ذكرى لحظة الهية » ، فترجم لهما تلك القصيدة ثم غناها ، وكان اللحن من الحان « جلنكا » .. فاذا بحماسة السيدة روزيلى وابنتها تتجاوز كل حد . واكتشفت السيدة لينور تشابها مدهشا بين الروسية والايطالية . حتى لقد وجدت ان اسمى

« بوشكين » (وكانت تلفظه بوسكين) و « جلنكا » لهما فى الاذن وقع الإسماء الايطالية .

وطلب سانين من الام وابنتها ان تغنيا له شيئا بدورهما ، فلم تخيبا رجاءه ؛ بل قامت الام الى البيانو فورا ، وغنت مع جيما بعض الاغانى .. ولعل صوت الام كان رائعا فيما مضى، اما صوت جيما ، فانه على ضعفه ، كان عذبا ساحرا !

- ٦ -

على أن الذى استأثر باعجاب سانين كان جيما ، وليس صوتها .. كان ، وهو جالس وراءها قليلا ، لا ينفك يقول لنفسه : « ان شجرة من أشجار النخيل لا يمكن أن تنافس رشاقة هذه الفتاة الايطالية ! » . وكان يخيل اليه ،حين يراها ترفع عينيها أثناء صداحها بالفقرات المعبرة من الاغنية، أن السماء تتفتح أمام نظرتها .. بل أن العجوز بانتاليون نفسه ؛ الذى كان يصغى الى الغناء اصغاء خبير ، وقد لاحت على وجهه امارات الجد ، واستند بكتفه الى مصراع الباب ، ودفن ذقنه وفمه فى ربطة عنقه الطويلة ، كان يبدو مفتونا بهذا الوجه الجميل ، رغم انه يراه كل يوم !

فلما انتهى الغناء ، قالت السيدة لينور ان ايمليو كان له صوت جميل كأنه رنين الفضة ، لكنه الآن فى السن التى يغلظ فيها الصوت ، ومن ثم فكان ممنوعا عن الغناء . ثم جاء دور بانتاليون ، فكان عليه ؛ تكريما للضيف ، أن يتذكر بعض الالحان التى كان يجيد غناءها فى الماضى ايما اجادة . واستعد بانتاليون للغناء واخذ يتنحنح ، ويعبث بشعره ، لكنه ما لبث أن قال انه قد هجر الغناء منذ سنين ، رغم انه كان يستطيع فى وقت مضى أن يفخر بموهبته . واردف يؤكد بأنه ينتمى الى ذلك العصر الذى كان يعيش فيه مفنون

كلاسيكيون كبار ، لا يقاس بهم أولئك التافهون الذين يتألقون فى سماء الفن فى هذه الايام ، وأن ذلك العصر قد انشأ مايمكن أن يسمى مدرسة فى الغناء ، وانه هو ـ بانتاليون تشيياتولا ـ قد توج فى (فاريز) يوما باكليل من الغار ، واطلق الناس فى تكريمه على المسرح حمامات بيضاء ، وأن أميرا يدعى « الامير تاربوسكى » ـ وكانت تربطه به صداقة حميمة ـ كان يعذبه كل مساء بالحاحه عليه لكى يقوم بجولة فى روسيا يجنى منها جبالا من ذهب .. لكن بانتاليون كان حريصا كل الحرص على الا يهجر ايطاليا ، بلد « دانتى » .. ثم حلت الكوارث والنكبات ، فقد كان بانتاليون قليل التبصر .. وهنا قطع العجوز حديثه ، واطلق زفرتين عميقتين ، ثم خفض عينيه . وسرعان ما عاد يتحدث عن العصر الكلاسيكى فى الغناء ، وخاصة عن «جارسيا» ، التينور الشهير الذى كان بانتاليون يكن له اعجابا لا حد له . ولم يتمالك أن يصفه قائلا :

ـ ذلك كان رجلا !

واستطرد فقال :

ـ ان جارسيا العظيم لم يقبل يوما أن يغنى ، كما يغنى هؤلاء المغنون الصغار الذين نسمعهم اليوم .. كان صوته يخرج دائما من الصدر !

فقال العجوز ذلك ، وضرب صدره ضربة قوية بقبضة يده ، واردف :

ـ ما كان أعظمه من ممثل ! .. كان كالبركان .. يا الهى ، لقد كان كبركان فيزوف ! ولقد تشرفت بالاشتراك معه فى تمثيل الاوبرا التى ألفها الاستاذ العظيم روسينى .. اوبرا « عطيل » .. كان جارسيا يمثل دور عطيل ، وكنت أنا امثل دور ياجو .. فكان حين يلفظ هذه الجملة .. (وهنا اتخذ بانتاليون موقف المغنى ، واخذ يردد بيتين من شعر

« عطيل » بالايطالية ، بصوت مرتعش أجش ، لكنه مؤثر !) .. كان المسرح يهتز تحته .. ياالهى ! .. ولم أكن انا لأتخلف عنه .. كنت اردد بعـده : (وهنا انشـد بيتين آخرين من أبيات « عطيل » ، بالايطالية) .. وفجأة ، وبسرعة البرق ، وكنمر كاسر ، كان يصيح : الانتقام ! .. الانتقام ! .. أو حين كان يغنى .. حين كان يغنى اللحن المشهور «الزواج السرى» .. يا له من رجل عظيم ! .. جارسيا .. اسمعوا كيف كان يغنى ، اسمعوا كم كان غناؤه رائعا !

واخـذ العجوز يغنى مقطعا شـديد التعقيد ، لكنه ما ان وصل الى النغمة العاشرة حتى توقف عن الغناء ، وسـعل ، ثم قال وهو يحرك يده حركة تعبر عن اليأس :

ـ لماذا تعذبوننى هذا العذاب ؟

فصـفقت جيما تصـفيقا قويا ، وهتفت : « مـرحى .. مرحى .. »

ثم أسرعت الى « ياجو » المسكين ، وربتت على كتفه بكلتا يديها متوددة .. وكان ايميليو وحده هو الذى يضـحك بلا تحرج ؛ فان هذه السن لا تعرف الرحمة . وأراد سـانين أن يواسى المغنى العجوز ، فحاول أن يكلمه بلغته الايطالية .. وكان سانين قد تعلم بضع كلمات ايطالية أثناء رحلته الاخيرة الى ايطاليا . فأخذ يتحدث عن بلد « دانتى » التى يجيـد فيها المغنون الغناء » (قالها بالايطالية) . وكانت تلك الجملة مع هذا البيت المشهور من أبيات الشعر : « قد فقدت الآمال والافراح » كل ما يملـكه السائح الشاب من زاد شـعرى ايطالى !

لـكن بانتاليون ماكان ليكترث بتلك الملاطفات ، بل أغرق ذقنه فى ربطة عنقه ، وأخـذت عينـاه الحانقتان تدوران ، فصار وجهه اشبه بوجه الطائر الاشعث ، اكثر من اى وقت

مضى ، الا انه كان يشبه فى هذه المرة وجه طائر خبيث ، لعله وجه أحـد الغربان . واذ ذاك قال ايمليو ، الذى كان يعلو وجهه الاحمرار فى كل مناسبة ولغير ما سبب ، على نحوما يحـدث عادة للأطفال المدللين ، يخاطب أخته : « اذا كنت تريدين أن تسلى الضيف حقا ، فما عليك الا أن تقرئى عليه أحدى كوميديات مالتس التى تجيدين تلاوتها أيما اجادة ، اذ ليس ثمة شىء خير منها ! »

فانفجرت جيما ضاحكة ، ولطمت يد أخيها لطمة خفيفة ، وقالت له : « ان لك أفكارا عجيبة دائما ! » .. ومع ذلك ، فانها لم تلبث أن قامت الى غرفتها ، ثم عادت بعد قليل وفى يدها كتاب صغير . وجلست الى المنضـدة أمام المصـباح ، ونظرت حولها ، ثم رفعت اصبعها كأنها تقول : « صمتا ايها السادة ! » وأخذت تقرأ بصوت عال .

- ٧ -

كان « مالتس » كاتبـا محليا من (فرنـكفورت) ، أجاد تصوير نماذج انسـانية ، باسلوب فـكاهى حتى وان يـكن سطحيا ، فى سلسلة من الـكوميديات الخفيفة ، كتبها باللغة العامية . . والحق أن جيما كانت تجيد القراءة اجادة رائعة ، حتى لقد كانت تبدو ممثلة كوميدية بارعة . فكانت تضفى على كل دور بلونه ، وتبرز طباع الشخصيات ابرازا مدهشا . ولقد ورثت فى دمها الايطالى ما يملكه هذا الشعب من قدرة على التعبير بحركات الوجه . وكانت تستخدم صوتها العذب وملامح وجهها فى آن واحد ، فاذا كان عليها أن تمثل عجوزا مجنونة أو عمدة غبيـا ، قبضت خدها ، وشـدت عينيها ، ونفخت منخريها ، وجعلت صـوتها يزمجر ، وأخرجت الراء من حلقها . وكانت لا تضحك وهى تقرأ ، حتى اذا فاجأها

سامعوها – عدا بانتاليون الذى خرج من الغرفة منذ تقررت قراءة تلك الاشياء التافهة – بضحكاتهم المدوية ، تركت كتابها ينزلق على ركبتيها ، وردت رأسها الى وراء ، واطلقت ضحكة رنانة ، كانت تهز قرطيها على جيدها وكتفها . فاذا هدأ ضحك السامعين ، عادت فتناولت كتابها ، واستأنفت قراءتها مرة أخرى فى جد !

وكان سانين لا يكل من الاعجاب بتلك القارئة البارعة ، وكان لا يفتأ يتساءل كيف يستطيع هذا الوجه ، الذى بلغ هذا المبلغ من الجمال ، أن يتبدل تماما ، فيصطنع تعبيرا يصل الى هذه الدرجة من الهزل ، بل ومن الابتذال فى بعض الاحيان . وكانت جيما لا تصيب ذلك النجاح كله فى أدوار الفتيات ، وأدوار « الفتاة الاولى » ، ومشاهد الحب بوجه خاص . فكانت تخفى تقصيرها تحت قناع من السخرية الخفيفة ، كأنها لا تؤمن بتلك الوعود العاطفية ، والالفاظ الملتهبة ، التى كان المؤلف يقتصد فيها على كل حال .

وانقضت السهرة سراعا ، حتى أن سانين لم يتذكر أنه كان عليه أن يسافر فى ذلك المساء نفسه الا حين دقت الساعة العاشرة . فقفز عن كرسيه كمن لسعته أفعى . فسألته السيدة لينور :

– ماذا بك ؟

فأجاب :

– على أن أسافر هذا المساء الى برلين ، وقد حجزت مكانا فى العربة .

– متى تتحرك العربة ؟

– فى العاشرة والنصف .

وقالت جيما :

ـ ستصل اذن بعد فوات الاوان ، فابق بعض الوقت ، وسأتم قراءتي .

وسألته لينور :

ـ هل دفعت ثمن التذكرة كاملا ، أم دفعت عربونا فحسب ؟

ـ دفعت ثمن التذكرة كاملا .

قال سانين ذلك ، وقد اكتسى وجهه بمسحة ألم .

فنظرت اليه جيما وهى تطرف بعينيها ، ثم أطلقت من صدرها ضحكة ، فأنبتها أمها قائلة :

ـ ما هذا ؟ أيضيع الشاب ماله ، ثم تضحكين ؟ !

فقالت جيما :

ـ ليس هذا أمرا ذا بال .. فهذا المبلغ الذى ضاع ، لن « يضلع » السيد سانين . وسنحاول أن نواسيه .. هل لك فى كأس من عصير الليمون ؟

وتناول سانين كأسا من عصير الليمون . واستأنفت جيما قراءتها ، وعاد المرح الى الحفل . فلما انتصف الليل ، نهض سانين لينصرف . فقالت له جيما :

ـ عليك أن تبقى بضعة أيام فى فرنكفورت ، ففيم الاسراع فى الرحيل ؟ ستأنس هنا مثلما تأنس فى أى مكان آخر !

وصمتت ، ثم قالت مبتسمة :

ـ أؤكد لك أنك ستأنس هنا اكثر مما تأنس فى أى مكان آخر !

ولم يجب سانين بشىء ، لكنه تذكر أن محفظته كانت خاوية ، وأن عليه أن يبقى فى (فرنكفورت) لينتظر رسالة من صديق له فى برلين قد يقترض منه بعض المال . وقالت له لينور ، بدورها :

ـ **ابق معنا فترة من الوقت .. وستتعرف الى السيد**

كارل كلوبر خطيب جيما .. انه لم يستطع أن يجيء هذا المساء ، لأنه مشغول بأعمال كثيرة فى مخزنه . هل لاحظت محل (الزايل) ، ذلك المخزن الكبير الذى يبيع أنواع الصوف والحرير ؟ .. ان السيد كلوبر هو مدير البائعين فى ذلك المخزن ، وسيسعده كثيرا أن يعرفك !

ولم يفهم سانين نفسه ، لماذا صعقه هذا النبأ . وقال بينه وبين نفسه : « ياله من خطيب سعيد ! » ثم نظر الى جيما ، فلاح له فى عينى الفتاة تعبير ساخر..واستأذن مدام روزيلى وابنتها فى الانصراف . وسألته الام قائلة :

ـ الى الغد ، أليس كذلك ؟ ستأتى غدا ؟ أليس كذلك ؟

ورددت جيما ، تقول بلهجة التأكيد ، كأن ذلك أمر مفروغ منه :

ـ الى الغد !

فأجاب سانين :

ـ الى الغد .

ورافقه ايمليو وبانتاليون والكلب تارتاجليا حتى وصل الى ركن الشارع . ولم يستطع بانتاليون أن يمنع نفسه عن اظهار استيائه من قراءة جيما ، فقال : « كيف لا تخجل .. كيف لا تستحى من ان تتلوى على هذا النحو ، وأن تطلق هذا الصراخ ؛ وكأنها رسم كاريكاتورى . وكان ينبغى لها أن تمثل دور ميروب ، أو دور كليتمنستر ؛ أو دور أية شخصية تراجيدية عظيمة .. ولكنها تؤثر على ذلك أدوارا المانية سخيفة .. كل الناس يستطيعون ان يفعلوا هذا .. ميرتز ، كرتز ، شبيرتز .. ! ونطق تلك الكلمات بصوت غاضب ، وهو يقدم ذقنه ويطقطق أصابعه . فنبح تجاهه تارتاجليا ، بينما كان ايمليو يضحك . واستدار العجوز فجأة ، وعاد أدراجه .

أما سانين فقد عاد الى فندق (البجعة البيضاء) ، وقد تملكه بعض الاضطراب .. لقد كان ذلك الحديث الايطالى الفرنسى الالمانى ما يزال يطن فى أذنيه .. وقال لنفسه حين رقد فى غرفته المتواضعة بالفندق : « اذن فهى مخطوبة .. يا لها من فتاة رائعة ! ولكن ، لماذا لم أسافر ؟ » . ومع ذلك، فقد أرسل فى اليوم التالى رسالة الى صديقه فى برلين !

– ٨ –

قبل أن يفرغ سانين من ارتداء ملابسه ، جاءه خادم الفندق لينبئه بأن سيدين قد أتيا لزيارته .. وكان أحدهما هو ايمليو ، والثانى شابا طويل القامة ، أنيق الهندام ، مصفف الشعر .. كان السيد « كارل كلوبر » ، خطيب جيما الفاتنة !

ولم يكن من الميسور على المرء أن يجد فى أى مكان بفرنكفورت مديرا للبيع يفوق السيد كلوبر أدبا ، وحسن مظهر ، وكمال رصانة ، وحلاوة منظر ، وكان هندامه الجميل المنسجم مع رزانته ، ورقة حاشيته التى لا تخلو مع ذلك من شىء من التحفظ والفتور — على ما يعهد فى الانجليز ، فلقد أقام فى انجلترا سنتين — يضفيان عليه رشاقة بديعة وأناقة أخاذة. وكان المرء يدرك فى الحال أن ذلك الفتى الجميل ، الرصين ، المهذب ، المنظم ، قد تعود أن يطيع أوامر رؤسائه ، وأن يصدرها بدوره الى مرؤوسيه. .أما أمانته الدقيقة ، فلم يكن يتطرق اليها الشك قط .. وكان صوته ينسجم مع جملة كيانه ، وكان صوتا رزينا هادئا عذبا ، ولم يكن ليرتفع ، بل كان لرنينه نغم حلو .. كان من ذلك الطراز الذى يناسب اصدار الاوامر الى العمال والموظفين !

وبدأ السيد كلوبر بتقديم نفسه لسانين ، وفقا لجميع

الاصول والقواعد المتبعة ، فقد حنى قامته فى كثير من الرفعة والنبالة ، وقرب ما بين ساقيه فى رشاقة ، ثم ضم كعبى حذائيه أحدهما الى الآخر فى أدب بلغ من الرقة والفتنة أن المرء لم يكن يسعه ازاء ذلك كله الا يهتف قائلا بينه وبين نفسه : « يا لهذا الفتى ! .. ما أجمل ملابسه ، وما أرفع مزاياه ! » .. وكانت أناقة يده اليمنى التى نضى عنها قفازها (وكانت يده اليسرى المرتدية قفازا من السويد تمسك بقبعته، الملساء كأنها مرآة ، وفى داخلها القفاز الآخر) والتى مدها الى سانين فى تواضع ، ولكن فى حزم وقوة ، تفوق كل ثناء .. لقد كان كل ظفر من أظافرها عملا فنيا قائما بذاته !

وقال السيد كلوبر ، بلغة ألمانية صميمة ، أنه جاء يقدم احترامه ، ويعبر عن شكره للسيد الغريب الذى أسدى الى قريبه ـ شقيق خطيبته ـ خدمة جليلة .. قال هذا الكلام وهو يشير بيده اليسرى الى ايميليو الذى احمر وجهه خجلا، واستدار الى جهة النافذة واضعا اصبعه فى فمه .. واضاف السيد كلوبر الى ذلك مؤكدا بأنه يسعده أن يستطيع تقديم اية خدمة يحتاجها السيد الغريب . فأجاب سانين فى شىء من الاضطراب والتعثر ، وباللغة الالمانية ، بأنه سعيد جدا لذلك ، وان تكن الخدمة التى قدمها ليس لها شأن يذكر ! .. ثم دعا ضيفه الى الجلوس . فشكر له السيد كلوبر لطفه ، ثم رفع أطراف بذلته الرسمية فى رشاقة ، وجلس على أحد المقاعد ، لكنه لم يجلس جلسة مريحة ، بل استند الى المقعد بطرف جسمه ، فكان واضحا من ذلك أنه لم يجلس الا من قبيل التأدب ، وأنه يهم بأن ينهض بعد لحظة وجيزة .

ولم يلبث الضيف أن قام ، فخطا خطوتين الى وراء فى

تواضع ، كما يفعل الراقص حين يتقهقر الى الخلف ، وقال انه لا يستطيع أن يطيل زيارته وان ذلك يؤسفه كثيرا ، لأن موعد ذهابه الى المتجر قد حان .. وأضاف انه قد أعد ، بالاتفاق مع السيدة ليونور والآنسة جيما ـ نظرا لأن اليوم التالى كان يوم الاحد ـ نزهة فى (سودن) ، وانه يسعده أن يدعو السيد الغريب الى الانضمام اليهم فى هذه النزهة ، ويأمل الا يرفض السيد سانين تشريف النزهة بحضوره .

وقبل سانين دعوة ضيفه . ولم يلبث السيد كلوبر أن حيا سانين مرة ثانيــة وفقا لقواعد الادب ، ثم انسـحب فى رشاقة، مختالا فىسروأله الذى كان فىلون البسلة الخضراء ؛ قارعا نعليه أحدهما بالآخر قرعا جميلا !

- ٩ -

ظل ايمليو واقفـا ، رغم أن سـانين كان قـد دعـاه الى الجلوس ، وكان ملتفتا نحو النافذة . فلما ذهب صهره ، جعـل يدور على عقبيه ، ويقبض وجهه كما يفعل الاطفال ، ثم سأل سـانين أن يأذن له بالبقاء ، وقـد أحمر وجهه من الخجل . وأضاف يقول :

ـ لقد تحسنت صحتى اليوم كثيرا ، لكن الطبيب ما يزال يمنعنى من العمل .

فأسرع سانين يقول له :

ـ ابق معى .. انك لا تضايقنى البتة !

والحق أن سانين قد سره كثيرا ـ من حيث هو روسى ـ أن يجد ذريعة تعفيه من أن يعمل شيئا . فشكر له ايمليو ذلك ، وما هى الا دقائق حتى كان الفتى يشـعر ، وهو فى غرفة سانين ، أنه فى بيته .. وأخذ يفحص جميع اشـياء

المسافر الغريب ، ويسأله عن كل منها ما مصدره وما نوعه ..ثم ساعده على حلاقة ذقنه، وحمله على اطلاق شاربيه . وراح يفيض فى الكلام ، فأفضى الى صديقه الجديد بتفاصيل كثيرةعن أمه، وأخته، وبانتاليون ، وحتى عن الكلب تارتاجليا، ووصف له على الجملة حياتهم جميعا !

ولم يلبث أن زال كل أثر من آثار الخجل فى ايمليو ، فبدأ يشعر بحب شديد نحو سانين ، لا لأن الشاب الروسى قد أنقذ حياته فى الليلة السابقة ، بل لأن الفتى قد افتبن به أشد الافتتان ، فكان يحس برغبة قوية تدفعه الى البوح بأسراره الى صديقه الجديد . فاعترف له بأن أمه تهيؤه للعمل بالتجارة ، مع انه يعلم حق العلم انه خلق ليكون فنانا ، وليصبح موسيقيا ومغنيا ، وانه مؤهل بمواهبه للمسرح. أما الدليل على ذلك فهو أن بانتاليون كان يشجعه على سلوك هذا الطريق . ومما يؤسفه أن السيد كلوبر يرى رأى أمه ، وان له على أمه سلطانا قويا. فهو الذى أوحى الى السيدة روزيلى أن تقحم ابنها فى التجارة ، لانه — وهو البائع — لايرى شيئا أروع من التجارة .. كما أن مثله الاعلى هو أن يبيع المرء صوفا وقطيفة ، وأن يخدع الزبون ، ويطلب منه « اسعارا خيالية » !!

فما أن انتهى سانين من ارتداء ملابسه ، وكتابة رسالته الى صديقه ببرلين ، حتى هتف ايمليو يقول :

— والآن تحضر عندنا ، أليس كذلك ؟

فقال سانين معترضا :

— ما يقوم أحد بزيارة فى مثل هذا الوقت المبكر !

فاستطرد ايمليو يقول بلهجة مدللة :

— بل لا بأس فى هذا .. تعالى معى .. لنذهب أولا الى البريد ، ثم نعد الى بيتنا .. ان جيما سيسرها هذا كثيرا

.. ستتناول افطارك معنا ، وستستطيع أن تحدث أمى فى أمرى ، بصدد ما أريد أن أقف عليه نفسى من عمل فنى ..

فقال سانين :

ـ حسنا ، فلنذهب !

وخرجا من الفندق معا .

- ١٠ -

سرت جيما كثيرا لرؤية سانين مرة أخرى ، واستقبلته السيدة ليونور بكثير من المودة والترحيب . **فكان واضحا أنه ترك فى نفس المرأتين أثرا طيبا منذ الليلة البارحة ..** وأسرع ايمليو يوصى باحضار طعام الافطار ، بعد ان ذكر سانين مرة ثانية بالوعد الذى قطعه على نفسه ، وهو أن يدافع عن قضيته أمام أمه . فقال سانين للفتى :

ـ لن أنسى ذلك .. اطمئن !

وكانت صحة السيدة ليونور متوعكة بعض الشىء ، اذ كانت تشكو من صداع فى رأسها ، مما جعلها تستلقى على المقعد ، محاولة الا تاتى بأية حركة .. وكانت جيما ترتدى قميصا أصفر واسعا ، يشده حزام من جلد أسود . وكان يبدو عليها أنها متعبة قليلا هى الاخرى . فقد كانت شاحبة الوجه ، وكانت تحوط بعينيها هالتان سوداوان . لكن الهالتين لم تستطيعا أن تجردا العينين من بريقهما ، بل أن الشحوب الخفيف كان يضفى على الملامح القاسية فى وجه الفتاة الايطالية سحرا غامضا.على أن الشىء الذى استوقف بصر سانين ـ فى هذه المرة ـ كان جمال يدى الفتاة .. فحين كانت تعدل أو ترفع قرطيها الاسودين اللامعين ، لم يكن سانين ليستطيع أن ينتزع نظراته من تلك الاصابع اللينة

الطويلة المتباعدة ، التى كانت أشبه باصابع « فورناريس » التى صورها « رافائيل » !

وكان الجو فى الخارج شديد القيظ . فلما فرغوا من الطعام ، أراد سانين أن يمضى ، لكن أصحاب المنزل قالوا له ان من الخير للمرء الا يتحرك من مكانه فى مثل هذا الجو الحار . فبقى ، ولم ينصرف .. وكان الجو فى الصالون الخلفى الذى جلس فيه سانين مع أسرة روزيلى رطبا منعشا ، فقد كانت النوافذ تطل على حديقة صغيرة مزروعة بأشجار الاكاسيا ، وكان النحل يدندن أسرابا بين أغصان الاشجار الكثيفة ذات الازهار الذهبية ، فكانت دندنته التى لا تنقطع تنفذ الى الغرفة من خلال المصاريع المشقوقة والستائر المسدلة ، كأنها صوت الحرارة فى الخارج ، فكانت طراوة الغرفة المغلقة المريحة تبدو اكثر انعاشا ومتعة !

وقد اسهب سانين فى الحديث ، كالليلة السابقة ، لكن حديثه لم يدر فى هذه المرة حول روسيا أو الحياة الروسية . ذلك انه ، وقد اراد أن يخدم صديقه الفتى ـ الذى كان قد بعث به بعد الافطار الى السيد كلوبر ليتعلم فى متجره فن مسك الدفاتر ـ قد حرص على تركيز كلامه فى مزايا كل من التجارة والفن . ولم يدهشه أن رأى السيدة ليونور تؤثر التجارة على الفن ، فذلك أمر كان يتوقعه ، لكن الذى أثار دهشته هو أن جيما كانت تشارك أمها الرأى . فقد قالت الفتاة وهى ترفع يدها بحركة عنيفة :

ــ من أراد أن يصبح فنانا ــ وموسيقيا بوجه خاص ــ عليه أن يحتل المكانة الاولى .. أما أن يكون فى المقام الثانى ، فذلك أمر لا قيمة له .. ولكن ، انى للمرء أن يعرف انه قادر على أن يحتل المكان الاول ؟ !

وما لبث بانتاليون أن اشترك فى الحديث ، فأعلن أنه من انصار الفن . وكانت حججه واهية ـ والحق يقال ـ فانه لم يزد على أن قرر ان أهم شيء هو أن يؤتى المرء شعلة الالهام .. ثم تدخلت السيدة ليونور فى الحديث ، فقالت :

ـ لا شك فى أن بانتاليون كان قد أوتى هذه الشعلة ، ومع ذلك ..

فأجاب بانتاليون يقول فى أسى :

ـ لقد كان لى أعداء كثيرون !

ـ وانى لك أن تعرف أن ايميليو لن يكون له أعداء هو الآخر ، وان يكن قد أوتى هذه الشعلة !

فقال بانتاليون فى حسرة :

ـ فاجعلى منه تاجرا اذن . لكننى أؤكد لك ان جيوفانى باتستا ما كان له أن يفعل هذا لو كان حيا ، رغم أنه كان هو نفسه صاحب متجر للحلوى

ـ لقد كان زوجى جيوفانى باتستا رجلا عاقلا ، وان انزلق أثناء شبابه فى بعض الامور

ولم يشأ بانتاليون أن يمضى فى الحديث اكثر من ذلك ، فخرج من الغرفة وهو يردد بلهجة عاتبة : « رحمة الله عليك يا جيوفانى باتستا ! » . واذ ذاك هتفت جيما :

ـ لو أن ايميليو كان يشعر فى قلبه بالنزعة الوطنية ، ويحرص على أن يقف جميع جهوده على انقاذ ايطاليا ، اذن لكانت هذه المهمة المقدسة تستحق منه ان يغامر بمستقبله . أما فى سبيل المسرح ، فلا .. ! »

فلما سمعت السيدة ليونور هذا الكلام ، استبد بها القلق ، فتوسلت الى ابنتها الا تضلل اخاها ، وحسبها ان

تكون هى من أنصار الجمهورية .. وما ان قالت السيدة ليونور هذا الكلام ، حتى أخذت تتأوه ، وتشكو من صداع حاد يسبب لها الما لا يحتمل . فأسرعت جيما تعنى بأمها ، فراحت تبلل جبينها بماء الكولونيا ، وتمسحه بانفاسها ببطء ثم قبلت خديها فى رفق، ووضعت رأسها على الوسادة ، بعد أن منعتها من الكلام ، وعاودت تقبيلها . ثم التفتت نحو سانين ، وأخذت تثنى على أمها بصوت يختلط فيه الانفعال بالمزاح ، قائلة :

- ليتك تعلم كم هى طيبة ، وكم كانت جميلة ! .. ماذا أقول ؟ انها ما تزال جميلة ، أنظر الى عينيها !

قالت جيما ذلك ، واخرجت من جيبها منديلا أبيض ، غطت به وجه أمها ، ثم أخذت تهبط به شيئا فشيئا ، حتى كشف عن الجبين ، فالحاجبين ، فالعينين ، واذ ذاك رجت أمها أن تفتح عينيها . فأطاعتها السيدة ليونور ، فلم تتمالك جيما من أن تطلق صيحة اعجاب .. والحق أن عينى السيدة ليونور كانتا فاتنتين فعلا . غير ان الفتاة تركت المنديل الابيض يخفى الجزء الاسفل من وجه أمها - اذ كان أقل تناسقا من القسم الاعلى - وراحت تغرق أمها بالقبل مرة اخرى .

فكانت مدام روزيلى تنفجر ضاحكة ، وتشيح بوجهها ، متظاهرة بأنها تريد أن تدفع ابنتها عنها . **وكانت جيما ، من جهتها ، تتظاهر بأنها تغالب أمها ، لا بمداعبات خفيفة على غرار ما يفعله الفرنسيون ، وانما بتلك الرشاقة الايطالية التى تفيض قوة ونشاطا !**

على أن السيدة ليونور اعلنت أخيرا انها بدأت تحس بالتعب . فنصحتها جيما بأن تغفو فى مقعدها ، ووعدتها بأن تلتزم هى والسيد الروسى السكينة التامة اثناء قيلولتها .

فأجابتها السيدة ليونور بابتسامة ، ثم تنهدت قليلا، وراحت فى سبات .. وجلست جيما على مقعد صغير قرب أمها ، وظلت ساكنة لا تتحرك . وكانت كلما لاحظت أن سانين يهم بأن يأتى بادنى حركة ، بين الحين والآخر ، وضعت اصبع احدى يديها على فمها ، بينما طفقت تسند باليد الاخرى الوسادة وراء رأس أمها ، وتهمس بصوت لا يكاد يسمع ببضع كلمات ، وهى تنظر الى سانين من طرف عينيها .. وما لبث سانين أن اخلد الى السكينة هو الآخر ، حتى لبدا وكأنه قد نوم تنويما مغناطيسيا . وراح يعجب من اعماق نفسه بتلك اللوحة الرائعة : غرفة معتمة قليلا ، وأزهار نضرة جميلة مبعثرة هنا وهناك وكأنها نقاط حمراء متقدة ، وقد استقرت فى آنية قديمة خضراء اللون ، وهذه المرأة المستلقية الثانية يديها فى وقار بالغ ، ووجهها الطيب يحف به فى اطار جميل بياض الوسادة الناصع كالجليد، واخيرا هذه المخلوقة الشابة التى تحنو عليها بكل ما فى قلبها من عطف وحب ، فى حنان ما بعده من حنان ، وطهر يمس شغاف القلوب ، وقد اشرق وجهها بفتنة تجل عن الوصف ، وعينين سوداوين ، عميقتين ، مليئتين بالظلال ، وتشعان — مع ذلك — بريقا ولمعانا .. وتساءل سانين : أين انا ؟ .. أهذا حلم ؟ .. أهى قصة خرافية ؟ .. ما الذى جاء بى الى هنا ؟

— ١١ —

دق جرس الباب ، ودلف الى الحانوت فلاح ، يرتدى صديرية حمراء وقبعة من الفراء . وكان اول عميل يفد الى الحانوت فى ذلك اليوم .. وكانت السيدة ليونور ما تزال نائمة، وكانت جيما تخشى أن توقظها اذا هى سحبت ذراعها . فقالت للشاب الروسى بصوت خافت :

ـ هل لك ان تستقبل العميل عنى ؟

فخرج سانين من الغرفة على أطراف أصابعه ، وتوجه الى الحانوت .. وكان الفلاح فى حاجة الى ربع كيلو من مكسرات النعناع ، فعاد سانين الى جيما ، وسألها من خلال شق الباب بصوت خافت :

ـ كم يجب أن آخذ منه ؟

فقالت له جيما هامسة :

ـ ستة قروش !

وبعد أن وزن سانين ربع كيلو المكسرات ، أخذ يبحث عن ورقة ليفلف بها البضاعة حتى وجدها ، فصنع منها كيساً ، وضع فيه المكسرات ، فكانت تتناثر منه هنا وهناك ، لكنه استطاع اخيراً ، فى كثير من العناء ، أن يدخلها فى الكيس ، ثم دفع بها الى المشترى ، وقبض منه الثمن . وكان الرجل ينظر الى سانين فى ذهول ، وقد راح يدير قبعته فوق صدره ، بينما كانت جيما ، فى الغرفة المجاورة ، تضع يدها على فمها لتخنق ضحكها العنيف .. وما ان خرج العميل ، حتى دخل ثان ، فثالث ، فقال سانين لنفسه : « لا شك اننى محظوظ !» . وقدطلب المشترى الثانى قدحا من شراب اللوز ، على حين طلب الثالث نصف كيلو من المكسرات . واستطاع سانين أن يلبى رغبات جميع العملاء ، فكان يدير الملاعق فى الاقداح بقوة ، ويهز الاطباق ، ويخرج الفطائر الجافة وقطع الحلوى من الاوانى والعلب فى كثير من الهمة والحماسة . فلما حسب النقود بعد ذلك ، أدرك أنه باع شراب اللوز بأقل من سعره ، وانه باع الحلوى أغلى من ثمنها بقرشين .. وكانت جيما ما تزال تضحك ، وكان سانين نفسه يشعر بمرح لا عهد له بمثله من قبل ، ويحس بسعادة غامرة ، حتى

لقد خيل اليه أنه يتمنى لو عاش حياته كلها فى الحانوت يبيع الحلوى وشراب اللوز ، بينما ترنو اليه تلك الفتاة الجميلة بعينين ماكرتين فى مودة وصداقة ، وتنفذ شمس الصيف من خلال أوراق الاشجار الكثيفة ، فتملأ الغرفة باشعتها الذهبية المائلة الى الخضرة ، فيذوب قلبه من نشوة الخمول ، والاسترخاء ، والحب !

وطلب العميل الرابع قدحا من القهوة . فكان لا بد لسانين فى هذه المرة من ان يلجأ الى بانتاليون ، فسأله أن يلبى طلب الرجل، ثم مضى هو الى مكانه قرب جيما. وكانت السيدة ليونور ما تزال نائمة ، وكانت ابنتها مرتاحة لنومها ، حتى لقد قالت لسانين :

ـ حين تنام أمى ، يزول صداعها فورا !

وعاد سانين يتحدث عن « تجارته » بصوت خفيض ، فسأل عن أسعار البضاعة فى جد واهتمام ، فكانت جيما ترد على أسئلته بهذه اللهجة نفسها ، على انهما كانا ـ مع ذلك ـ يحسان فى قرارة نفسيهما أنهما يمثلان دورا من الادوار .. وفجأة دوى فى الشارع صوت أرغن يعزف عليه لحن « فرايشواتز » .. « من خلال الجبال ، من خلال السهول» ، وانبعث هادرا مزمجرا ، فى الجو الساكن الهادىء. فانتفضت جيما . وقالت : « ان هذه الموسيقى ستوقظ أمى ! » . فهرع سانين الى الشارع ، ودفع بحفنة من النقود الى عازف الارغن ، ثم رجاه أن يبتعد عن المكان . فلما عاد الى الغرفة ، شكرته جيما بايماءة خفيفة من رأسها ، واخذت ـ وهى تبتسم ابتسامة ساهمة ـ تدندن هى نفسها لحن « فيبر » العذب الذى يعبر فيه « ماكس » عن شكوى الحب الاول . ثم سألت سانين ما اذا كان يعزف لحن

فرايشوتز ، ويحب فيبر ، ولم تنتظر جوابه بل أضافت انها تؤثر هذه الموسيقى على كل ماعداها ، رغم كونها ايطالية !

وانتقل الحديث بعد ذلك من الموسيقى الى الشعر ، الى الرومانسية ، ثم الى قصص «هوفمان» التى كانت رائجة فى ذلك الوقت .. وكانت السيدة ليونور ما تزال نائمة ، حتى لقد كانت تغط قليلا فى نومها ، بينما كانت الاشعة ، التى تتسلل من خلال النافذة حزما ضيقة مائلة ، تتحرك بلا انقطاع ، ملامسة أرض الغرفة ، وقطع الاثاث ، وثوب جيما ، وأوراق الازهار !

- ١٢ -

لم تكن جيما مشغوفة بحكايات « هوفمان » ، بل كانت تراها سخيفة مضجرة . فقد كانت طبيعتها الواضحة التى هى من طبيعة أبناء الجنوب ، تنفر من ذلك الجانب الغامض الخيالى الذى تتميز به هذه القصص . فكانت تقول فى شىء من الازدراء : « ان هذه الحكايات لا تصلح الا للأطفال ! » .. وكانت تصف المؤلف بأن آثاره يعوزها الشعر . غير أن قصة واحدة من قصصه كانت تعجبها كثيرا ، وخاصة بدايتها ، اذ انها كانت قد نسيت الخاتمة ، ولعلها لم تكن قد قرأتها أصلا .. أنها قصة فتى يلتقى عرضا – ربما فى متجر للحلوى – بفتاة يونانية باهرة الجمال، كان يصحبها عجوز غريب يكتنفه الغموض والابهام . **فما ان وقع بصر الفتى على الفتاة حتى أحبها ، ونظرت هى اليه نظرة متوسلة مستعطفة ، كأنها تسأله أن ينقذها ..**

وخرج الفتى بضع لحظات ، فلما عاد وجد أن الفتاة والعجوز قداختفيا ، فهرع فى اثرهما يحاول أن يلحق بهما ، لكن جميع جهوده ذهبت ادراج الرياح ، فلم يعثر لهما على أثر . لقد أضاع الفتاة الى الابد !.. بيد انه لم يستطع

أن ينسى قط نظرتها المتوسلة الضارعة ، فظلت الحسرة تهصر قلبه والندم يشمل كيانه لتركه سعادة حياته كلها تفر من بين يديه .. على ان خاتمة القصة التى كتبها هوفمان لم تنته على النحو الذى روته الفتاة ، لكن ذلك ما بقى منقوشا منها فى ذاكرة جيما .. واستطردت جيما تقول : «يخيل الى أن مثل هذا اللقاء والفراق ، يقعان فى الحياة اكثر مما نظن .. » ولم يجب سانين على ملاحظتها بشىء ، لكنه ما لبث أن نقل الحديث الى الكلام عن السيد كلوبر !

وكانت تلك أول مرة يتحدث فيها عن كلوبر ، بل انه لم يتفق له من قبل أن فكر فى خطيب جيما .. ولم تجب الفتاة بشىء أيضا ، بل ظلت واجمة شاردة الذهن ، وهى تعض أظافرها عضا خفيفا ، وتغض من بصرها . ثم أخذت تثنى على خطيبها ، مشيرة الى النزهة التى رسم خطتها لليوم التالى ، لكنها عادت الى صمتها مرة أخرى ، وقد ألقت على سانين نظرة تفيض حرارة وحياة .. ولم يجد الفتى الروسى فى هذه المرة ما يقوله .. وسرعان ما دخل ايميليو الى الغرفة راكضا ، مثيرا من الصخب ما أيقظ أمه من نومها . وفرح سانين بوصول صديقه الصبى . وان هى الا لحظات حتى نهضت السيدة ليونور من مقعدها ، ثم دخل بانتاليون ليقول ان المائدة قد أعدت .. لقد كان صديقا للاسرة ، ومغنيا قديما ، وخادما .. وفضلا عن ذلك ، كان طاهيا لا يشق له غبار !

- ١٣ -

بقى سانين مع الاسرة للغداء . وما لبثوا ان تشبثوا به بعد الغداء أيضا بحجة أن الحر كان شديدا ، فلما انخفضت الحرارة ، دعوه الى الحديقة لتناول القهوة تحت ظلال أشجار الاكاسيا . وقبل سانين الدعوة على الفور ، اذ كان

يحس أن السعادة تملأ قلبه.. لقد كانت الحياة تسير اذ ذاك سيرا هادئا رائعا ، فاستسلم سانين لفتنتها سعيدا قرير العين ، ولم يطلب من اللحظة الراهنة شيئا آخر ، بل ولم يفكر فى المستقبل ، ولا ينشغل بالماضى قط . فأين عساه يجد من السحر مثلما يجده فى صحبة تلك المخلوقة التى تستحوذ على القلوب استحواذا ؟ .. لقد كان عليه أن يفارقها بعد قليل ، وأغلب الظن أنه لن يراها بعد ذلك أبدا ، فطفق يردد لنفسه ما ورد فى أغنية « أوهلاند » ، اذ يحمل الشاب والفتاة على أمواج الحياة مركب واحد : « **افرح واستمتع بالحياة ، أيها المسافر !** » .. وكان كل شىء يبدو للمسافر السعيد جميلا رائعا !

واقترحت عليه السيدة ليونور أن يتبارى معها ومع بانتاليون فى لعبة « التريزيت » ــ وهى لعبة بسيطة غير معقدة من ألعاب الورق التى يحبها الايطاليون ــ فربحت منه بعض المال ، وأحس سانين من جراء ذلك بسعادة كبيرة . وسرعان ما استجاب بانتاليون لطلب ايميليو ، فأمر كلبه تارتاجليا بتنفيذ جميع الحركات التى يعرفها ، فقفز تارتاجليا فوق عصا ، وأخذ ينبح ويعطس ، ثم أغلق الباب برأسه ، وجاء بخف سيده القديم ، ولما ألبسوه معطفا ، بدأ يمثل دور « الجنرال برنادوت » حين راح نابليون يصب عليه أقذع اللوم وأقساه لما ارتكبه من خيانة .. وكان بانتاليون هو الذى يمثل دور نابليون ، وكان فى تمثيله أمينا نوعا ما ، فقد كتف ذراعيه ، ووضع فوق عينيه قلنسوة ذات ثلاثة قرون ، وأخذ يقرع « الجنرال » باللغة الفرنسية فى غضب وحنق .. ويا لها من لغة فرنسية ، تلك التى كان يتكلمها بانتاليون ! .. وقد جلس تارتاجليا ، خافض الذيل ، أمام « امبراطوره » ، وأخذت عيناه تطرفان وجلا تحت حافة المعطف المائل ، حتى

اذا رفـع « نابليـون » صـوته بين الحين والآخر ، نهض « برنادوت » واقفا على قائمتيه الخلفيتين . وكان بانتاليون يصيح فى الكلب باللغة الايطالية : « اذهب ايها الخائن ! » ، ناسيا فى غمرة غضبه أن عليه أن يحافظ على طابعه الفرنسى .. وكان « برنادوت » يختبىء تحت الديوان ، ثم لا يلبث أن يعود وهو ينبح نباحا فرحا ، يدل على أن التمثيل قد انتهى. وكان المتفرجون يضحكون ملء اشداقهم حتى لتدمع عيونهم ، وكان سانين أكثرهم ضحكا وسعادة . وكانت لجيما ضحكة خلابة ترسلها متصلة بطيئة ، وتقطعها صيحات ضعيفة شاكية لا تخلو من حلاوة . **فكان سانين يسكر نشـوة من تلك الضحكة، حتى ليكاد يتمنى أن يغرق وجه الفتاة بالقبلات كلما سمع صرخة من صرخاتها العذبة** .. ولكن ما اسرع أن هبط الليل ، وآن للشاب أن ينصرف !

واستأذن سانين أصحابه فى الانصراف ، وراح يردد لكل منهم مكررا : « الى غد ! » . حتى انه قبل ايميليو ، وانصرف حاملا فى خياله صورة الفتاة ، ضاحكة تارة ، مطرقة هادئة أو غير مبالية تارة أخرى ، فائضة سحرا فى جميع الاحوال. وكانت عيناها اللتان تتسعان وتضيقان ، ويلمع فيهما بريق المرح كأنهما النهار ، ثم تحجبهما الاهداب وتظلمان كأنهما الليل ، ماثلتين أمامه فى كل لحظة ، وكانتا تبثان اضطرابا غريبا فى نفسه ، وتحجبان فى ذهنه كل ما عداهما من صور وافكار . بيد انه لم يتفق له قط ـ ولو مرة واحـدة ـ أن خطر بباله السيد كلوبر ، ولا الاحـداث التى كانت تحمله على البقاء فى (فرنكفورت) ، بل أن كل ما كان يشغله ويقض مضجعه فى الليلة السابقة ، قد زال من نفسه تماما !

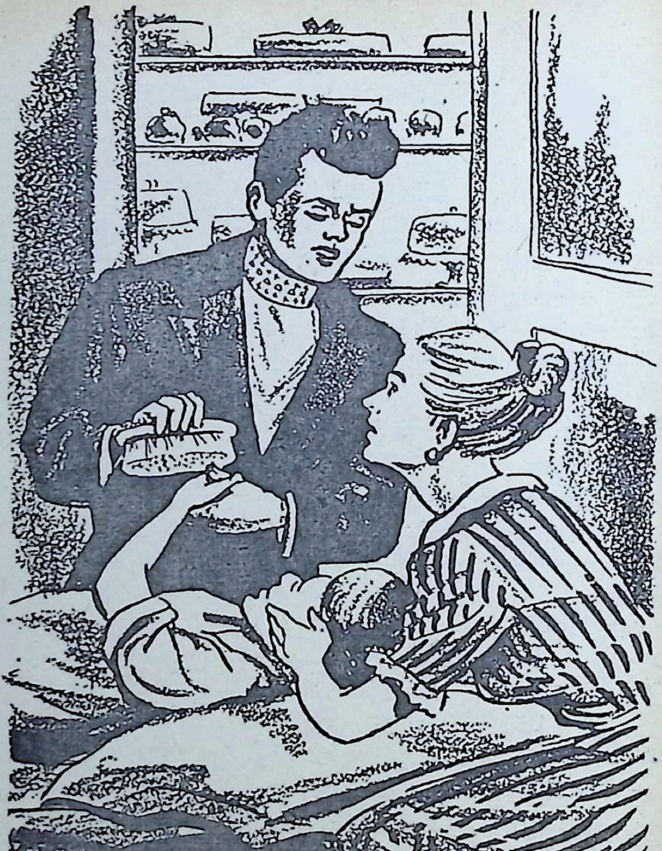

ثم تناول « سانين » الفرشاة ، وأخذ يدلك بها صدر الفتى ويديه بكل قوته (صفحة ١٣٠)

- ١٤ -

كان سانين شابا وسيما ، فارع القامة ، رشيقها ، ذا قسمات لطيفة هادئة ، وعينين ضاربتين الى الزرقة تفيضان طيبة ، وشعر ذهبى ، وبشرة بيضاء متوردة . ولعل ما كان يميزه قبل كل شىء ، هو ذلك الذى كان يتبدى على وجهه من معانى المرح الصادق المشوب بالسذاجة ، وتلك الضحكة الواثقة المشرقة التى كان يعرف بها فى الماضى — لاول وهلة — ابناء الطبقة النبيلة الصغيرة من الفلاحين الروس . وقد كان أبناء تلك الاسر من الشبان الطيبين الصالحين الذين ولدوا وترعرعوا فى حرية بين ربوع بلاد تنتشر فيها المراعى المترامية الاطراف !

وكانت لسانين مشية تنبىء عن قلق صاحبها ، وصوت يصفر قليلا ، وكان متى نظر اليه أحد ، يرد على النظرة بابتسامة أشبه بابتسامة طفل . وكان جسمه يفيض نضارة وصحة ، غير ان وجهه كان يتميز قبل كل شىء بالرقة والنعومة . **وما كان ليعوزه الذكاء ، وقد تعلم العديد من الامور ، واحتفظ بنضارة تفكيره** . أما العواطف التى كانت تقلق نفوس الصفوة من الشبيبة الروسية فى ذلك الحين ، فانها لم تجد الى نفسه سبيلا .. ولقد اخذ الروائيون الروس فى الآونة الاخيرة ، اذ أعياهم البحث عن شخصيات جديدة لمؤلفاتهم ، يصورون شبانا يتباهون قبل كل شىء بالحيوية ، لكنها حيوية أشبه ما تكون بنضارة أسماك الصدف التى يؤتى بها من (فلنسبورج) الى (بطرسبرج) .. على ان سانين لم يكن من ذلك الطراز من الشبان . وما دمنا بصدد التشبيه والمقارنة ، فلنقرر ان سانين كان كشجرة تفاح كبيرة فى بستان روسى تحرث تربته ، أو كحصان قوى فى السنة الثالثة من عمره ، قد أحسن علفه ، ورق وبره ،

وقويت ساقاه ، ولم يتم ترويضه بعد . بيد ان الذين التقوا بسانين بعد ذلك ـ وقد حطمته الحياة ، ففقد نضارة شبابه الاول ـ عرفوا فيه انسانا آخر مختلفا كل الاختلاف !

وفى صباح اليوم التالى ، كان سانين ما يزال فى فراشه ، حين دخل عليه ايمليو مرتديا ثياب يوم الاحد ، حاملا بيده عصا ، مسرفا فى التعطر . وقد أقبل مهرولا ، ولم يكد يرى صديقه حتى أخبره بأن السيد كلوبر سيصل بالعربة عما قليل ، وان الجو يبشر بأن اليوم سيكون مشرقا جميلا ، وأن كل شىء قد أعدت عدته، لكن أمه لن تستطيع مصاحبتهم فى النزهة ، لان الصداع كان قد عاودها . ثم حثه على الاسراع فى ارتداء ملابسه ، حرصا على عدم اضاعة الوقت .. وان هى الا لحظات ، حتى وصل السيد كلوبر قبل أن يفرغ سانين من زينته ، فقرع الباب ، ودخل ، وحيا سانين وقد أحنى جسمه انحناءة شديدة ، ثم أبلغه انه مستعد لان ينتظره طالما شاء ، ولم يلبث أن أخذ مكانه على أحد المقاعد، ثم وضع قبعته على ركبته فى رشاقة !

ويبدو ان صاحب المتجر ، الذى كان أنيقا مسرفا فى الاناقة ، كان قد سكب على نفسه قارورة كاملة من العطر ، حتى لقد كانت كل حركة يأتيها تبعث وراءها تيارا من العبق الناعم العذب .. وقد قدم فى عربة مكشوفة ذات أربعة مقاعد ، يجرها حصانان كبيران قويان .. ولم ينقض ربع ساعة ، حتى كان سانين وكلوبر وايمليو يصلون مهللين أمام رصيف متجر الحلوى . وقد رفضت السيدة روزيلى فى اصرار أن تشترك معهم فى النزهة . فلما ارادت جيما أن تبقى معها ، دفعتها أمها الى الخارج عنوة ، وقالت لها :

ـ لست فى حاجة الى أحد يبقى معى ، فاننى أريد أن أنام

.. وقد كنت أود لو ارسلت معكم بانتاليون ، لولا انه يتحتم وجود أحد بالمتجر !

وسأل ايمليو والدته :

ـ هل نستطيع أن نأخذ تارتاجليا معنا ؟

ـ طبعا يا بنى !

وقفز تارتاجليا فورا وهو يثب من الفرح ، فجلس على المقعد الى جانب الحوذى ، واخذ يلعق شفتيه، فكان واضحا انه قد اعتاد مثل هذه النزهات .. وكانت جيما تضع على راسها قبعة من القش مزدانة بشرائط بلون القرفة ، وكانت حافة القبعة تنثنى على الجبهة لتحمى الوجه كله من الشمس ، فكان الظل ينتهى عند الشفتين اللتين كانتا تصطبغان بحمرة محببة، وكأنهما بعض أوراق احدى الزهور، بينما كانت أسنانها ترسل بريقا غامضا ، فى براءة كبراءة الاطفال . وجلست جيما فى مؤخرة العربة مع سانين ، على حين أخذ كلوبر وايمليو مكانهما وجها لوجه أمامهما . وقد ظهر وجه السيدة ليونور شاحبا فى النافذة ، فلوحت لها جيما بمنديلها ، وانطلق الجوادان بالعربة !

ـ ١٥ ـ

(**سودن**) مدينة صغيرة فى ضواحى (فرنكفورت) ، تقع فى مكان جميل عند سفح أحد فروع جبل (تاونوس) ، وقد اشتهرت فى روسيا بمياهها التى يقال انها تفيد من يشكو ضعفا فى الرئة .. ويذهب سكان فرنكفورت الى (سودن) التماسا للتسلية . ففيها حديقة جميلة غناء ، وفيها مقاصف شتى يستطيع المتنزهون ان يتناولوا فيها البيرة والقهوة ، تحت ظلال أشجار الزيزفون الباسقة وأشجار الجميز .. والطريق من فرنكفورت الى سودن

يحازى الضفة اليمنى من نهر (الماين) ، وهو مفروس من أوله الى آخره بالاشجار المثمرة .

وفيما كانت العربة تسير الهوينى على الطريق الممهد ، كان سانين يرقب خلسة سلوك جيما مع خطيبها - فقد كان يراهما معا لاول مرة - فلاحظ أن الفتاة هادئةطبيعية، وان تكن أكثر تحفظا ورصانة من مألوف عادتها . وكان يبدو على كلوبر مظهر رئيس متواضع ، قد أباح لنفسه ولمرءوسيه متعة معتدلة مناسبة . ولم يلمس سانين فى خطيب جيما اى لهفة أو اندفاع . فلقد كان واضحا ان السيد كلوبر يعد زواجه امرا مفروغا منه ، لا يستوجب ادنى قلق او انشغال!

على ان السيد كلوبر لم يبارحه شعوره بالتفوق لحظة واحدة .. ففى أثناء نزهة طويلة قاموا بها قبل الغداء حول الغابة ، وفى الجبال والوديان التى تحيط بمدينة سودن ، كان السيد كلوبر ، حين يظهر اعجابه بمفاتن الطبيعة ، يعامل خطيبته فى تواضع يمازجه شعور بالتفوق . فكان لا يفتأ يعلن أن تلك الساقية كان ينبغى لها الا تجرى على خط مستقيم ، وانما كان من الافضل أن تتعرج وتنثنى ، فيكون منظرها أجمل وأروع ، وان ذلك العصفور كان يحسن به الا يجرى فى تفريده على وتيرة واحدة ، وانما كان يجب أن ينوع أنغامه !!

ولم يبد على جيما انها كانت تضيق بالنزهة ، بل لقد بدا عليها انها مسرورة بها . ومع ذلك فقد احس سانين أن جيما اليوم غيرها بالامس .. حقيقة انه لم يلمح على وجهها أمارات الحزن والكآبة ، ولا كان جمالها أكثر اشراقا فى يوم من الايام منه فى ذلك اليوم ، الا انها كانت منطوية على نفسها بشكل واضح . وكانت تسير الهوينى ، وقد فتحت مظلتها ولبست قفازيها ، وكانت تخطر فى خطوات هادئة

ليس فيها تعجل، كما تخطر الفتيات اللواتى احسن تهذيبهن ورقت حاشيتهن . وكانت لا تتكلم الا قليلا .. اما ايميليو فكان يبدو انه غير مرتاح كل الارتياح هو الآخر . ولم يكن سانين بأكثر منه ارتياحا أيضا ، فقد كان عليه - بحكم الضرورة - أن يتحدث بالالمانية طوال الوقت . وكان تارتاجليا يحس وحده بأنه حر طليق .. فقد راح يلاحق الطيور وهو يرسل نباحا مجنونا ، وكان يقفز فوق الحفر وجذوع الاشجار المقطوعة، ويغطس فى جداول المياه، ويتلقف الطعام شرائح كبيرة ، ويهتز ويقفز ، ثم يمضى سريعا وقد مد لسانه الاحمر حتى بلغ كتفه !

وكان السيد كلوبر يعمل من جانبه كل ما يراه لائقا لادخال السرور على قلوب صحبه . فلم يلبث أن دعاهم الى الجلوس فى ظل شجرة كبيرة من أشجار السنديان ، واخرج من جيبه كتابا صغيرا عنوانه : « صواريخ ، أو يجب أن تضحك وستضحك حتما » ؛ ثم أخذ يقرأ فيه النوادر والفكاهات لتسلية رفاقه . بيد انه قرأ ما يزيد على عشر نوادر ، دون أن يستطع اضحاك احد . وكان سانين وحده ، يرى أن عليه ، من باب اللياقة ، ان يبتسم عند ختام كل أقصوصة من تلك الاقاصيص، التى كان السيد كلوبر نفسه يختمها بضحكة مقتضبة هادئة ، يكتنفها أيضا شىء من التواضع !

ولما أزفت ساعة الظهيرة ، قصد السيد كلوبر وضيوفه الى أحد مطاعم المدينة . وكان عليهم أن يختاروا ما يروقهم من طعام . فاقترح السيد كلوبر أن يتناولوا غداءهم فى « صالون » الحديقة ؛ وهو جناح مغلق منعزل . وسرعان ما اعترضت جيما ، معربة عن رغبتها فى ان تتناول الطعام فى الحديقة ، حيث الهواء الطلق ، وان تجلس على احدى

الموائد الصغيرة فى واجهة المطعم ، مبررة رغبتها بأنها قد سئمت أن تظل دواما مع أشخاص بعينهم ، وانها تريد أن ترى وجوها جديدة . ومع أن معظم الموائد كان مشغولا ، فقد أذعن السيد كلوبر ل « نزوة » خطيبته . وفيما كان يتحدث على انفراد مع رئيس الخدم ، كانت جيما تقف ساكنة ، وقد خفضت عينيها ، وعضت على شفتيها . فقد كانت تحس أن سانين يرقبها بلا انقطاع ، فبدت وكأنها مستاءة من نظراته المستمرة !

وعاد السيد كلوبر أخيرا يقول ان الغداء سيكون معدا بعد نصف ساعة ، واقترح تمضية تلك الفترة فى لعبة الاسطوانات، باعتبارها لعبة تفتح الشهية للطعام . فكان يظهر براعة فائقة فى اللعب ، وكان حين يرمى الكرات يتخذ أوضاعا هرقلية ، مستخدما جميع عضلاته ، رافعا ساقه قليلا فى الوقت نفسه. فبدا رجلا رياضيا مفتول الجسم حسن الشكل .. وكان من المستحيل على المرء أن يرى أنصع بياضا وأشد نعومة من يديه !

وحل موعد الطعام اخيرا ، واستطاعت الجماعة أن تجد لها مكانا حول مائدة صغيرة !

- ١٦ -

كان الغداء الذى تناوله أعضاء الرحلة يتألف من الالوان الالمانية التقليدية .. فقد كان يشتمل على حساء فيه كريات كبيرة من العجين ، ولحم مسلوق جاف كأنه السدادة ، يسبح فى دهن أبيض لزج ، وتحف به البطاطس ملطخة ومعها فجل مبشور ، وطبق من السمك المسقى بالخل والمضاف اليه بعض الكزبر ، ثم لحم مقلى يقدم مع المكسرات، وتعقبه تلك الحلوى التى لا بد منها والتى تسمى

« ميلشبايزى » ، وهى نوع من البالوظة يضاف اليها سائل أحمر لاذع . على أن الخمر والبيرة كانتا ، على العكس من ذلك ، من أطيب الاصناف وأفخرها .. وقد جرى كل شىء فى جو من الكلفة التامة ، فلم يكن ثمة حرارة او حماس يسود بين الحاضرين ، حتى انه حين رفع السيد كلوبر كأسه قائلا : « لنشرب نخب من نحب » ، لم يكد أحد يتجاوب معه أو يبدى ميلا الى الشراب على الاطلاق . حتى اذا انتهى الطعام ، قدمت لهم قهوة صفراء رائقة ، تخصصت المانيا فى صنعها . ثم طلب السيد كلوبر من خطيبته — فى كثير من الادب — أن تأذن له بتدخين سيجار !

ولم يلبث أن وقع أمر لم يكن فى الحسبان ، سرعان ماأثار انزعاج الرفاق واستنكارهم .. ذلك ان عددا من ضباط حامية مدينة (ماينتس) كان يجلس الى مائدة مجاورة . وكان من الميسور على المرء أن يدرك ، من اتجاه نظراتهم ومن همساتهم ، ان جمال جيما قد بهرهم ! .. وكان واحد منهم — بوجه خاص — لايحول بصره عن الفتاة قط ، وكأنه كان يعرفها حق المعرفة . وكان هؤلاء الضباط قد شربوا وأسرفوا فى الشراب ، اذ كانت موائدتهم مغطاة بالزجاجات الفارغة . وفجأة ، نهض الضابط الذى كان لا يكف عن النظر الى جيما ، وقد أمسك بقدحه ، واتجه الى المائدة التى كانت تجلس اليها الفتاة الايطالية .. وكان شابا فى مقتبل العمر ، أشقر الشعر ، جميل القسمات ، لطيف الملامح ، لكن الشراب كان قد شوه وجهه ، فجعل وجنتيه غائرتين ، وعينيه ملتهبتين ، وقد تبدى فيهما شىء من القحة والصفاقة .

وقد حاول رفاقه — فى أول الامر — أن يصدوه ، لكنهم مالبثوا ان تركوه قائلين : « ليكن ما يكون ! » . فلما وصل

الى جيما ، وقف أمامها وقد انثنت ساقاه قليلا ، وصاح بصوت جهورى مرتعد ، تدل نبراته على صراع داخلى :

ـ أشرب نخب أجمل بائعة عصير ليمون فى فرنكفورت ، وفى العالم بأسره !

وبعد أن أفرغ الكاس فىجوفه دفعة واحدة، استطردقائلا:

ـ وآخذ هذه الوردة التى قطفتها أصابعها الالهية !

ثم تناول وردة كانت على المائدة امام جيما .. وذهلت الفتاة ازاء تصرف الضابط الثمل ، واذا بوجهها يمتقع امتقاعا شديدا وقد لاحت عليه أمارات الذعر والفزع . ثم حل الاستياء والاستنكار محل الالتياع ، فاصطبغ وجهها بحمرة قانية ، وطفقت نظراتها تنقض على الرجل الذى يهينها انقضاض الصاعقة . وتملك الضابط اضطراب عارم، فأخذ يتمتم ببعض كلمات مبهمة غير مفهومة ، ثم أحنى راسه محييا ، وعاد ادراجه الى رفاقه، فاستقبلوه بضحكات صاخبة وتهنئات مكتومة . واذ ذاك نهض السيد كلوبر واقفا ، فوضع قبعته على راسه ، وقال فى وقار ، وبصوت غير مرتفع :

ـ هذه وقاحة لم أر مثلها من قبل !

ثم نادى الخادم بصوت قاس ، وطلب منه أن يوافيه بورقة الحساب فورا . ولم يكتف بذلك ، بل أمر باعداد العربة ، وقال انه ما ينبغى لاناس محترمين أن يعرضوا انفسهم للمهانة فى المحال العامة .. وكان ايمليو يرتعش من فرط الغيظ والحنق . ثم استطرد السيد كلوبر ، يقول بتلك اللهجة القاسية نفسها :

ـ انهضى يا آنستى ، فليس مكانك هنا .. سندخل الى المطعم فى انتظار العربة .

ونهضت جيما دون أن تنبس بكلمة . وقدم اليها السيد كلوبر ذراعه ، فتناولتها ، واتجه معها صوب المطعم فى خطوات مختالة ، راحت تزداد اختيالا وكبرياء مع ابتعاده عن المكان . وتبعهما المسكين ايميليو .. وفيما كان السيد كلوبر ينقد الخادم حسابه ـ بعدان اقتطع منه «البقشيش» على سبيل الغرامة ـ كان سانين يمضى مسرعا نحو مائدة الضباط .. وكان الضابط الذى أهان جيما يقرب الوردة ، التى انتزعها لفوره من أمام الفتاة ، من انوف رفاقه ليستروحون رائحتها ، فاتجه اليه يخاطبه بالفرنسية ، قائلا بصوت واضح :

ـ ان ما صنعته ، يا سيدى ، لا يليق بانسان شريف ، ولا يليق باللباس العسكرى الذى ترتديه ، وانما جئت اليك الآن لأقول لك انك انسان صفيق وقح !

فانتفض الضابط الشاب من مجلسه ، لكن أحد رفاقه ـ وكان ضابطا اكبر منه سنا ـ أمسك به ، وأرغمه على الجلوس ، ثم اتجه الى سانين ، وقال له :

ـ أأنت قريب لهذه الآنسة ؟ أم تراك شقيقها ؟ .. أم خطيبها ؟

ـ بل أنا رجل أجنبى .. أنا روسى.. ولكننى لا أستطيع أن اقف مكتوف اليدين ازاء مثل هذه الوقاحة ! .. هاك بطاقتى وعنوانى ، وسيجدنى السيد الضابط مستعدا لمبارزته فى الوقت الذى يشاء !

قال سانين ذلك ، وهو يلقى ببطاقته على المائدة ، ثم استولى على الوردة التى كانت قد سقطت اذ ذاك من يد احد الضباط فى طبقه . وأراد الضابط المهان أن ينهض مرة أخرى ، لكن رفيقه منعه قائلا :

ـ مهلا يا دنهوف ، مهلا !

ثم قام هو أخيرا ، فرفع يده الى خوذته ، وقال لسانين بلهجة لا تخلو من الاحترام، ان أحد ضباط فرقته سيتشرف بمقابلته فى اليوم التالى . فحياه سانين تحية جافة ، وأسرع يلحق بأصدقائه !

وقد تظاهر السيد كلوبر بأنه لم ينتبه الى غياب سانين ، وانه لم يلحظ مشاجرته مع الضباط . وكان يستحث الحوذى على الاسراع فى اعداد العربة ، ويؤنبه على بطئه . ولم توجه جيما - هى الاخرى - كلمة واحدة الى سانين ، بل انها لم تنظر اليه قط ؛ بيد انه كان واضحا ، من تقطيب وجهها ، واصفرار شفتيها وانقباضهما ، وصمتها ، انها كانت تعانى ألما شديدا ؛ وكان ايميليو يتمنى لو تحدث الى سانين ، وسأله عن جلية الامر . فقد رآه يدنو من الضباط، ويلقى اليهم بقطعة من الكرتون لاشك انها كانت بطاقته.. وكان قلب الصبى يخفق بشدة ، ووجنتاه باديتى الاحمرار. وكان يتمنى أن يرتمى بين أحضان الشاب ، وأن يبكى على صدره ؛ ثم يمضى معه فورا ليحطم جميع اولئك الضباط الالمان السفلة . لكنه استطاع أن يكبح جماح نفسه، واكتفى بأن راح يتابع ، فى كثير من الانتباه ، حركات صديقه الروسى النبيل !

***

وانتهى الحوذى أخيرا من اعداد العربة ، فصعدوا اليها جميعا ، واختار ايميليو لنفسه أن يجلس مع تارتاجليا قرب السائق ، فذلك كان أدعى الى راحته ، اذ سيكون هنالك بعيدا عن وجه السيد كلوبر ، الذى أصبح لا يطيق أن يراه دون ان يستبد به الغضب !

وظل السيد كلوبر يتحدث طوال الطريق بغير انقطاع ،

لكنه كان يتكلم وحده ، فلم يكن أحد يعارضه ، أو يوافقه على ما يقول . فأخذ يردد انهم قد أخطأوا اذ لم يتبعوا نصيحته حين اقترح عليهم تناول الفداء فى الصالون ، رغم الحاحه وتشدده ، فلو انهم وافقوه على رأيه لوفروا على انفسهم تلك المتاعب والمنغصات . ثم مضى يعلن بعض الآراء الجريئة التى راحت تأخذ على الحكومة تساهلهاوتهاونها مع الضباط الذين يخلون بقواعد الآداب العامة ، ولا يتورعون عن الاستهتار باحترام الناس ، وأكد بأن مثل هذه الامور انما تولد الاستياء شيئا فشيئا ، ومن الاستياء تخرج الثورة . ثم ضرب مثالا لذلك ماحدث فى فرنسا .. وأطلق السيد كلوبر زفرة هادئة ، لكنها كانت قاسية . واستطرد يقول انه ، شخصيا ، يحترم السلطات كل الاحترام ، وانه لا يمكن اطلاقا أن يكون رجلا ثوريا فى يوم من الايام ، لكن ذلك لا يمنعه من أن يلوم مثل هذا الخروج على الاخلاق وما صريحا .. واسترسل السيد كلوبر على هذا النحو ، يصدر آراء وأحكاما فيما هو أخلاقى وغير اخلاقى ، وفيما هو لائق وغير لائق ! .

وكانت جيما ، منذ النزهة التى قاموا بها قبل الغداء ، غير راضية عن مسلك السيد كلوبر ، وكانت لذلك السبب عينه متحفظة مع سانين ، فلما استرسل السيد كلوبر فى ذلك الحديث الذى لم يشاركه فيه أحد ، أخذ يتولاها شعور واضح بالخزى تجاه خطيبها .. وفى نهاية الرحلة ، كان من السهل على المرء أن يتبين أنها لم تعد تطيقه ، حتى لقد راحت ترنو الى سانين بنظرات متوسلة ، دون أن تخاطبه بكلمة !

وكان سانين ، من جهته ، يشعر بالاشفاق على جيما اكثر مما يحس بالحنق على السيد كلوبر . وكان فى قرارة

نفسه سعيدا بما حدث ــ رغم أن ثمة مبارزة كانت تنتظره فى اليوم التالى ــ دون أن يجد تعليلا واضحا لتلك السعادة التى شملت كيانه .. وانتهت تلك النزهة المزعجة أخيرا . وفيما كان سانين يعاون جيما على النزول من العربة ، دس فى يدها الوردة دون أن يتكلم ، فتضرج وجه الفتاة بشدة ، وشدت على يد الشاب ، ثم أسرعت تخفى الزهرة !

ولم يكن سانين يعتزم العودة الى الحانوت ، رغم ان الوقت لم يكن فى ساعة متأخرة من المساء . فضلا عن ان جيما لم تدعه الى ذلك .. وما لبث بانتاليون ان خرج ليستقبل العائدين عند الباب الخارجى ، وابتدرهم يقول ان السيدة ليونور كانت نائمة . فاستأذن ايميلو صديقه سانين ، وكأنما كان يخشاه من فرط اعجابه به . أما السيد كلوبر ، فقد رافق سانين حتى فندقه . ثم ودعه بتحية فاترة . وكان يشعر بشىء من الانزعاج ، رغم ثباته وشدة اعتداده بنفسه . والحق ان الركب كله كان يحس بانزعاج ، لكن هذا الشعور سرعان ما زال من نفس سانين ، وحلت محله حالة نفسية لا يمكن تحديدها ، ولكنها كانت لذيذة ، ولا تخلو من حرارة وحماس .. وظل سانين يذرع غرفته جيئة وذهابا . لايريد أن يفكر فى شىء ، وقد راح يصفر أحد الالحان ، وهو يشعر بالارتياح والرضا يملآن قلبه !

- ١٧ -

قال سانين لنفسه وهو يرتدى ملابسه فى صباح اليوم التالى : « سأنتظر الضابط حتى الساعة العاشرة ، فاذا لم يأت حتى ذلك الموعد ، كان فى وسعه أن يجدنى فى المدينة! » .. غير ان الالمان دابوا على الاستيقاظ فى وقت مبكر ، فما

ان اقتربت الساعة من التاسعة ، حتى جاء الخادم يبلغ سانين بأن السيد الملازم « فون ريشتر » كان يطلب مقابلته !

واسرع الشاب يرتدى بذلته الرسمية ، ثم أمر بادخال الضابط . وكم كانت دهشته حين رأى أن السيد « فون ريشتر » شاب صغير يكاد أن يكون فتى يافعا . وقد حاول الفتى أن يضفى على تعبير وجهه ـ الذى لم تنبت لحيته بعد ـ شيئا من الصرامة ، لكنه لم ينجح فى ذلك ، ولا استطاع أن يخفى اضطرابه الشديد . حتى انه حين جلس على أحد المقاعد ، تعثر فى سيفه ، وكاد أن يسقط على الارض . ولم يلبث ان أخبر سانين ـ فى كثير من التردد والتلعثم ـ انه جاء ، باسم رفيقه البارون « فون دنهوف »، ليطلب الى السيد « فون زانين » ، أن يقدم اعتذاره عما بدر منه بالامس فى حق البارون « فون دنهوف » ، فاذا رفض السيد فون زانين أن يعتذر ، فان البارون يطلب ـ فى هذه الحالة ـ منازلته . فأجابه سانين بأنه ليس فى نيته مطلقا أن يعتذر ، وانه مستعد للمبارزة ! .. واذ ذاك سأله الملازم ـ مترددا أيضا ـ عن الشخص الذى يختاره شاهدا، الساعة التى يحددها ، والمكان الذى يمكن أن تجرى فيه المباحثات . فأجاب سانين بأن فى وسع السيد فون ريشتر أن يعود اليه بعد ساعتين، فيكون فى تلك الاثناء قد عثر على الشاهد المنشود . لكنه راح يسائل نفسه : « ترى أين يمكن أن أجد مثل هذا الشاهد ؟ ! » .

ونهض « فون ريشتر » أخيرا ، وحياه ، لكنه وقف عند عتبة الباب كمن وخزه ضميره ، ثم التفت الى الشاب الروسى ، وصرح له بأن رفيقه البارون « فون دنهوف » قد اعترف بأنه أساء صنعا بالامس ، وأنه لذلك يكتفى بمجرد اعتذار بسيط . على ان سانين اسرع يخبره بأنه لا يفكر فى

تقديم أى اعتذار ، بسيط كان ام غير بسيط ، لانه لا يرى انه قد أساء او أخطأ فى شىء !

فقال السيد فون ريشتر وقد اشتدت حمرة وجهه :

ـ اذن تتبادلان طلقات الرصاص وديا ؟

فسأله سانين مستنكرا :

ـ كيف ؟ هل تريد أن نطلق الرصاص فى الهواء ؟

فغمغم الملازم ، وقد بلغ به الاضطراب غايته :

ـ كلا ، لم أقصد أن أقول ذلك ، ولكننى قلت لنفسى : ما دام الامر بين أناس محترمين ..

وسكت ، ثم أردف يقول فى حرارة :

ـ سأدبر هذه التفاصيل كلها مع الشاهد الذى ستختاره!

ثم غادر الغرفة فجأة ..

***

ما ان انصرف الضابط ، حتى تهاوى سانين على أحد المقاعد ، وراح يناجى نفسه قائلا : « ما معنى هذا كله ؟.. وما هذا الاتجاه الذى تسلكته حياتى فجأة ؟ .. هل انمحى الماضى ، وتبدد المستقبل ؟ .. » فلم يشعر سانين الا بشىء واحد ، هو أنه فى فرنكفورت ، وانه يوشك أن ينازل أحد الاشخاص . وفجأة تذكر عمة له كانت قد فقدت عقلها وجنت، فكانت ترقص وهى تغنى أغنية تنادى فيها ضابطا ، وتدعوه الى أن يجىء ويراقصها .. وانفجر سانين ضاحكا، وطفق يردد أغنية عمته : « تعال ارقص معى ايها الضابط .. يا حبيبى ! » ولكنه ما لبث ان قال لنفسه : « ولكن يجب أن اعمل ، وليس ثمة وقت اضيعه » . وارتعش حين رأى امامه بانتاليون يحمل بيده رسالة ، وهو يقول :

ـ لقد قرعت الباب عـدة مرات ، فلم تجبنى ، فظننت انك غائب !

ثم قدم اليه رسالة قائلا :

ـ انها من الآنسة جيما !

وتناول سانين الورقة فى لهفة ، وفضها ، وأخذ يقرأها .. لقد كتبت اليه جيما تقول انها تحس بانزعاج بالغ منـذ الليلة السابقة ، وانها تناشده أن يوافيها بأقصى سرعة .. وأضاف بانتاليون يقول ، اذ كان يعرف مضمون الرسالة :

ـ ان الآنسة جيما مضطربة للغاية، وقد سألتنى أن أجىء اليك لاعرف اخبارك ، وأن أصحبك الى البيت .

فتأمل سانين العجوز الايطالى ، وأخذ يفكر . فقد راوده خاطر عجيب ، مضحك ، واذا به يقول له هاتفا :

ـ أيها السيد بانتاليون !

فارتعش العجوز ، وأغرق ذقنه فى ربطة عنقه ، ونظـر الى سانين .

ـ هل سمعت بما وقع أمس ؟

وعض بانتاليون شفتيه ، وهز رأسه ، وقال :

ـ أعرف كل شىء !

ذلك أن ايميليو كان قـد روى للعجوز ما حدث بمجـرد عودته من الرحلة .

ـ آه .. اذن فأنت على علم بالامر ! .. حسنا .. لقد زارنى ضابط منذ لحظة .. ان الضابط الوقح الذى تحرشت به بالامس يدعونى الى النزال ، وقد قبلت المبارزة ، ولكن ليس لى شاهد ؛ فهل لك أن تكون شاهدى ؟

فلما سمع بانتاليون هذا الكلام اختلج جسمه فى عصبية، ورفع حاجبيه حتى غارا تحت شعره المتدلى . ثم قال :

ـ هل لابد من أن تقتتلا ؟

ـ قطعا . ويستحيل على أن أتراجع ، والا لوثت اسمى طوال حياتى !

ـ واذا رفضت أنا أن أكون شاهدك ، فهل تجىء بشاهد غيرى .. ؟

ـ طبعا .. لاننى لا أستطيع الاستغناء عن شاهد !

فمال بانتاليون براسه نحو الارض ثم قال :

ـ ولكن اسمح لى بسؤال يا سيد ((سانينيو)) : ألا تظن أن هذه المبارزة تلقى ظلا على سمعة الفتاة ؟

ـ لا أظن .. ومهما يكن من أمر ، فلا حيلة لنا فى منعها !

ـ أم ..

واختفى وجه بانتاليون تماما فى ربطة عنقه . ثم صاح فجأة، وهو يرفع رأسه :

ـ ولكن ماذا يصنع ذلك السيد « كلوبيريو » الهمام ؟

ـ هو ؟ لا شىء ؟ ..

ـ هه !

وهز بانتاليون كتفيه ، علامة الاحتقار . ثم قال بصوت مضطرب :

ـ على كل حال يجب أن أشكر لك أنك عددتنى رجلا محترما .. انك اذ تفعل ذلك انما تبرهن على أنك أنت نفسك رجل محترم . وسأفكر الآن فيما اقترحته على !

ـ ليس امامنا متسع من الوقت أيها السيد

ـ ولكننى لا أطلب الا ساعة واحدة للتفكير .. ان الامر يتعلق بمستقبل ابنة أولياء نعمتى . ومن واجبى اذن ان افكر .. سأوافيك بجوابى بعد ساعة ، أو بعد ثلاثة أرباع الساعة !

ـ حسنا .. أنا في انتظارك !

– والآن ، ما هو الرد الذى يجب أن أحمله الى الآنسة جيما ؟

فتناول سانين ورقة وكتب عليها :

« اطمئنى .. سأحضر اليك بعد ثلاث ساعات، وسأقص عليك كل شيء . وانني لأشكر لك تلطفك من أعماق قلبى .»

ثم طوى الورقة ، ودفع بها الى بانتاليون . فتناولها العجوز ، ودسها فى جيبه بعناية ، وهو يكرر قوله : « بعد أقل من ساعة ! » . فلما وصل الى الباب ، التفت فجأة ، وعاد أدراجه راكضا نحو سانين ، فتناول يد الشاب وشدها الى صدره ، وصاح وهو يرفع عينيه الى السماء :

– أيها الشاب النبيل ، أيها القلب الكبير ، اسمح لعجوز ضعيف أن يشد على يمناك العظيمة !

ثم وثب الى وراء ، وضرب الهواء بيديه ، وخرج من الغرفة . تابعه سانين بنظرة ، ثم تناول احدى الصحف ، وأخذ يقرأ . الا أن عينيه كانتا تتابعان السطور فى شرود ، فلم يفهم مما يقرأه شيئا !

– ١٨ –

بعد ساعة دخل الخادم على سانين مرة أخرى، وقدم اليه بطاقة ، قرأ فيها سانين : « بانتاليون شيباتولا الفاريزى : مغن فى بلاط صاحب السمو الملكى دوق مودين ! »

وما ان خرج الخادم ، حتى دخل بانتاليون . وكان قد غير ملابسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فكان يلبس رداء أسود أحمر الاطراف ، وصديرية بيضاء تتلوى عليها سلسلة من النحاس المذهب ، وعلى السروال الملتصق بالجسم ، كان يهبط خاتم ثقيل من العقيق . وكان يمسك بيمناه قبعة سوداء من وبر الارانب ، بينما حمل باليد

اليسرى قفازين كثيفين من الجلد . وكان قد وسع ربطة عنقه أكثر مما يفعل عادة ، وغرز فى عروة قميصه المنشى دبوسا تعلوه قطعة من حجارة كريمة . وكان خنصره يزدان بخاتم ذى طرفين يتشابكان حول فص لامع .. وكانت تفوح من جسمه رائحة هى مزيج من الكافور والعفن والمسك . وكان ما اصطنعه من هيئة الجد والخطورة خليقا بأن يستوقف نظر أى انسان مهما بلغ عدم اكتراثه وقلة ملاحظته .. ولما خف سانين لاستقباله ، ابتدره قائلا :

— سأكون شاهدك !

ثم انحنى أمام سانين انحناءة كبيرة ، مباعدا ما بين الكعبين على طريقة الراقصين . وعاد يقول :

— لقد جئت أتلقى أوامرك . فهل تنويان أن تقتتلا حتى الموت ؟

— ولم حتى الموت ، أيها السيد العزيز شيباتولا ؟ .. لا شىء فى الدنيا يمكن ان يحملنى على التراجع ، ولكننى لست ممن يحبون شرب الدماء .. انتظر على كل حال !.. ان الشاهد الذى اختاره خصمى سيصل بعد قليل . وحين يصل ، سأنتقل الى غرفة أخرى ، وأدع لكما أن ترتبا شروط القتال . وثق اننى لن انسى مدى الحياة هذه الخدمة التى تقدمها لى ، واننى لأشكرك من أعماق قلبى !

— الشرف قبل كل شىء !

ثم جلس بانتاليون على مقعد دون أن ينتظر دعوة الى الجلوس . وما لبث ان أردف قائلا :

— لئن لم يفهم ذلك البائع « كلوبريو » واجبه ، لئن خاف وذعر ، فبئس ما فعل .. انه امرؤ لا يساوى قلبه درهما واحدا .. حسبى أن أقول فيه هذا .. أما عن شروط المبارزة ، فأنا شاهدك ، ومصالحك مقدسة عندى .. وحين

كنت أسكن مدينة بادو ، كانت الحامية تضم فرقة من سلاح الفرسان ، وكنت على علاقات طيبة بعدد من الضباط .. فأنا لذلك أعرف قوانين الشرف عندهم من أولها الى اخرها .. وكثيرا ما تناقشت مع أميركم تاربوسكى .. هل ذلك الشاهد آت بعد قليل ؟

ـ انني أنتظر وصوله بين لحظة وأخرى .

ثم هتف يقول ، وقد ألقى نظرة على الشارع :

ـ ها هو ذا ..

ودخل الملازم الشاب ، مضطربا احمر الوجه ، فى هذه المرة أيضا . وتولى سانين تقديم الشاهدين أحدهما للآخر:

ـ السيد ريشتر ، ملازم .. والسيد شيباتولا ، فنان!

وقد دهش الملازم قليلا حين رأى العجوز .. ترى ماذا كان عساه أن يقول ، لو علم ان هذا الفنان كان يمارس فن الطهى أيضا !! .. **واصطنع بانتاليون مظهر شخص لم يكن له فى حياته كلها من عمل الا أن يهيىء المبارزات . وقد أسعفته فى موقفه هذا ذكريات مهنته على خشبة المسرح ، فنهض بمهمة الشاهد كما لو كان يمثل دورا !**

ونظر الشاهدان أحدهما الى الآخر دون أن يقولا فى أول الامر شيئا . ثم لم يلبث بانتاليون أن قطع الصمت ، وهو يعبث بخاتمه العقيقى قائلا :

ـ نعم .. لنتحدث فى الشروط !

فأجابه الملازم :

ـ أجل .. لنتحدث فى الشروط ، ولكن وجود احد الخصمين ...

فقاطعه سانين :

ـ سأترككما وحدكما أيها السيدان .

ثم حياهما ، ودلف الى حجرة النوم ، وأقفل بابها عليه

بالمفتاح . وألقى بنفسه على السرير ، وأخذ يفكر فى جيما . لكن صوت الشاهدين كان يتناهى اليه من الباب الموصد .. وكان الشاهدأن يتحدثان بالفرنسية ، وان راحايشوهان ألفاظها ، فى غير ما رحمة ولا شفقة ، كل على طريقته ! ..

وتحدث بانتاليون مرة أخرى عن فرسان (بادو) ، وعن الامير « تاربوسكى » . كما تحدث الملازم عن « الاعتذارات الخفيفة » وعن « طلقات الرصاص الودية » .. أما العجوز الايطالى ، فلم يشأ أن يسمع شيئا عما يسمى «بالاعتذارات» .. وما كان أشد ما شعر به سانين من خزى ، حين أخذ العجوز يتكلم فجأة عن آنسة بريئة فى ريعان الصبا ، يساوى ظفرها كل ما فى الدنيا من ضباط . وكان بانتاليون لا ينفك يردد : « هذا عار ! .. هذا عار ! »

ولم يجب الضابط بشىء فى أول الامر ، بيد ان صوته ما لبث ان ارتجف من شدة الغضب ، فقال انه لم يأت ليتلقى دروسا فى الاخلاق .

فقال له بانتاليون :

ـ انه ليفيد من فى سنك دائما أن يسمع الحقيقة ! ..

وتطورت المناقشة بين الشاهدين الى عاصفة عدة مرات . واخيرا ، وبعد مجادلة حامية دامت ساعة كاملة ، انتهيا الى الشروط التالية :

« يقتتل البارون فون فنهوف والسيد سانين غدا فى الساعة العاشرة ، وذلك فى الغابة الصغيرة القريبة من (هاناو) . وتكون المسافة بين المتبارزين عشرين خطوة . ولكل منهما الحق فى أن يطلق طلقتين عند صدور الاشارة . والسلاح مسدس غير مخطط ، وليس بذى انتفاض مزدوج » .

وانصرف السيد فون ريشتر ، واقبل بانتاليون يفتح باب

غرفة سانين منتصرا مظفرا ، وبعد أن أبلغه نتيجة المباحثات، اخذ يردد :

ـ مرحى أيها الروسى ، مرحى جيوفانيو .. لسوف تكون الغالب !

وبعد بضع دقائق ، كانا يدخلان معا حانوت روزيلى .. وكان سانين قد طلب الى بانتاليون ، أثناء الطريق ، ان يبقى أمر المبارزة سرا بينهما . وكان جواب المغنى العجوز أن قال، وهو يرفع أصابعه الى السماء ، ويغمض عينيه :

ـ هذا سر .. هذا سر !

وكان بانتاليون يسير فى خفة وكأنه ارتد شابا فى ميعة الصبا . فقد نقلته تلك الاحداث ـ رغم خطورتها ـ الى تلك الفترة من حياته ، التى كان يلقى هو فيها بالقفاز ، ولكن على المسرح طبعا ! ..

- ١٩ -

كان ايمليو يترقب وصول سانين منذ أكثر من ساعة ، فلما وصل الشاب الروسى ، خف ايمليو اليه ، واسر فى اذنه خلسة بأن أمه لم تكن تعرف شيئا عما جرى بالامس ، وان من الخير الا يشار الى شىء من ذلك أمامها ، ألا أنه قد أمر بأن يتوجه إلى السيد كلوبر على عادته ليعمل تحت اشرافه، ولكنه قد عقد العزم على التظاهر بالذهاب ، دون ان يذهب فعلا !

قال الصبى ذلك كله دفعة واحدة فى بضع ثوان ، ثم مال برأسه على كتف سانين ، فقبله قبلة دافقة ، وهرول الى الشارع !

وفى الحانوت سارعت جيما الى سانين، وارادت ان تكلمه، لكن الكلمات لم تسعفها ، فارتعشت شفتاها ، وزاغت عيناها

تحت أهدابها المسبلة . فبادر سانين يطمئن الفتاة مؤكدا بان المسألة قد سويت ، وان عليها الا تفكر فى الامر بعدالآن.

وسالته جيما :

ـ الم يجيء اليك أحد اليوم ؟

ـ بل جاءنى شاب ، فتفاهمنا فى الامر ، واغلقنا الموضوع على نحو يرضى الجميع !

فعادت جيما الى مكانها بالحانوت . وقال سانين بينه وبين نفسه : « انها لم تصدق ! » . ثم مضى الى الغرفة المجاورة ، فوجد فيها السيدة ليونور ، وكانت قد شفيت مما تعانيه من صداع ، لكنها كانت مازالت متعبة . وقد استقبلت السيد سانين فى كثير من اللطف ، الا انها حذرته من انه سيسأم اليوم صحبتها ، فهى تشعر بأنها عاجزة عن الترويح عنه !

وجلس سانين الى جانب السيدة ليونور ، فلاحظ أن جفنيها كانا شديدى الاحتقان ، فسألها :

ـ ما بك يا سيدة لينور ؟ هل بكيت ؟

ـ صه .. لا تتكلم بصوت مرتفع !

قالت له ذلك هامسة ، وهى تشير براسها الى المكان التى كانت فيه ابنتها . فعاد سانين يسألها :

ـ ولكن لماذا بكيت ؟

ـ آه يا سيد سانين ، انا نفسى لا أعرف لماذا بكيت !

ـ هل اغضبك احد ؟

ـ أبدا .. وانما احسست بأننى حزينة على حين غرة .. لقد فكرت فى جيوفانى باتيستا .. وفى صباى .. ما أسرع ما مضى هذا كله ! .. اننى أشيخ يا صديقى ، ولا استطيع أن أمتثل لهذه الفكرة .. أحس بأننى ما زلت كما كنت، ومع ذلك فقد دهمتني الشيخوخة .. دهمتني ! .

ورأى سانين دموعا تترقرق فى عينى السيدة لينور . واذ ذاك استطردت تقول :

ــ هل يدهشك هذا الاعتراف ؟ ولكنك ستشيخ أنت ايضا يا صديقى ، وستعرف مدى المرارة التى يكابدها المرء حين يدلف الى الشيخوخة !

وأراد سانين أن يسرى عن السيدة روزيلى بالكلام عن ولديها اللذين يتمثل فيهما صباها ، بل لقد حاول أن يمازحها ، فابتدرها قائلا : « لعل السيدة روزيلى تحب الاطراء ! .. » ، لكنها رجته جادة أن يكف عن المزيد من المزاح ، فتبين سانين ــ لاول مرة فى حياته ــ أن ثمة حزنا يستحيل على المرء أن يواسى فيه صاحبه ويسرى عنه ، وهو حزن الانسان الذى يتقدم فى السن ، ويفطن الى هذه الحقيقة . فقال فى نفسه : « يجب أن أدعها تهدأ من تلقاء ذاتها ! » .. واقترح سانين على السيدة لينور أن يلعبا الورق (وهذا كل ما استطاع أن يجده ليسرى به عنها) ، فوافقت على الاقتراح ، ولاح عليها أنها استردت رباطة جأشها .

واستمر اللعب حتى حان وقت الغداء ، ثم استؤنف بعد ذلك ، واشترك فيه بانتاليون كطرف ثالث . وكان شعر المغنى القديم كثير التهدل على جبينه ، وكانت ذقنه تضغط بشدة على ربطة عنقه ، وكانت كل حركة من حركاته ينبعث منها وقار نبيل لا يخفى على أحد ، حتى لقد كان يستحيل على المرء أن يراه دون أن يتساءل فى الحال : « ترى ما ذلك السر الذى يحرص هذا الرجل على اخفائه بمثل هذه الضراوة ؟ » .

وظل بانتاليون طوال النهار ينتهز كل مناسبة ، ليبرهن لسانين على ما يكنه له من احترام عظيم .. فحين جلسوا

الى المائدة . أسرع يقدم له الطعام قبل أن يقدمه للسيدتين ، وفى أثناء اللعب كان يتنازل له عن دوره ، ولا يسمح لنفسه بأن ينافسه ، وكان لاينفك يصرح بأن الشعب الروسى أكثر شعوب الارض بسالة وشهامة وبطولة .. وكان سانين يقول لنفسه ، حين يسمع هذا الكلام : « انه ممثل قديم ! .. » .
على ان الشاب فوجىء ــ بوجه خاص ــ بموقف جيما منه . فقد تبين انها لم تعد تتحاشاه ، وانما راحت تأتى فى كل لحظة ، فتجلس بجواره ، وتصغى الى مايقوله ، وترنو اليه، لكنها كانت تتجنب أن تشاركه فى الحديث ، اذ كان لا يكاد يوجه اليها الكلام ، حتى تنهض من مكانها ، فتمضى الى الغرفة المجاورة ، حيث تبقى بعض الوقت ، ثم لاتلبث أن تعود الى مكانها فى أحد الاركان ، فتجلس ساكنة ، مشغولة البال ، قلقة .. انتبهت السيدة ليونور الى حالة ابنتها ، فسألتها مرتين عما بها ، فكانت جيما تجيبها بقولها :

ــ لا شىء ! .. أنت تعرفين أننى أكون هكذا أحيانا !

فكانت الام تقول ، تصديقا على كلام جيما :

ــ نعم ، هذا صحيح .

ولو ان سلوك جيماكان مغايرا ، فلربما ما استطاع سانين أن يقاوم اغراء الظهور بمظهر البطولة ، أو لربما استسلم لحزن شديد ، فى تلك الليلة التى تسبق فراقا لعله لا لقاء بعده .. ولما لم تتح له فرصة التحدث الى جيما مرة واحدة، فقد اكتفى بأن توجه الى البيانو قبل تناول قهوة المساء ، واخذ يعزف بعض الالحان لمدة ربع ساعة .

وعاد ايمليو فى ساعة متأخرة ، لكنه لم يلبث أن خرج ، ليتحاشى أن يوجه اليه أحد اى سؤال عن السيد كلوبر . ثم آن لسانين أن يستأذن، وفيما كان يودع جيما ، تذكر فراق « لنسكي واولغا » فى قصة (اوجين ونيجين) التى كتبها

« بوشكين » . فشد على يد الفتاة بقوة ، وحاول ان ينظر اليها فى عينيها ، لكنها أشاحت بوجهها قليلا ، وسحبت أصابعها من يده !

- ٢٠ -

حين نزل سانين الى الشارع ، كانت السماء قد امتلأت بالنجوم . وما أكثر ماكانت النجوم ، وما أشد ماكان تنوعها وتباين أحجامها ! .. كانت تلتمع ، متزاحمة ، متكاثفة ، وكأنها تتبارى فى ارسال الاشعة . ولم يكن يسطع فى قبة السماء بدر ، غير أن كل شىء كان يتميز واضحا فى ذلك الضوء المعتم !

وتابع سانين سيره الي آخر الشارع . ولم يكن راغبا فى العودة الى غرفته بالفندق ، اذ كان يحس بالحاجة الى البقاء فى الهواء الطلق . فاذا به يعود أدراجه ، لكنه ، وقبل أن يصل فى سيره الى حانوت الحلوى ، رأى احدى النوافذ تفتح . ولم تكن الغرفة مضاءة ، ثم لاح له فى اطار النافذة المظلم شبح امرأة ، ولم يلبث أن سمع صوتا يناديه : «ياسيد ديمترى ! » .. فلما اقترب من النافذة ، تبين انها جيما ، وقد استندت بمرفقيها الى النافذة ، ومالت بجسمها الى الخارج .. وسرعان ما قالت بصوت وجل :

- يا سيد ديمترى ، هناك شىء ظللت طوال النهار اريد أن أعطيك اياه ، لكننى لم أجرؤ .. والآن وقد رأيتك مصادفة ، قلت لنفسى لاشك انه القدر ..

ثم كفت عن الكلام فجأة ، اذ عجزت عن متابعة الكلام .. وفجأة ، وفى قلب ذلك السكون الشامل ، وتحت سماء لا تعكرها غيوم ، هبت ريح عاتية .. كانت اعصارا بلغ من درجة عنفه أن ارتجت الارض ، واهتزت اشعة النجوم

الواهنة . ثم انتف هواؤه الساخن كأنه لفح النار ، فعقف رءوس الاشجار ، وزعزع الجدران ، وزلزل الشارع كله !

وأطاحت الريح بقبعة سانين ، وتطايرت خصائل شعر جيما السوداء .. وكان رأس الفتى على مستوى الحاجز الذى تستند اليه جيما، فتشبث بالحاجز على غير ارادة منه، فامسكته جيما من كتفيه بيديها، وأهوت برأسها على وجهه ! .. ودامت قرقعة الاجراس والضوضاء المروعة ما يقرب من دقيقة ، ثم ابتعدت الجلبة كأنها سرب طيور هائل ، وعاد الجو الى سكونه العميق !

ورفع سانين رأسه . فرأى وجه الفتاة ، وقد بلغ من الفتنة فى غمرة اضطرابه وجزعه ماجعل قلبه يخفق فى عنف. وكانت عيناها الواسعتان الوجلتان اشد ما تكونان سحرا وجمالا .. ومر الفتى بشفتيه على خصائل شعرها التى دفعتها الريح فوق صدره ، وتمتم :

– جيما !

– ما الذى حدث ؟ اهى عاصفة ؟

ثم أخذت جيما تنظر حولها ، دون أن ترفع ذراعيها العاريتين عن كتفى سانين . وسمعته يقول مرة أخرى :

– جيما !

وارتجفت الفتاة ، وألقت نظرة على الغرفة ، ثم مدت يدها الى صدرها بحركة سريعة ، فأخرجت وردة ذابلة دفعت بها الى سانين ، وهمست :

– كنت أريد ان أعطيك هذه الزهرة .

وتبين سانين انها كانت الزهرة التى استردها من الضابط فى اليوم السابق . ولم تلبث النافذة أن اغلقت ، فأصبح سانين لا يميز وراء زجاجها المعتم شيئا البتة . وعاد الى فندقه بغير قبعة ، حتى أنه لم يلاحظ ان الريح قد أطارتها !

- ٢١ -

وظل مسهدا حتى الفجر .. وكان قد ادرك ـ أثناء العاصفة المفاجئة ـ ان جيما لم تكن أجمل فتاة فحسب ، وانه لم يكن معجبا بها فقط ، فذلك كله كان يعرفه منذ فترة طويلة . وانما عرف أيضا انه قد هام بها حبا وغراما !

لكنه كان عليه أن يبارز الضابط ، فكان ذلك الخاطر يبعث الانقباض فى نفسه ، ويجعله يوجس من نتيجة المبارزة ، فضلا عن انه كان يعلم انه انما يكن حبا لفتاة مخطوبة لشخص آخر ! .. على انه ما كان ليعمل حسابا لخطيبها ، اذ كان يحس أن جيما لن تلبث أن تحبه ، وانها ربما تكون قد أحبته بالفعل . ولكن ترى ماذا عسى أن تؤدى اليه تلك الامور كلها ؟ .. وراح يذرع غرفته جيئة وذهابا ، ثم يجلس فيتناول ورقة ، ويكتب عليها بضعة أسطر ما يلبث أن يشطبها ..

وكانت جيما مازالت تتراءى له فى اطار النافذة المظلمة ، تحت ضياء النجوم ، فكان يرى ذراعيها المرمريتين ، اللتين تشبهان ذراعى ربة من ربات الاوليمب . واذا به يحس على كتفيه بثقل هاتين الذراعين . وشم سانين الوردة التى أهدتها اليه جيما . وخيل اليه أن أوراقها الذابلة يفوح منها عطر أذكى من عطر جميع الورود .. وتذكر انه سيكون عليه عما قليل أن يعرض نفسه للموت . ترى أيعود من القتال حيا ؟ .. أليس محتملا أن يرجع منه مشوها ؟ .

ولم ينم سانين فى فراشه ، وانما استلقى على الاريكة دون أن يخلع ملابسه . وفجأة أحس بيد تلامس كتفه ، فانتفض ، واذا به يرى بانتاليون الذى ابتدره قائلا :

ـ انك تنام كالاسكندر الاكبر ، غداة معركة بابل !

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ السابعة الا ربعا .. والطريق الى هاناو يستغرق ساعتين ، ويجب أن نكون أول الواصلين الى المكان . كذلك شأن الروس دائما . وقد استأجرت أحسن عربة بمدينة فرنكفورت .

ـ اين المسدسات ؟

ـ سيأتى بها صاحبنا .. وقد تعهد أيضا باصطحاب طبيب !

وكان سانين يحاول أن يحافظ على مستوى الشجاعة التى أظهرها أمس . وحين جلس فى العربة مع بانتاليون ، وقرقع سوط الحوذى ، وجرت جياد العربة سريعة ، تبدلت حال الصديق القديم لفرسان مدينة (بادو) ، فبدا مضطربا، خائفا بعض الشىء ، ولاح كأن شيئا فيه قد انهار كما ينهار الجدار المتداعى .. وسمعه سانين يقول لنفسه ، وهو يمسك شعره بكلتا يديه :

ـ ماذا تفعل هنا يا سيدى ؟

واستطرد يسأل نفسه : « ماذا تفعل هنا ، أيها العجوز الاحمق ، أيها المجنون ؟ » .. وقد دهش سانين قليلا فى أول الامر ، ثم أخذ يضحك ، وهو يحيط العجوز بذراعه فى رفق قائلا :

ـ لقد صبت الخمر ، ولا بد لنا أن نشربها !

ـ نعم ، نعم ، سنتجرع هذه الكأس .. لكن هذا لا ينفى اننى مجنون ، مجنون ، مجنون ! .. لقد كنا غاية فى الهدوء ، وكانت الامور كلها تجرى على نحو ما نحب ، وفجأة .. تاتاتا .. تراتاتا .. !

فقال سانين ، وهو يحمل نفسه على الابتسام :

ـ ولكن الذنب ليس ذنبك !

ـ أعرف ذلك . غير أننى تصرفت فى الامر تصرف مجنون .. يالى من شيطان ، يالى من شيطان ! .

وراح يهز خصلة شعره وهو يتنهد . وكانت العربة تنطلق مسرعة . وكان الصباح صافيا مشرقا، وكانت شوارع فرنكفورت قد أخذت تدب فيها الحياة . وقد بدت نظيفة مريحة أكثر من ذى قبل ، ولاحت نوافذ البيوت أشد سطوعا ولمعانا . وما ان اجتازت العربة الحاجز ، حتى دوى صوت سرب من الطير وكأنه جوقة فى أعالى السماء التى لم تكن الشمس قد اضاءتها بعد .. وفجأة ، عند منعطف الطريق ، ووراء احدى أشجار الحور السامقة ، برز لهما شبح شخص أخذ يدنو منهما ، ثم توقف . وأنعم سانين النظر فيه ، وصاح

ـ رباه..انه ايمليو ! .. هل تراه يعرف عن الامر شيئا ؟

فهتف الايطالى فى حزن واسى :

ـ ألم أقل لك أننى مجنون ؟ .. لقد ظل هذا الصبى الشقى يلاحقنى باسئلته طوال الليل ، حتى اعترفت له فى هذا الصباح بكل شىء !

فقال سانين لنفسه : « أهذا هو السر عندك اذن يا بانتاليون ؟ ! » .. وما لبثت العربة أن أدركت ايمليو ، فأوقفها سانين ، ونادى الصبى . فتقدم ايمليو بخطى مترنحة ، وكان ممتقع اللون كما رآه سانين يوم أصيب بالاغماء ، حتى لقد بدا عاجزا عن الوقوف على قدميه . وسأله سانين :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ ولماذا لم تبق فى البيت ؟

فأجابه ايمليو بصوت مرتعش ، وهو يرفع يديه متوسلا :

ـ دعنى أرافقك !

وكانت أسنانه تصطك وكأنه فى حمى . وعاد يقول لسانين مستعطفا :

ـ لن أضايقك ، خذنى معك !

ـ اذا كنت تشعر نحوى بشىء من الاحترام والحب ، فعد الى البيت أو الى متجر السيد كلوبر . ولا تبح لأحد بشىء مما تعرفه ، وانتظر عودتى !

فقال ايمليو متأوها :
ـ أنتظر عودتك ؟ !

ثم استطرد ، وقد اشتد اضطرابه :

ـ ولكن اذا . .
فقاطعه سانين وهو يشير الى الحوذى :

ـ ايمليو ، ايمليو ، فكر فيما تفعل . . اطعنى يا صغيرى ، أرجوك ! . . عد الى البيت . . ألم تقل انك تحبنى ؟ اذن . .
ثم مد يده اليه ، فوثب الصبى ، وتناول يد سانين ، فرفعها الى شفتيه وهو يجهش بالبكاء ، ثم انطلق خلال الحقول عائدا الى (فرنكفورت) . واذ ذاك هتف بانتاليون :
ـ وهذا قلب نبيل أيضا !

وألقى عليه سانين نظرة استياء ، فالتصق العجوز بأعماق العربة . . وكان يحس انه مذنب ، فأخذ يسائل نفسه فى دهشة واستنكار : « أأنا شاهد مبارزة حقا ؟ . . وهل أنا الذى دبرت كل هذه الخطوات ، واستأجرت العربة ، وغادرت منزلى الهادىء فى الساعة السادسة من الصباح ؟ ! » . .
وفيما هو يعانى هذا الاضطراب ، أخذ يشعر بآلام فى فخذيه

.. فرأى سانين أن يبث فيه شيئا من الشجاعة ، فاهتدى الى خير وسيلة لذلك ، اذ أخذ يحمسه بقوله :

ـ أين بسالتك ، أيها السنيور شيباتولا ؟ .. أين .. اين الجرأة المعهودة ؟

فردد بانتاليون بصوته الاجش :

ـ الجراة المعهودة .. نعم ، الجرأة المعهودة .. ما زلت احتفظ بها !

واسترد بانتاليون شعوره بأنه انسان محترم ، فعاد يتحدث عن مهنته ، وعن الاوبرا ، وعن المغنى « التينور » جارسيا .. وما أن وصل الى (هاناوا) ، حتى كان قد استرجع عزيمته وروحه المعنوية العالية !

(ترقب العدد القادم الذى يحوى الجزء الثانى والأخير من هذه القصة الخالدة .)

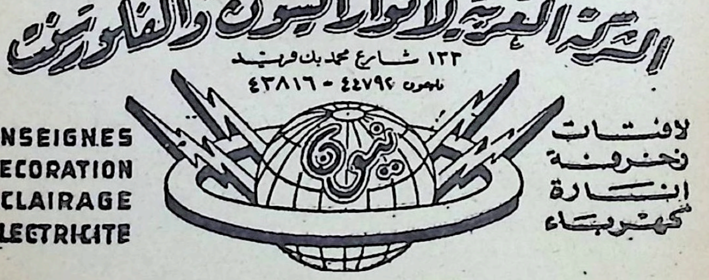

طبع بمطابع مؤسسة روز اليوسف

هذه القصة الخالدة ..

كما تذوب الثلوج فى روسيا فى الربيع ، فتترقرق مياهها الصافية فى الغدران ، بعد طول التجمد ، وتزدهر الحياة .. كذلك أذابت الذكريات جليد الكهولة ، وجمود قلب بطل القصة ، فترقرق فيه الحب القديم ، حب الربيع ، ليروى ظمأه الطويل .. ويبعث فيه أعنف خلجات ذلك الغرام الذى وشى أيامه بالسعادة ، فى كنف تلك الحسناء الايطالية التى التقى بها ذات يوم ، أثناء رحلته فى ألمانيا .. فلم يلبث قلبه أن صار نهبا لصراع موجع بين عاطفتين .. وامرأتين : إحداهما تعده بدفء العاطفة الحارة التى تشعها قلوب الايطاليات .. والأخرى تغريه بالحب العارم الذى يلهب قلبها .. قلب الروسية الثرية ، العاشقة !

فأيهما يختار .. وأيهما ينبذ ؟

ذلك ما يرويه كاتب روسيا العاطفى الأشهر "إيفان ترجنيف" فى هذه القصة الرائعة التى تدور أحداثها فى أجواء خلابة ، تنقلنا من روسيا .. إلى ألمانيا .. إلى باريس !

مطبوعات كتابى

يصدرها حلمى مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة لقصة
"ايفان ترجنيف" الطويلة

مياه الربيع

ايفان ترجنيف

مياه الربيع

الجزء الثانى

LES EAUX
PRINTANIERES
PAR

IVAN TOURGUÈNIEV

الثمن ١٢ قرشا

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب السادس والخمسون

مياه الربيع

الجزء الثانى

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وتسعون كتابا، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر.

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ستة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يرليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عدد، من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق .١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى .١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة .٤ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية ،

موجز ما نشر فى العدد السابق

عاد « سانين » الى غرفته وقد استبد به شعور بالقلق والاعياء والاشمئزاز من الحياة . وما أن صرف الخادمة حتى ارتمى على مقعد قرب المدفأة ، وأخذ يفكر فى حياته الماضية وسنوات عمره الاثنتين والخمسين التى انصرمت هباء ! .. وبعد قليل نهض من مقعده واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا . ثم اخذ ينبش أوراقه ورسائله القديمة ، وعبث بيديه فى احد الادراج دون قصد ، فاصطدمت أصابعه بعلبة صغيرة ، ما ان فتحها حتى وجد داخلها صليبا صغيرا من العقيق !.. وفجأة عادت الى ذاكرته احداث انقضت منذ مدة طويلة :

***

كان سانين فى الثانية والعشرين ، حين مر بمدينة (فرانكفورت) فى طريق عودته من ايطاليا الى روسيا . واذ كان أمامه وقت طويل يجب ان يقضيه قبل موعد قيام القطار ، فقد اخذ يتسكع فى شوارع المدينة على غير هدى . وفجأة لمح فى أحد الشوارع لافتة عليها عبارة : (حلوى ايطالية . « جيوفانى روزيلى ») . فدخل ليشرب كأسا من شراب الليمون . غير أنه لم يجد أحدا فى الحانوت . وفجأة اندفعت من الغرفة الداخلية للحانوت فتاة فى التاسعة عشرة ، بارعة الجمال ، لم تكد تلمحه حتى هرعت اليه وجرته الى داخل الغرفة مستنجدة !

وهناك رأى «سانين» فتى فى نحو الرابعة عشرة ، مستلقيا على اريكة قديمة ، فاقد الوعى . وأخذت الفتاة تندب أخاها قائلة انه كان يتحدث اليها منذ لحظة ، واذا به يسقط فجأة بلا حراك . ثم استدارت نحو رجل عجوز ، قصير القامة ،

وسألته بالايطالية عما اذا كان قد استدعى طبيبا ؟ .. فأجابها بقوله انه أرسل الخادمة « لويزا » للطبيب !

واذ ذاك طلب سانين من العجوز « بانتاليون » ان يحضر له فرشاة ، واخذ يدلك بها صدر الفتى ويديه بكل قوته .. فلم يمض وقت طويل حتى أفاق الفتى وعادت الدماء الى وجهه الشاحب ! .. وفى تلك اللحظة ، دلفت الى الغرفة سيدة عجوز يعلو وجهها الاسمر شعر أبيض بلون الفضة ، واخذت تستفسر فى قلق وجزع عن جلية الامر . ثم دخل وراءها طبيب كهل تقدم نحو الفتى وكشف عليه . ولما رأى الفرشاة قال أن عملية التدليك التى قام بها سانين قد انقذت حياة الفتى ، فاندفع الجميع نحو « سانين » معربين له عن مدى تقديرهم وامتنانهم . وطلبت منه الفتاة الجميلة – التى كانت تدعى « جيما » – ان يعود الى منزلهم بعد ساعة ، حتى تتمكن أمها « مدام روزيلى » من أن تشكره على ما اسداه اليهم من يد ؛ فلم يجد « سانين » مفرا من القبول !

وعاد سانين بعد ساعة ونصف الى الحانوت ، حيث استقبل بترحيب حار .. وقدمت له « جيما » كأسا كبيرة من الشيكولاته ، واخذت « مدام روزيلى » تجاذبه أطراف الحديث ، فلم يمض وقت طويل حتى كان سانين يعرف جميع أحداث حياتهم .. لقد حضر زوجها «جيو فانى روزيلى» الى فرانكفورت منذ خمسة وعشرين عاما ، حيث افتتح حانوتا لبيع الحلوى ، وانجب الفتاة « جيما » والفتى « ايميليو » ، الذى أنقذ « سانين » حياته اليوم !

ثم تعرف « سانين » الى « بانتاليون » ، الذى كان فيما مضى مغنيا فى الاوبرا ، لكنه ختم حياته الفنية منذ مدة

طويلة ، وأصبح صديقا للأسرة وخادما لها فى نفس الوقت !
وبعد فترة احس «سانين» انه كان بين أفراد تلك الأسرة كأنه فى بيته ، فأخذ يجيب على أسئلة الام المختلفة ، ويمدهم بالمعلومات الصادقة والدقيقة عن وطنه (روسيا) .. وانتهت السهرة بأن قام « بانتاليون » بتمثيل دور كان يقوم به على المسرح فى ايطاليا ، ثم أخذت «جيما» تقرأ مقطوعات فكاهيه للشاعر الألمانى « مالتس » .. وكان « سانين » لا يكل من الاعجاب بتلك القارئة الفاتنة ، حتى غاب عن ذهنه أن يلحق بقطار الساعة العاشرة ! .. ومن ثم قرر أن يبقى فى (فرانكفورت) ويبعث الى صديق له فى برلين كى يقرضه بعض المال !
وفى اليوم التالى ، زار سانين فى فندقه الفتى « ايميليو » ، بصحبة شاب طويل القامة ، انيق الهندام ، مصفف الشعر ، قدم نفسه اليه قائلا انه « كارل كلوبر » خطيب جيما ، وانه يعمل مدير الباعة فى محل (الزابل) . وقد جاء ليقدم لسانين احترامه وليعبر عن شكره للسيد الغريب الذى أسدى الى شقيق خطيبته خدمة لا تنسى ! .. ثم دعاه الى ان ينضم اليهم فى رحلة قرروا القيام بها صباح يوم الأحد الى بلدة (سودن) ، وهى ضاحية من ضواحى (فرانكفورت) .
وقبل « سانين » الدعوة ، وانسحب « كلوبر » مختالا فى ثيابه الزاهية ، تاركا « ايميليو » الذى آثر ان يقضى بعض الوقت مع سانين ، بعد اذ افتتن به الفتى أشد الافتتان ، واحس برغبة قوية تدفعه الى البوح اليه بأسراره .. وبالفعل افضى الى صديقه الجديد برغبته فى العمل على خشبة المسرح ، غير أن أمه ـ بتحريض من السيد كلوبر ، خطيب جيما ـ كانت تهيؤه للعمل فى التجارة !

وفى يوم الأحد ، استقل سانين بصحبة جيما والسيد كلوبر وايمليو والعجوز بانتاليون عربة أقلتهم الى (سودن) ، حيث قاموا بنزهة طويلة على الأقدام . فلما أزفت ساعة الظهيرة قصدوا الى أحد المطاعم .. وبينما كان سانين يراقب « جيما » وهى تتناول الطعام فى صمت ، لاحظ عددا من الضباط يجلسون الى مائدة مجاورة وقد أفرطوا فى تناول الشراب ، فكان أحدهم لا يحول بصره عن « جيما » ، وبدا كأن جمالها قد بهره !.. وفجأة نهض عن مقعده واقترب من مائدة سانين ، ممسكا كأسه فى يده ، وصاح قائلا : « أشرب نخب أجمل بائعة عصير ليمون فى فرانكفورت ، وفى العالم بأسره ! » ، ثم اختطف وردة كانت على المائدة أمام جيما !

وكان التصرف الطبيعى الذى تنتظره جيما من السيد كلوبر ، بوصفه خطيبها ، ان يرد على تلك الاهانة التى وجهها الضابط اليها .. غير انه اكتفى بأن نهض عن المائدة وأمر باعداد العربة تأهبا للانصراف ! .. لكن سانين تقدم نحو مائدة الضباط واخذ يلومهم على ذلك التصرف الذى لا يليق بمرتبتهم ، ثم قدم لهم بطاقته وعنوانه وقال للضابط الذى أهان « جيما » انه سوف يكون على استعداد لمبارزته فى الوقت الذى يشاء !

وتظاهر السيدكلوبر بأنه لم يلحظ ما فعله سانين ، وأخذ يستحث الحوذى على الاسراع فى اعداد العربة ! .. وبدا واضحا أن « جيما » كانت تعانى ألما نفسيا شديدا ، وتولاها شعور بالخزى تجاه خطيبها ، حتى لم تعد تطيق الاستماع الى حديثه ، وراحت ترنو الى « سانين » بنظرات متوسلة ، دون أن تنبس بكلمة !

وفى اليوم التالى زار أحد أولئك الضباط « سانين »

واتفق معه على شروط المبارزة.. وكان على سانين ان يحضر شاهدا معه ، ولما كان لا يعرف احدا فى المدينة ، فقد هداه تفكيره الى أن يعهد بتلك المهمة الى «بانتاليون» ، الذى تردد فى القبول بعض الوقت ، غير انه وافق اخيرا ، وقد عاد الى ذاكرته الدور الذى كان يقوم به على المسرح ! .. وطلب منه سانين ان يكتم الامر عن جيما وباقى أفراد الأسرة !

وفى المساء قضى « سانين » بعض الوقت فى زيارة أسرة « روزيلى » ، فأخبرهم انه قد سوى الامر مع الضابط وانه لن تكون هنالك أية مبارزة . وعند انصرافه راى احدى نوافذ المنزل تفتح وصوت هامس يناديه باسمه ، فاقترب من مصدر الصوت واذ ذاك لمح جيما واقفة فى النافذة : وقالت له انها ظلت طوال النهار تريد أن تعطيه شيئا ، لكنها لم تجرؤ .. ثم عجزت عن متابعة الكلام . وفى تلك اللحظة هبت ريح عاتية وزمجر الرعد ، فسرى الخوف الى قلب جيما وتشبثت بكتفيه ، ثم ادنت راسها من وجهه ، فلم يملك سانين أن مر بشفتيه على خصائل شعرها التى دفعتها الريح فوق صدره .. واذ ذاك مدت الفتاة يدها الى صدرها وأخرجت وردة ذابلة دفعت بها اليه .. وتبين سانين انها كانت الزهرة التى استردها من الضابط !

وفى فجر اليوم التالى خرج سانين وبانتاليون ، الذى ارتدى ملابس انيقة تليق بشاهد المبارزة ، فى طريقهما الى الغابة حيث مكان اللقاء بين سانين وغريمه الضابط .. وفى الطريق خانت بانتاليون شجاعته وأخذ يلوم نفسه على قبوله القيام بهذا الدور .. غير أن سانين أخذ يبث فيه شيئا من الشجاعة والحماسة .

والآن تستطيع أن تتابع قراءة بقية القصة :

مياه الربيع

- ٢٢ -

كان المكان الذى تقرر أن تجرى فيه المبارزة يبعد عن (هاناوا) مسافة ربع ميل . وكان الرجلان ــ كما توقع بانتاليون ــ أول الواصلين. فتركا العربة عند طرف الغابة ، وتوغلا فى الظل الكثيف الذى يخيم بين الأشجار المتراصة . وراحا ينتظران ما يقرب من الساعة .. ولم يشعر سانين بطول الوقت . اذ طفق يتمشى فى الممر الضيق مصغيا الى تغريد العصافير ، ويتابع بنظره طيران الفراشات الصغيرة ، محاولا الا يفكر فى شىء البتة : على عادة أكثر الروس فى مثل هذه الظروف !

وفجأة لمح احدى أشجار الزيزفون منقلبة على الأرض ، وقد حطمها أعصار البارحة على ما يبدو ، فدفعه منظرها الى أن يفكر متأملا : «ان الشجرة تموت، وأوراقها تجف !». ثم تساءل : « ترى أهذا نذير شؤم ؟ ». ثم أخذ يصفر ويقفز فوق شجرة الزيزفون ، متابعا سيره فى الممر الضيق . وكان بانتاليون يتململ ويتذمر ، ويهاجم الألمان وهو يحك ظهره ويديه . وكان الانفعال يجعله يتثاءب ، فكان التثاؤب يضفى على وجهه الصغير المتجعد منظرا مضحكا . وكان سانين ــ اذ ينظر اليه ــ لا يسعه أن يكتم ضحكاته الا بصعوبة ومشقة .. وما لبث الرجلان ــ آخر الأمر ــ ان سمعا قرقعة عجلات على الطريق الرئيسى. فصاح بانتاليون قائلا : «لقد وصلا!». وراح ينصت الى صوت العربة ، وقد نصب قامته فى عصبية سرعان ما عللها ببرودة الصباح ، فقال : «انه لبرد شديد!».

وكانت أعشاب الارض وأوراق الأشجار مبللة بندى غزير ، وكان الدفء قد بدا يتسلل الى الغابة !

وان هى الا لحظات حتى وصل الضابطان ، يتبعهما رجل بدين قصير ، يدل مظهره على البرود حتى ليوشك أن يكون نائما ! .. لقد كان طبيب الفرقة . وكان يحمل باحدى يديه أبريقا مملوءا بالماء ، وقد علق على كتفه اليسرى كيسا متدليا يحتوى على أدوات الجراحة ولفائف التضميد. وكن يسهل على من يراه أن يدرك أنه قد ألف ذلك النوع من النزهات ، وأن تلك السفريات الصباحية كانت تدر عليه أكثر أرباحه ، اذ كان يتقاضى عن كل مبارزة ثمانية جنيهات ، يدفع كل من المتبارزين نصفها . وكان السيد فون ريشتر يحمل صندوق المسدسات . أما السيد فون دنهوف ، فكان يمسك بسوط راح يديره بيده ، وكان واضحا أنه انما يفعل ذلك من قبيل الأناقة .. وهنا همس سانين فى أذن رفيقه :

ـ اسمع يا بانتاليون ، اذا سقطت ـ وكل شىء يمكن أن يحدث ـ فان فى جيبى لفافة صغيرة فيها زهرة.. فأرجو أن تحملها الى الآنسة جيما.هل فهمت ؟ أتعدنى بأنك ستنفذ وصيتى ؟

فنظر اليه الايطالى العجوز نظرة حزينة ، وهز رأسه كأنما ليقول « نعم » . لكن الله وحده يعلم ما اذا كان قد فهم حقا ما طلبه منه سانين !

وتبادل الخصمان والشاهدان التحية المتعارف عليها . وكان الطبيب هو الشخص الوحيد الذى لم يكلف نفسه

حتى عناء تقطيب حاجبيه ، فقد جلس على العشب وهو يتثاءب كأنه يقول : ((أنا لا أهتم كثيراً بهذا التصنع !)) ..
واقترح السيد فون ريشتر على السيد تشيب دولا ان يختار الموقع ، فأجابه هذا بلغة متعثرة : ((افعل ما بدا لك ، وسأنظر فى الامر !)) . فبادر السيد فون ريشتر يبحث فى الغابة عن مكان للمبارزة ، فاكتشف بقعة تغطيها الأزهار ، فعكف على قياس المسافة بخطاه ، وتعيين الحدود بقطعتين من الخشب غرسهما فى ذلك المكان نفسه . ثم أخرج المسدسين من الصندوق ، وجلس القرفصاء ، فشحنهما بالرصاص . وبدا انه يحمل نفسه كثيرا من العناء ، اذ كان لا ينقطع عن تجفيف العرق المتصبب من وجهه بمنديله الابيض . وكان بانتاليون يتابعه خطوة بخطوة ، ويبدو عليه أنه يعانى بردا شديدا .. وفى تلك الاثناء ، كان الخصمان يقف كل منهما بعيدا عن الآخر ، كأنهما تلميذان عاقبهما المعلم لذنب اقترفاه !

وجاءت اللحظة الفاصلة . فاتجه السيد فون ريشتر الى بانتاليون قائلا له انه ، بوصفه أكبر الشاهدين سنا ، يقع عليه – وفقا لقوانين المبارزة – عبء دعوة الخصمين ، قبل اطلاق الاشارة ، الى المصالحة . واستطرد يقول :

– ان هذا الاقتراح ، وان يكن يرفض دائما ، الا انه يحرر نفسك من التبعة نوعا ما ، حين تقوم بهذا الاجراء الشكلى .. وقد جرت العادة على أن يضطلع بهذه المهمة ((الشاهد المحايد)) ، اما وأننا يعوزنا مثل هذا الشاهد ، فاننى اتنازل عن هذه الميزة لزميلى المحترم !

على أن بانتاليون الذى كان قد استطاع أن يحتمى وراء دغل من الأدغال حتى لايرى الخصم ، لم يفهم ، فى أول الأمر ، شيئا من خطاب السيد فون ريشتر ، خاصة وأن الضابط الشاب كان يخرج الكلام من أنفه . لكن بانتاليون ما لبث أن وثب من مكانه ، وتقدم الى الامام بسرعة ، وضرب على صدره عدة مرات ، وهو يصيح بصوت أجش :

ـ هـ..هـ .. يا .. هيا !.. هذا عمل وحشى !.. فحرام أن يقتتل شابان مثلكما..ان هذا من وسوسة الشيطان .. هيا .. هيا !

فسارع سانين يقول :

ـ اننى ارفض اية مصالحة !

ـ وانا كذلك !

اذ ذاك أصدر فون ريشتر أمره الى بانتاليون الذى طاش صوابه :

ـ اطلق اذن اشارة بدء المبارزة !

فهرع الايطالى بسرعة الى ما وراء الدغل ، ومن هناك ، وقد انحنى نصفين ، واغمض عينيه ، واشاح بوجهه ، صاح يقول فاغرا فاه : « واحد .. اثنين .. ثلاثة ! » . **فأطلق سانين رصاصة قبل خصمه ، ولكنه أخطأ واستقرت الرصاصة فى جذع شجرة . وأطلق البارون رصاصة بعد سانين فورا ، ولكنه تعمد أن يطلقها فى اتجاه جانبى ، وفى الهواء !** .. وساد الصمت لحظة ، لم يتحرك أحد خلالها . ثم اطلق بانتاليون زفرة خفيفة . وقال دنهوف :

– هل يجب أن استمر ؟
– لماذا أطلقت الرصاص فى الهواء ؟
– هذا أمر لا يخصك ..
– وهل ستطلقه فى الهواء مرة اخرى ؟
– ربما .. لا ادرى !
وتدخل شاهد البارون بين الفريمين قائلا :
– معذرة ايها السيدان ، معذرة.. فانه لايجوز للمتقاتلين أن يتبادلا الكلام فى موقع المبارزة .. فذلك مخالف للقواعد !
فقال سانين :
– انا اتنازل عن طلقتى الثانية !
ثم القى بمسدسه على الأرض.واذ ذاك ، هتف دنهوف :
– وانا ايضا !
والقى بسلاحه بدوره على الأرض ، ثم أضاف :
– **الآن أستطيع أن أعترف بأننى أخطأت فى ذلك اليوم !**
وبعد تردد قصير ، مد يده بحركة غامضة نحو سانين ، فاقترب الشاب الروسى من خصمه ، وصافحه . وتطلع الشابان كل منهما الى الآخر ، وابتسما ، ثم احمرت وجنتاهما . فصاح بانتاليون كالمسعور ، وهو يضرب كفا بكف : « مرحى ، مرحى ! » . وهرع مرتعشا نحو الدغل ، بينما كان الطبيب الذى جلس على جذع مقلوب ، ينهض من مكانه ، ويفرغ جرة الماء ، ويتجه نحو الطريق بخطوات متراخية .. وهنا قال فون ريشتر : « لقد ارضى الشرف ، وانتهت المبارزة ! » .

وبعد أن تبادل سانين التحية مع الضابطين ، استقل عربته. وكان يحس ـ دون أن تكتنف شعوره لذة او غبطة ـ أنه اكثر ارتياحا ورضى مما كان ، شأنه فى ذلك شأن من فرغ من عملية جراحية أجريت له . ولكن شعورا بالعار كان بعكرعليه ـ مع ذلك ـ صفاء نفسه. لقدكانت المبارزة تمثيلا ، وكذبا ، وتواطؤا ، وسخفا ، وكأنها مجرد مزاح طالب أو ضابط .. وتذكر الطبيب البارد القلب ، وتصور ابتسامته وهو ينظر اليهما بعد المبارزة ؛ وقد اوشكت ذراعاهما أن تتعانقا !..وتذكر بانتاليون وهو ينقد الطبيب اربعة جنيهات .. لقد كان الامر كله خاليا من الجد !

وكان سانين لا يشعر بشىء من الاعتزاز . ولكن ، ماذا كان عساه ان يصنع ؟ اتراه كان يستطيع أن يسكت على وقاحة الضابط الشاب ؟ .. أكان يمكنه أن يتصرف تصرف كلوبر ؟ .. لقد دافع عن جيما ، وانتقم لها ، ومع ذلك كان لا يزال يشعر بضيق وانقباض فى نفسه . أما بانتاليون فقد أحس بالنصر ، واستولى عليه الزهو فجأة ، حتى بدا كقائد مظفر ينظر حوله فى رضى واعتداد . **فراح يثنى على سلوك سانين أثناء المبارزة ، فى كثير من النشوة والحماسة . وكان يسميه بطلا ، وهو يصم أذنيه عن اعتراضات الشاب ، ثم أخذ يشبهه بتمثال من المرمر أو البرونز ، بل بتمثال القائد فى ((وليمة بطرس)) !** .. واعترف بأنه ، قد شعر هو نفسه بشىء من الانفعال. وقال لصديقه : ((انا فنان عصبى .. اما انت ، فابن الثلوج وصخور الجرانيت !)) . واصبح سانين

لا يدرى ماذا كان عليه أن يصنع حتى يهدىء هـذا « الفنان العصبى المزاج» الذى كانت حماسته لاتنفك تزداد اشتعالا !

وعلى مقربة من المكان الذى التقيا فيه بايمليو منذ ساعتين ، خرج اليهما الصبى مرة اخرى من وراء الاشجار. وكان يلوح لهما بقبعته هاتفا فى بهجة وفرح ، وظل يثب حتى وصل الى العربة ، فلم ينتظر حتى تتوقف الجياد ، بل قفز الى داخل العربة من الباب ، معرضا نفسه للسقوط بين العجلات ، فلما صار فى الداخل ، دنا من سانين ، وقال له ، فى نفس واحد :

ـ انت حى ؟ .. ألم تجرح ؟ .. سامحنى .. لم اطعك ! .. لم أذهب الى فرنكفورت .. اننى لم أقو على ذلك . انتظرتك هنا .. احك لى .. ما الذى حدث ؟ هل قتلته ؟

ولم يستطع سانين أن يهدىء من روع الصبى ، وأن يجلسه الى جانبه الا فى كثير من العناء . وأخذ بانتاليون يشرح للصبى تفاصيل ما وقع ، فى حماس بالغ ، وفرح ظاهر ، ولم ينس أن يشبه سانين بتمثال القائد..ثم نهض ، وباعد ما بين قدميه حتى لا يختل توازنه ، وشبك ذراعيه ، ملقيا نظرة متعالية من فوق كتفه ، ومثل وقفة « القائد » سانين . فكان ايمليو يصغى الى حديثه فى اهتمام المتعبد ، وكان فى بعض الاحيان يقاطعه بصيحة اعجاب ، أو ينهض عن مكانه بقفزة سريعة ليقبل صديقه البطل !

وجرت العربة فى شوارع فرنكفورت حتى توقفت أخيرا عند باب الفندق الذى يسكنه سانين . وفيما كان سانين

يجتاز الطابق الثانى ومعه صديقاه ، رأى فى عتمة الدهليز شبح امرأة محجبة الوجه ، تسرع الخطى . فلما أصبحت أمامه ، تباطأت، وترددت، ثم زفرت ، وهرعت الى الشارع، فاختفت فيه ، على دهشة من الخادم ، الذى قال لسانين :

ـ ان هذه السيدة تنتظركم منذ أكثر من ساعة !

وعرف سانين انها جيما ، فقد لمح عينيها من وراء نقابها الحريرى الملون الذى أسدلته على وجهها. فقال مستاء ، وهو يوجه سؤاله الى ايمليو والى بانتاليون الذى كان ما يزال يقف وقفة المنتصر :

ـ هل الآنسة جيما على علم بشىء ؟

فاحمر وجه الصبى ، وقال مضطربا :

ـ لقد اضطررت ان اقص على شقيقتى كل شىء ، اذ كانت قد حدست الأمر .. وأى ضير فى هذا الآن ، مادام كل شىء قد انتهى على خير ما يرجى ، وما دامت قد رأتك سليما لم يمسك سوء ؟ !

فأشاح سانين بوجهه ، ثم قال بلهجة ملؤها الأسف :

ـ ان هذا لا ينفى أن كليكما ثرثار لا يؤتمن على سر !

ثم دلف الى غرفته ؛ وجلس على أحد المقاعد . وقال له ايمليو متوسلا :

ـ لا تغضب .. أرجوك .. أتوسل اليك !

ـ حسنا .

والحق أن سانين لم يكن غاضبا ، ولم يسئه ـ فى قرارة نفسه ـ أن علمت جيما بما جرى . ولكنه قال لصديقه :

ـ كفى الآن .. أتركانى وحدى ، فأنى فى حاجة الى النوم

وصاح بانتاليون :

ـ فكرة عظيمة ! .. انك لتستحق الراحة حقا ، أيها السيد النبيل . هيا بنا يا ايمليو على أطراف أصابعنا !

وحين قال سانين انه يريد أن ينام ، كان يتعلل بهذه الحجة ليتخلص من رفيقيه ، ولكنه ما أن صار وحيدا ، حتى شعر بتعب شديد بالفعل ـ اذ انه لم يغمض له جفن طوال الليلة البارحة ـ فارتمى على فراشه ، وسرعان ما راح فى سبات عميق !

ـ ٢٣ ـ

نام سانين عدة ساعات متواصلة . ورأى فيما يرى النائم انه يقتتل مرة اخرى فى مبارزة ، ولكنه كان ينازل ، فى هذه المرة : السيد كلوبر نفسه . وقد رأى على شجرة ، تظل راس خصمه ، ببغاء لها راس بانتاليون ، وقد اخذت تردد بصوت حاد : توك .. توك .. واذا بسانين يسمع مرة اخرى تلك الضربات المتميزة . فلما فتح عينيه ، ورفع رأسه ، ادرك أن هناك من كان يطرق الباب . فصاح : « ادخل ! » . فدخل الخادم ، وأنبأه أن بالباب سيدة تحرص على أن تراه حتما . وقال سانين بينه وبين نفسه : « انها جيما » . لكن السيدة لم تكن جيما ، بل أمها .. وتهاوت السيدة ليونور على مقعد ، واخذت تجهش بالبكاء . فسألها سانين :

ـ ماذا بك يا سيدتى العزيزة الطيبة ؟

ثم جلس بجوارها ، وهو يشد على يديها فى تودد . وعاد يسألها :

ــ ما الذى حدث ؟ هدئى من روعك ، أرجوك ..

ــ يا سيد ديمترى ، أنا .. أنا تعيسة .. تعيسة جدا !

ــ أنت تعيسة ؟ !

ــ كل التعاسة ! .. هل كان فى وسعى أن أتوقع ذلك ؟ .. لقد وقع فجأة ، مثل برق خاطف فى سماء صافية !

وكانت السيدة ليونور تتنفس بصعوبة . فهتف الشاب منزعجا :

ــ ولكن ما الذى حدث ؟ قولى .. هل تريدين كوبا من الماء ؟

ــ شكرا لك .

وما لبثت أن مرت بمنديلها على عينيها ، وقد عاودها البكاء ، وقالت :

ــ إننى أعرف كل شىء .. كل شىء !

ــ كل شىء ؟ .. ماذا تعنين ؟

ــ كل ما وقع اليوم . وأعرف السبب أيضا .. لقد تصرفت أنت تصرفا فيه نبل ، وشهامة ، ومروءة .. ولكن يا لنا من ظروف سيئة ! .. ليتهم اتبعوا نصيحتى .. لقد عارضت فى أمر تلك الرحلة الى سودن !

والواقع أن السيدة ليونور لم تعارض فى أمر تلك النزهة مطلقا ، ولكنها توهمت ــ فى تلك اللحظة ــ بأنها أوجست عندئذ شرا .. واستطردت تقول :

– اننى أجىء اليك الآن ، لأننى أعتقد انك رجل تفيض نفسك نبلا ، وانك صديق ، رغم اننى لم نعرف بك الا منذ خمسة ايام .. ولكننى ارملة وحيدة .. ان ابنتى ..

وخنقت العبرات صوتها . ولم يعرف سانين ما عسى ان يكون معنى هذه المقدمة الطويلة . فسألها :

– ابنتك ؟

– ابنتى جيما .. (**قالت السيدة روزيلى ذلك متأوهة ، دون أن تبعد عن فمها منديلها المبتل بالدموع**) . ابنتى جيما صرحت لى اليوم بأنها أصبحت لا ترغب فى السيد كلوبر خطيبا لها . وقد كلفتنى انا بأن انقل الى السيد كلوبر قرارها هذا ، فى هذا اليوم نفسه !

ولم يستطع سانين ، حين سمع هذا الكلام ، أن يكبح ارتعاشة خفيفة سرت فى جسمه ، اذ انه لم يكن يتوقع هذا النبأ قط . واردفت السيدة ليونور تقول :

– **أن هذا عار للاسرة .. لم يسمع أحد بمثل هذا أبدا : فتاة مخطوبة تفسخ الخطبة !.. ثم ان هذا العمل ، يا سيد ديمترى ، ليس بالنسبة الينا عارا فحسب ، بل هو أيضا دمار !**

وراحت تفرك منديلها حتى صار كالكرة ، كأنما لتخفى فيه كل المها .. واردفت تقول :

– اصبحنا لا نستطيع أن نعيش مما يدره علينا الحانوت .. والسيد كلوبر رجل ثرى فعلا ، وله فى عمله آمال كبار .. ولكن ، لماذا اصبحت لا تريده ؟ ألأنه لم يدافع عنها ؟..

انني أسلم لك بأن ذلك لم يكن جميلا منه . ولكن السيد كلوبر رجل مدنى ، وصفته التجارية قد تسمح له بأن يستهين بعمل صبيانى بسيط يصدر عن ضابط صغير لا يعرفه .. أين الاساءة فى هذا يا سيد ديمترى ؟

ــ عفوا يا سيدة ليونور ، ولكننى أحس أنك تأخذين على مسلكى الذى ..

ــ أنا ؟ لا .. هذا شىء آخر .. أنت رجل عسكرى ، كسائر الروس !

ــ عفوا ..

ــ ثم انك غريب ، وسائح .. وأنا شاكرة لك كل الشكر !

قالت السيدة روزيلى ذلك ، دون أن تصغى الى سانين . وكانت تفيض ألما وتأتى بحركات مضطربة ، وقد راحت تنشر منديلها لتجفف به انفها . وكان من السهل على المرء أن يلاحظ ــ من مجرد تعبيرها عن جزنها ــ انها لم تولد تحت سماء شمالية ! .. وما لبثت ان قالت :

ــ وكيف تريد للسيد كلوبر أن ينجح فى تجارته ، اذا كان يبارز زبائنه ؟ ليس من الحكمة أن نطالبه بشىء كهذا .. وها أنذا الآن مطلوب منى أن اطرده .. ولكن من أين سنعيش ؟ .. لقد كنا فى الماضى نحتكر صناعة بعض أنواع الحلوى . . أما الآن ، فجميع بائعى الحلوى يصنعون ما نصنع .. فكر فى كل ما سيقوله الناس فى المدينة عن هذه المبارزة .. فهل تخفى فضيحة كهذه ؟ وفضلا عن هذا ، هناك خطبة تفسخ .. هذه فضيحة كبرى ، فضيحة كبرى ! ..

أن جيما فتاة جميلة ، وهى تحبنى كثيرا ، ولكنها جمهورية النزعة وعنيدة ، ولا يصعب عليها أن تخرج على آراء الناس، وأنت الشخص الوحيد الذى يمكن أن يكون له تأثير عليها !

وازدادت دهشة سانين حين سمع هذا الكلام فقل :

ـ أنا ، يا سيدة ليونور ؟

ـ نعم ، ليس هناك غيرك .. أنت وحدك الذى يستطيع أن يردها الى صوابها .. انت رجل ذكى شهم ، وقد دافعت عنها ، فستصدق كل ما تقوله لها .. ويجب عليها أن تطيعك .. لقد عرضت حياتك للخطر فى سبيلها ، وستقنعها بخطأ رأيها . وقد سبق أن انقذت حياة ابنى ، فأنقذ الآن ابنتى .. لقد أرسلك الله الينا .. أتوسل اليك راكعة !

وهمت بأن تنهض عن مقعدها ، كأنما لتركع على الارض. فأمسك بها سانين ، واجلسها قائلا :

ـ سيدة ليونور ، ماذا تصنعين ؟

فتشبثت السيدة ليونور بيدى الشاب تشبثا عصبيا ، وهى تقول :

ـ هل تعدنى ؟

ـ ولكن يا سيدة ليونور .. مهلك لحظة .. كيف تريدين أن ..

ـ لا ، لا .. عدنى، اذا كنت لاتريدنى أن أموت عند قدميك!

ولم يعرف سانين ماذا يفعل ، فتلك كانت أول مرة يقف فيها أمام الدم الايطالى وهو يغلى ويفور . فقال :

ـ سأفعل كل ما تريدين . سأكلم الانسة جيما .

وما ان سمعت السيدة ليونور هذا الوعد ، حتى اطلقت صيحة فرح . فأضاف سانين يقول :

ــ ولكننى لا اضمن النتيجة ، طبعا !

فقالت السيدة ليونور ضارعة :

ــ لا تضن على بمساعدتك .. لا تضن على بمساعدتك ! .. لقد وعدتنى ، وستنجح .. انا لا أستطيع أن أفعل شيئا .. انها لم تعد تصغى الى كلامى ، ولا تطيعنى .

فسألها سانين بعد لحظة صمت :

ــ هل صرحت لك تصريحا جازما قاطعا بأنها لا تريد أن تتزوج من السيد كلوبر ؟

ــ قطعت فى الامر بسكين..انها صورة من أبيها جيوفانى باتيستا .. انها رهيبة !

ــ رهيبة ؟ .. الآنسة جيما رهيبة ؟ !

ــ نعم .. انها شيطان .. ولكنها فى الوقت نفسه ملاك ! .. لسوف تطيعك .. ستأتى الينا حالا ، أليس كذلك ؟ تعال حالا ، يا صديقى العزيز ، تعال حالا ، يا صديقى الروسى الكريم !

ونهضت السيدة ليونور فى عنف ، وتناولت رأس الشاب وهى تقول :

ــ هاانذا اباركك كأمك .. اعطنى الآن قليلا من الماء !

وقدم سانين للسيدة روزيلى كأسا من الماء ، ووعدها باللحاق بها دون ابطاء ، ثم شيعها حتى الشارع ، وعاد الى غرفته ، وقد استبدت به الدهشة . وراح يقول لنفسه :

« هاهى ذى الحياة قد بدأت تعصف كزوبعة ! ». ولم يحاول ان يحلل مشاعره ؛ ولا ان يغوص الى ما يعتمل فى نفسه . ودمدمت شفتاه على غير ارادة منه : « ياله من يوم ! .. شيطانة .. وعلى انا ان اقدم لها النصح ، وأى نصح ؟! » . ودار راسه .. ووسط هذا الخضم من الاحاسيس المتضاربة والافكار الممضة التى طفقت تحاصره ، كانت صورة جيما تبرز بغير انقطاع ، منقوشة فى ذاكرته الى الابد ، كما رآها فى تلك الليلة العاصفة ، وسط اطار النافذة المعتمة ، تحت اشعة النجوم المتلألئة !

- ٢٤ -

اقترب سانين من بيت السيدة روزيلى بخطى مترددة . وكان فى قلبه وجيب شديد ، حتى انه كان يحس بضرباته ويسمعها بين ضلوعه ! ..

ترى ماذا يقول لجيما ؟ وكيف يفاتحها فى الامر ؟ .. وأخذ يجول فى البيت بدلا من أن يدلف الى الحانوت ، فالتقى فى حجرة المدخل بالسيدة ليونور ، التى سرت بمجيئه سرورا بالغا ، وان شابه شىء من التوجس فى الوقت نفسه .

وقالت له بصوت خافت ، وهى تشد على يديه بحرارة :

— لقد انتظرت مجيئك . اذهب الى الحديقة .. انها هناك . ولا تنسى اننى أعقد عليك رجائى كله !

ومضى سانين الى الحديقة . وكانت جيما تجلس على مقعد فى ممر بين الاشجار ، وهى تتناول من سلة كبيرة

امامها انضج ثمار الكرز ، ثم تضعها فى احد الاطباق . وكانت الشمس تميل الى الغروب ، والساعة قد تجاوزت السادسة ، والاشعة الكبيرة المائلة التى ترسلها الشمس وتغرق بها الحديقة أقرب الى اللون الارجوانى منها الى الذهبى . وكانت أوراق الاشجار تتهامس فى بعض الاحيان بصوت خافت غير متعجل ، وبعض النحل ما يزال يدندن متواثبا من زهرة الى أخرى . وعن بعد، يمامة تسجع سجعا رتيبا لا يكل . وكانت جيما تضع على رأسها تلك القبعة نفسها التى ارتدتها يوم ذهابها الى (سودن) .. ونظرت الى سانين من تحت الحافة المطوية لقبعتها ، ثم مالت على السلة التى امامها من جديد . وتمهل سانين فى سيره حتى اقترب من جيما ، فلما أصبح أمامها سألها قائلا :

ـ لماذا ترفعين هذه الثمار ؟

ولم تجبه الفتاة على الفور ، ولكنها قالت أخيرا :

ـ هذه الثمار أنضج من الاخرى ، فنحن نصنع منها مربى ، وندع الاخرى للفطائر .

وزادت جيما فى خفض رأسها ، بينما ظلت يدها اليمنى ، التى تحمل كرزتين ، معلقة فى الهواء بين السلة والطبق . فقال لها سانين :

ـ هل تسمحين لى بالجلوس الى جانبك ؟

ـ بكل سرور .

ثم افسحت له مكانا ، فجلس بجوارها .. وسأل الشاب

نفسه : « كيف أبدا ؟ » ، لكن الفتاة ما لبثت أن خلصته من الحرج ، اذ سألته :

ـ هل كنت تتبارز اليوم ؟

ورفعت نحوه وجهها وقد تخضب بحمرة شديدة من فرط الاضطراب والخجل ، لكن عينيها كانتا تفيضان بمعانى الشكر .. واردفت :

ـ وتبدو مع ذلك على هذا القدر الكبير من الهدوء ؟! .. اليس للخطر من وجود عندك اذن ؟

ـ ولكننى لم أتعرض لأى خطر .. لقد جرت الامور كلها على أيسر وجه !

فرفعت جيما أصبعها ، وأخذت تحركها أمام عينيها ذات اليمين وذات اليسار ـ كما يفعل الايطاليون ـ وهى تقول :

ـ لا ، لا ، لا تقل هذا ، لن تخدعنى ! .. لقد قص على بانتاليون كل شىء !

ـ وهل تصدقين ما قصه بانتاليون ؟ ألم يشبهنى بتمثال القائد ؟

ـ ربما كان تعبيره عن عواطفه مضحكا ، ولكن عواطفه نفسها ليست مضحكة ! .. أكل ذلك من اجلى انا ؟ من اجلى انا ؟ .. اننى لن انسى هذا ما حييت !

ـ أؤكد لك يا آنسة جيما ..

ـ لا ، لن أنساه ما حييت !

وكانت تتكلم وهى تضغط على كل مقطع من كلامها .. وحدقت فى وجه الشاب مرة اخرى ، ثم اشاحت عنه

براسها . ولم يعد يرى فى تلك اللحظة الا جانب وجهها فخيل اليه ان عينيه لم تقعا فى حياته على مثل هذا الوجه الذى يفيض سحرا وجمالا ، لا ولا أحس بما يحس به الآن من مشاعر . وسأل نفسه : « والوعد ؟ » . ثم قال لها بعد لحظة تردد :

ــ يا آنسة جيما !

ــ نعم ؟

ولم تتحول ببصرها اليه ، بل استمرت تخرج ثمار الكرز من السلة . وكانت تمسك الثمرة من ذيلها فى رفق بأطراف أصابعها ، مباعدة ما بين الاوراق . الا ما اروع الثقة الجميلة التى انطوت عليها هذه الكلمة « نعم » ! . . وسألها :

ــ ألم تحدثك أمك بشىء عن . . ؟

ــ عن ماذا ؟

ــ عنى !

وما ان سمعت جيما هذا الكلام حتى القت بثمار الكرز فى السلة ، وسألته :

ــ هل كلمتك أمى ؟

ــ نعم .

ــ ماذا قالت لك ؟

ــ قالت لى انك . . انك قررت فجأة أن تغيرى . . ماعقدت عليه نيتك من قبل .

وطأطأت جيما راسها مرة أخرى ، حتى اختفى وجهها كله تحت قبعتها ؛ فأصبح الشاب لا يرى سوى عنقها اللين الرخص الذى بدا وكأنه ساق وردة ! . . وسألته :

ـ اية نية تقصد ؟

ـ نيتك .. فيما يتعلق .. بمستقبلك !

ـ تريد أن تقول ، بشأن السيد كلوبر ؟

ـ اجل .

ـ وهل قالت لك أمى اننى لا أريد أن أتزوجه ؟

ـ نعم .

وتحركت جيما ، فاهتز المقعد ، وانقلبت السلة على الارض ، وسقطت بعض الثمار . ثم مرت دقيقتان او ثلاث قبل أن تسأله مرة أخرى :

ـ لماذا حدثتك أمى فى هذا

ولم يعد سانين يرى الا ياقتها ، وحركة صدرها وقد ازدادت شدة . واجابها :

ـ لماذا حدثتنى أمك فى هذا ؟ .. لانها تعتقد ، ما دمنا صديقين ، وما دمت ستشرفيننى بثقتك : اننى أستطيع أن أسدى اليك بنصيحة ، وأنك ستطيعيننى !

وسقطت ذراعا جيما على ركبتيها ، واخذت تجعد ثنيات ثوبها ، ثم قالت بعد لحظة انتظار :

ـ وبماذا تنصحنى ؟

ولاحظ سانين ان اصابع جيما كانت ترتعش فوق ركبتيها ، وانها تعبث بثوبها اخفاء لاضطرابها . فوضع يده فى رفق على أصابعها المضطربة المرتعشة . وقال :

ـ لماذا لا تنظرين الى يا جيما ؟

وما لبثت ان دفعت بقبعتها خلف رأسها ، ورفعت نحو

سانين عينين واثقتين تفيضان بالشكر ، مثلما قبل لحظات . وانتظرت أن يتكلم الشاب ، ولكن سانين اضطرب بدوره امام هذا الوجه الصادق ، وانبهر بجماله ..

وكان شعاع دافىء من شمس المساء يشرق على وجه الفتاة الايطالية ، وكان تعبير هذا الوجه اكثر اشراقا وتوهجا من الضياء نفسه . وقالت وهى تبتسم ابتسامة واهنة ، وترفع حاجبيها قليلا :

ـ ساتبع نصيحتك يا سيد ديمترى ، فبماذا تنصحنى ؟

ـ بماذا أنصحك ؟ .. ان أمك ترى أن رفضك الزواج من السيد كلوبر ، لالشىء الا لأنه لم يبرهن على شجاعته فى ذلك اليوم ..

ـ لا لشىء الا لهذا السبب ؟ !

ثم مالت الى امام ، فتناولت السلة ، ووضعتها على المقعد الى جانبها . واستأنف يكمل عبارته :

ـ .. ليس بالتصرف الحكيم .. وهذا قرار يجب أن تحسب نتائجه كلها . ويظهر أن حالة اعمالكم تفرض على كل فرد من أفراد الاسرة واجبات ..

ـ انت تردد الآن راى أمى .. وانا أعرفه .. ولكن ما هو رأيك انت ؟

ـ رأيى أنا ؟

ولم يستطع سانين أن يتم كلامه ، فقد شعر بغصة فى حلقه . حتى كاد يختنق ، ثم قال فى جهد :

ـ اعتقد ايضا ..

ـ انت ايضا ؟ .. انت تعتقد ايضا ؟ !

ـ أعنى .. أقصد ..

ولم يستطع سانين ، رغم جهوده ، أن ينطق بكلمة أخرى ! فقالت جيما :

ـ حسنا .. ما دمت ، وأنت صديق ، تنصحنى بالتراجع عما عزمت عليه ، فسأفكر فى الأمر !

ولم تعد جيما تعرف ماذا تفعل ، فأخذت ترجع الى السلة ما كانت قد فرزته من ثمار الكرز فى الطبق . وما لبثت أن قالت له :

ـ أمى تعتقد اننى سأطيعك .. والحق اننى قد اتبع نصيحتك .

ـ ولكن .. اسمحى يا آنسة جيما .. اننى اتمنى لو عرفت الأسباب التى دفعتك الى ..

ـ سأتبع نصيحتك !

ثم تقطب جبينها ، وامتقعت وجنتاها . وقالت وهى تعض على شفتها السفلى :

ـ لقد أسديت الى من الجميل ما يفرض على واجب اطاعتك .. سأقول لأمى اننى سأفكر فى الامر من جديد .. وها هى ذى آتية !

وكانت السيدة ليونور قد ظهرت عند عتبة الباب المفضى الى الحديقة . وقد نفد صبرها ، اذ لم تكن تطيق المكوث فى مكان . وكانت تقدر ان سانين لا بد وقد فرغ من مساعيه

لدى جيما منذ مدة طويلة ، رغم ان الحديث بينهما لم يدم فى الواقع أكثر من ربع ساعة .. وصاح سانين مذعورا :

ـ لا ، لا ، أرجوك .. لا تقولى لأمك شيئا بعد .. انتظرى .. سأحدثك فى الأمر .. سأكتب اليك .. وحتى ذلك الحين ، لا تتخذى أى قرار .. انتظرى رسالتى !

ثم صافحها ، وانتفض واقفا . وكم كانت دهشة السيدة ليونور ، حين مر أمامها ، فرفع قبعته مغمغما ببضع كلمات غير مفهومة . ثم مضى واختفى !

واقتربت السيدة روزيلى من ابنتها ، وقالت لها :

ـ حدثينى يا جيما ، أرجوك ..

فلم تزد الفتاة على أن نهضت ، وقبلت أمها . ثم قالت :

ـ هل لك يا أمى الحبيبة أن تمهلينى فى الجواب قليلا .. لن يطول انتظارك .. انتظرينى الى الغد .. أرجوك ! .. وإلى أن يأتى الغد ، أرجو الا نتكلم فى هذا الموضوع .. آه ..

ثم أخذت تبكى فجأة من شدة الفرح . وازدادت حيرة السيدة ليونور .. لقد كانت جيما تبكى ، لكن وجهها لم يكن يعبر عن شىء من الحزن ، بل كان الى الفرح أدنى . فسألت ابنتها :

ـ ما بك يا جيما ؟ .. انت لا تبكين أبدا ، فماذا دهاك اليوم ؟

ـ لا شىء يا أماه ، لا شىء .. عليك بقليل من الصبر .. يجب علينا أن ننتظر . ولا تسأليني عن شىء قبل أن يأتى الغد . ولنسرع الآن فى رفع ثمار الكرز قبل أن تغيب الشمس !

ـ وهل انت ثائبة الى رشدك ؟

ـ آه .. انني عاقلة جدا !

وهزت جيما رأسها . ثم أخذت تجمع ثمار الكرز باقات صغيرة، وتحملها بحيث تخفى بها وجهها الذي علاه الاحمرار، ولم تمسح دموعها التي جفت !

ـ ٢٥ ـ

غاد سانين الى منزله واكضا . وكان يحس أنه لن يستطيع أن يفكر تفكيرا واضحا الا اذا خلا الى نفسه . فما ان جلس الى المنضدة فى غرفته ، حتى أغرق وجهه فى يديه ، وصاح قائلا: « أحبها ، أحبها حبا جنونيا ! » ، وتأججت نفسه كلها كجذوة أخرجت من تحت الرماد.. **وماهى الا لحظة حتى أصبح لا يستطيع أن يدرك كيف جلس الى جانبها ، وتحدث اليها ، ثم لم يقبل طرف ثوبها ، ولم يقل لها ـ كما يقول الشبان ـ « انه مستعد لأن يموت تحت قدميها ! »** .. لقد تحددمصيره بعد لقائه الأخير بها فى الحديقة . وأصبح الآن ، حين يفكر فيها ، لا يتصورها شعثاء الشعر تحت ضياء النجوم ، وانما جالسة على المقعد فى الحديقة ، تدفع بقبعتها الى وراء ، وترنو اليه بتلك النظرة التى تفيض ثقة ، وهى ترتعد ، وتسرى فى عروقها الرغبة فى الحب .

وتذكر الوردة التى يحملها فى جيبه منذ ثلاثة أيام ، فتناولها بيديه ، وحملها الى شفتيه ، فى حرارة سرعان ما استحالت الى احساس بالعذاب . فاذا به لا يستطيع ان يناقش ، او ان يفكر ، او أن يتطلع الى المستقبل ، وخيل اليه أنه قد انفصل عن ماضيه كلية ، وانه وثب وثبة كبرى الى

« .. أكل ذلك من أجـلى أنا ؟ .. من أجلى أنا ؟ ..
اننى لن أنسى هذا ما حييت ! » (صفحة ٢١١)

أمام .. وصار يشعر انه قد هجر شاطىء حياته الوحيدة الموحشة ، وانه غاص فى نهر رقاق بهيج جارف ، يملأ قلبه بالسعادة والنشوة ، حتى انه أصبح لايريد أن يعرف الى أين يقوده هذا النهر ، ولا أن يتساءل عما اذا كان التيار سيحطمه على احدى الصخور الصلبة !.. لقد اختفت الامواج الهادئة فى قصة «أوهلاند» ، التى كانت تداعب خياله منذ غير بعيد ، وحلت محلها أمواج عارمة متلاطمة ، راحت تتراقص وتتواثب ، وتحمله فى حركتها الصاخبة !

وتناول سانين ورقة، فكتب الرسالة التالية دفعة واحدة، دون أن يشطب منها حرفا :

« عزيزتى جيما .

« أنت تعرفين النصيحة التى كلفت بأن أسوقها اليك .. تعرفين ما تتمناه أمك ، وما كانت تنتظره منى . ولكن الأمر الذى لا تعرفينه ، والذى أريد الآن أن أكاشفك به ، هو أننى أحبك ، وأننى أكن لك تلك العاطفة الجامحة التى تستعر فى قلب يشعر بالحب لأول مرة !

« لقد اضطرمت النار فى نفسى فجأة ، وبلغت من عنفوان أوارها اننى لا أجد الآن شيئا أقوله .. وحين جاءتنى أمك ، كانت النار ما تزال خامدة فى قلبى ، والا لكان واجب الشرف يقتضى أن أرفض المهمة التى اسندتها الى .. والاعتراف الذى أبوح لك به الآن انما هو اعتراف رجل شريف ، اذ من الواجب أن تعرفى الشخص الذى يخاطبك .. وها أنت ذى

ترين أنني لا أستطيع أن أقدم لك نصيحة .. انني أحبك ، أحبك ، أحبك ، وهذا الحب يملأ على عقلى وقلبى ..» .

ديمترى سانين

وطوى سانين الرسالة ، وهم بأن يقرع الجرس للخادم ، لولا أنه غير رأيه ، وراح يقول لنفسه : « لا ، ليس هذا صواباً .. ليتنى أستطيع أن أبعث بالرسالة مع ايمليو ! » .. لكنه ما لبث أن أدرك أنه لا يستطيع أن يذهب الى أيمليو فى متجر السيد كلوبر ، وأن يلقاه هناك بين المستخدمين الآخرين . فضلا عن أن الوقت كان ليلا ، وأنه ربما يكون الصبى قد عاد الى بيته !

وفيما كان سانين يقلب هذه الأفكار فى رأسه ، تناول قبعته ، وخرج من الفندق ، فما أن اجتاز احد الشوارع حتى لمح ايمليو ، فسر لذلك سروراً عظيما .. وكان الصبى المتحمس يحمل تحت ابطه حقيبة ، ويمسك بيده لفافة ورق ، ويستحث الخطى عائدا الى البيت . فقال سانين لنفسه : « حقا ان لجميع العشاق نجما ! » .. ونادى الصبى ، فالتفت ايمليو الى الوراء ، وهرع الى سانين . فدفع هذا اليه بالرسالة ، وطلب منه أن يحملها الى جيما . وكان الفتى يصغى الى صديقه باهتمام شديد ، فلما فرغ من كلامه ، سأله بلهجة جادة لها دلالتها :

ـ هل يجب الا يعلم أحد بالأمر ؟

فقال سانين ، قد أحس بشىء من الخجل :

– نعم يا عزيزى الصغير ، يجب ألا يعلم أحد بالأمر !
ثم ربت على خده ، وأضاف :

– واذا سلمتك ردا ، فائتنى به .. أليس كذلك ؟وسأبقى بالمنزل !

وقال ايمليو فرحًا :

– اعتمد على !

وأسرع يبتعد .. وفيما هو ماض فى طريقه ، التفت مرة أخرى الى الوراء ، واومأ برأسه الى سانين !

***

وعاد سانين الى غرفته ، والقى بنفسه على أحد المقاعد دون أن يشعل الشمعة ، وراح يشبك يديه وراء رأسه ، وقد استسلم لمشاعر الحب الأول التى ليست بحاجة الى وصف . اذ ان من كابدها يعرف ما فيها من عذاب ولذة ، ومن لم يذقها فلا سبيل له الى تصورها ! .. وان هى الا فترة وجيزة ، حتى فتح الباب ، وأطل من ورائه رأس ايمليو . واذا بالصبى يبتدر سانين قائلا بصوت خافت :

– لقد جئتك بالرد ، وها هو ذا !

ولوح بورقة فوق رأسه ، فوثب سانين من مقعده ، واختطف الرسالة من ايمليو .. كان الهوى يملأ قلب الشاب ، ويستبد به ، حتى لقد أصبح عاجزا عن التفكير فى تصرفاته ، وعن اخفاء سر حبه ، فلو أنه كان فى وعيه ، اذن لاستطاع ان يكبح جماح نفسه أمام أخى جيما الصغير ..

واقترب من النافذة ، وأخذ يقرأ السطور التالية على ضوء مصباح الشارع :

« أرجوك ، أضرع اليك الا تأتى الينا غدا ، والا تظهر فى بيتنا طوال النهار .. وهذا ضرورى ، ضرورى للغاية ، وبعدها نقرر كل شىء .. وأنا أعرف انك لن تعصنى ، لأنك .. »

جيما

وقرأ سانين الرسالة مرتين ، وكم بدا له خط جيما جميلا لطيفا ! .. وبعد بضع لحظات من التفكير ، نادى ايمليو بصوت مرتفع . وكان الصبى يدير وجهه الى الجدار ، اظهارا لعدم الفضول ، وقد جعل يحفر الجدار بأظفاره . فلما سمع صوت سانين يناديه ، هرع اليه قائلا :

ـ لبيك !

ـ اصغ الى .. اذهب الى هناك ، هل تفهمنى ؟ اذهب الى هناك ، وأخبرها اننى سأفعل كل ما تطلبه منى .. وأنت ، ماذا أنت فاعل غدا ؟

ـ أنا ؟ لا شىء .. اذا .. سأفعل كل ما تريد !

ـ حسنا .. اذا استطعت ، فوافنى فى ساعة مبكرة من الصباح . وسنذهب معا فى نزهة الى الحقول حتى المساء . هل يناسبك هذا ؟

وأخذ الصبى يقفز من شدة الفرح ، عند سماعه هذا الاقتراح . وقال :

ــ نذهب معا نحن الاثنين ؟ .. أتنزه معك ؟ .. سآتى حتما !

ــ واذا لم يسمحوا لك بأن تأتى ؟

ــ بل سيسمحون !

ــ اسمع .. لا تقل هنالك اننى دعوتك لقضاء النهار كله.

ــ أانا غبى الى هذا الحد ؟ !

وقبل سانين فى حرارة ، ثم مضى مسرعا .. وما ان انصرف ، حتى طفق سانين يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ولم يستطع أن يأوى الى فراشه الا فى ساعة متأخرة من الليل . فقد استحوذت عليه تلك المشاعر العذبة الممضة فى آن واحد، واقتحمت نفسه تلك النشوة المسكرة التى تهاجم المرء غداة حياة جديدة . وكان يشعر بارتياح بالغ لفكرة قضائه النهار مع ايمليو ، فقد كان الصبى يشبه أخته نوعا ما ، حتى لقد قال سانين لنفسه : « ان وجوده معى سيذكرنى بها ! » .. على أن الشىء الذى بهر سانين انما هو ذلك التبدل المباغت الذى طرأ على نفسه ، فقد أحس بأنه كان يحمل لجيما دائما نفس هذا الحب الذى يشعر به نحوها اليوم !

- ٢٦ -

وصل ايمليو الى سانين فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى ، وهو يجر وراءه الكلب « تارتاجليا » . وكان بادى الاناقة وجمال الهندام حتى ليحسب من يراه انه من أبوين المانيين . وكان قد أخبر أهله بأنه سيتنزه مع سانين حتى الغداء ، على أن يذهب الى المتجر بعد ذلك !

وفيما كان سانين يرتدى ملابسه ، أخذ ايمليو يحدثه ـ وان يكن فى شىء من التردد ـ عن جيما وعن خلافها مع كلوبر، ولكن سانين لم يظهر اهتماما بحديثه ، بل بدا عليه التبرم بما يقوله ، فلم يلبث ايمليو أن أمسك عن الكلام ، مظهرا بذلك أنه ادرك تسرعه فى الافضاء بما يحسن فيه التأنى . ولم يشر بعد ذلك اشارة واحدة الى الموضوع ، بل راح يصطنع التحفظ والوقار بين الحين والآخر .. وما أن تناول الصديقان قهوة الصباح ، حتى مضيا فى طريقهما الى (هاوزن) سيرا على الاقدام ، وكانت (هاوزن) قرية صغيرة تقع على مقربة من (فرنكفورت) ، وتحف بها الغابات ، ومنها ترى سلسلة جبال (تاوفوس) كلها . وكان الجو جميلا ؛ والشمس تسطع وتتوهج ، ولكن دون أن تكون اشعتها لافحة . وكانت أنسام رطبة تهمهم بين أوراق الاشجار الخضراء. وعلى الارض ، كانت تتخاطر ظلال سحب مستديرة كبيرة ، فى سرعة لا يقف فى سبيلها حاجز !

وما أن صار الشابان خارج المدينة ، حتى أخذا يسرعان الخطى فى الطريق الممهدة فرحين . فقطعا الغابات يسيران على غير هدى ، وما لبثا أن تناولا غداء وافرا فى القرية ، ثم راحا يتسلقان الجبل مسرورين ، مأخوذين بجمال المناظر ، وقد اندفعا يقذفان بأحجار كانت تتواثب فى هبوطها وتتدحرج كأنها الأرانب ، وظلا يلعبان على هذا النحو الى أن مر تحتهما أحد المتنزهين ، فأخذ يشتمهما بصوت عنيف مدوى .. واستلقيا بعد ذلك على الطحلب القصير الجاف ، الاصفر

الضارب الى الخضرة ، وشربا من البيرة ثم مضيا يتسابقان ويتراهنان فى العدو والقفز . وسرعان ما فطنا الى رجع الصدى ،فأخذا يتناجيان معه ، ثم طفقا يغنيان ، ويلعبان لعبة الأختباء ، وينادى كل منهما صاحبه فى صراخ . وكافحا معا ، فقطعا بعض أغصان الاشجار ، وزينا قبعتيهما بأوراق نبات الخنشار ، حتى لقد انطلقا يرقصان . وكان تارتاجليا يشاركهما بهجتهما فى حدود وسائله وقدراته . كان لا يقذف بحجارة ، ولكنه كان يركض ويقفز فى اثرهما ، وكان ، اذا غنيا ، نبح معهما ، حتى لقد شرب البيرة حين شرباها ، اظهارا لحسن المرافقة ، ولكنه لم يكتم عنهما اشمئزازه من مذاقها . فلقد تعلم هذا الفن من طالب ألمانى كان فى سالف الزمان صاحبه . الا انه لم يكن يطيع ايمليو كثيرا ، بل أنه قلما كان يطيع صاحبه بانتاليون نفسه ، فكان اذا سأله ايمليو أن « يتكلم » أو أن « يقرأ » ، لا يزيد على أن يحرك ذيله ، وأن يمد لسانه وهو يطوى طرفه !

***

وقد أتيح للشابين أثناء نزهتهما أن يطرقا موضوعات فلسفية شتى . فقد عمد سانين – بوصفه أكبر من صاحبه سنا ، وباعتباره رجلا رشيدا عاقلا – الى ادارة دفةالحديث، فى بداية النزهة ، حول الكلام عن القدر ومصير الانسان ، ولكن المناقشة لم تستمر على ذلك المستوى العالى مدة طويلة . فقد وجد ايمليو أن سؤاله صديقه عن روسيا أكثر متعة وطرافة ، فاذا به يسأله عن الطريقة التى تجرى بها

المبارزات هناك ، وما اذا كانت فى روسيا نســاء جميلات ، وعن مدى صعوبة اللغة الروسية ، وعن المشاعر التى تولت سانين حين صوب اليه الضابط مسدسه .. وراح سانين ، من جهته ، يســأل الفتى عن أمه ، وعن أبيه ، وعن أعمــال الاسرة عامة ، دون أن يشير قط الى اسم جيما ، رغم تفكيره فيها دون انقطاع . والحق انه لم يكن يفكر فى جيما بقــدر ما كان يفكر فى الغد ، المجهول ، وما سيحمله اليه من سعادة وحب !

وكان يتراءى له أن ثمة ضبابا شفافا رقيقا يغشى فكره ، ووراء الضباب يتموج فى رفق وجه الهى جميل ، قــد افتر ثغره عن ابتسامة ، وأسبل حاجبيه ، واصطنع القســوة .. ولم يكن هذا الوجه وجه جيما ، بل كان وجه السعادة ذاتها ! .. ولقد دقت ساعته أخيرا ، فاختفى الحجــاب ، وانفرجت الشفتان ، وارتفع الحاجبان ، وظهرت الالهة ، وشع النور والفرح والنشوة .. الى غير نهاية . وكان ســانين ، حين يفكر فيما ينتظره من مستقبل مجهول ، تغرق نفســه مرة أخرى فى بحر من القلق والترقب .. لكن هذا القلق لم يمنعه من أن يتناول مع ايمليو غداء طيبا .. وفى لحظات خاطفة ، من حين الى آخر ، كان لا يفتأ يراوده هــذا الخــاطر : « لو عرف أحد ذلك ! .. » . ولم يمنعه قلق الانتظار كذلك من ان يلعب مع ايمليو لعبــة القفز فى الهــواء الطلق ، وســط الحقول . وفيما كان يطير ، متباعد الساقين ، كالعصــفور ، فوق ظهر ايمليو ، اذا هو يسمع نباح تارتاجليا عنيفا حادا ،

فما أن التفت الى الوراء ، حتى لمح ، عند طرف الحقل ، ضابطين عرف فيهما على الفور غريم الامس « دنهوف » وشاهده « فون ريشتر » ! .. وكان كل من الضابطين قد وضع على عينيه «مونوكل» ، واخذ ينظر ويبتسم . فتوقف سانين فورا ، وخف يرتدى معطفه بسرعة ، وامر ايميليو أن يحذو حذوه ، ثم تابع الاثنان سيرهما عائدين الى المنزل . فوصلا الى فرنكفورت فى وقت متأخر .. وقال ايميليو وهو يودع سانين :

ـ سوف يؤنبوننى .. ولكن لا بأس .. ما كان أمتع هذا النهار الذى قضيته بصحبتك !

وحين عاد سانين الى الفندق ، وجد بطاقة وصلته من جيما ، وفيها تضرب له موعدا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى فى احدى الحدائق العامة المنتشرة فى فرنكفورت . وأحس الشاب بقلبه يخفق بشدة ، وبسعادة طاغية تتملكه باطاعة أوامر جيما فى غير تردد .. وراح يتصور الهناء الذى يدخره له الغد الفريد الذى ، وان يكن لا يعلم عنه شيئا ، الا انه كان آتيا لا ريب فيه !

والتهم سانين رسالة جيما بنظره مرة أخرى .. وبدا له الحرف « ج » ـ وهو الحرف الاول من اسم جيما ، الذى ذيلت به رسالتها ـ اشبه بأصابعها اللدنة الناعمة الجميلة .

وتذكر فجأة أن شفتيه لم تلامسا بعد هذه اليد ولو مرة واحدة ، فقال لنفسه : « ان الايطاليات ، على خلاف ما يظن الناس عامة ، ذوات عفة وقسوة .. وجيما أعف من غيرها

أيضا : وأقسى ! .. آه ، أيتها الملكة .. بل أيتها الالهة .. وأيتها المرمر البكر ، الطاهر ، النقى .. ولكن الوقت آت ، وما غد ببعيد ! » .. لقد كان فى فرنكفورت ، فى تلك الليلة ، رجل سعيد .. وما لبث سانين ان غشيه النوم ، وقديما قال الشاعر : « أنام والقلب ساهر » .. وكان قلبه يخفق خفقانا واهنا ، كجناح فراشة تعلقت بزهرة ، تحت أشعة صيف !

- ٢٧ -

استيقظ سانين منذ الساعة الخامسة من الصباح ، وما أن دقت الساعة السادسة حتى كان قد ارتدى ملابسه، وفى السادسة والنصف كان يطوف فى الحديقة ، بالقرب من المكان الذى عينته له جيما فى رسالتها . وكان الصباح هادئا ، فاترا ، أشهب . وكان يلوح بين الفينة والاخرى أن السماء توشك أن تمطر . ومع ذلك فحين كان المرء يمد يده ليتبين ما اذا كان هناك مطر ، لم يكن يشعر بشىء ، رغم أنه كان يستطيع أن يميز على كم معطفه قطرات ماء كأنها اللآلىء الصغيرة .. وكان النسيم ساكنا راكدا ، والاصوات لا تطير بل تنتشر فى الهواء . وعن بعد ، كان ثمة بخار أبيض يتكاثف فى بطء . وكان الجو معطرا معبقا بشذى ازهار الأكاسيا .

ولم تكن الحوانيت قد فتحت أبوابها بعد ، الا أن المرء كان يلمح فى الشارع بعض المارة ، ويسمع من حين الى آخر قرقعة عجلات احدى العربات وهى تجرى وحيدة فى

الشارع . ولم يكن فى الحديقة أحد يتنزه . وكان البستانى ينظف ممرات الحديقة على مهل . ومرت عجوز عرجاء تتدثر بمعطف من جوخ أسود ، فخفق قلب سانين ، وتابعها ببصره ، رغم أنه لم يكن يتصور أن يكون ذلك المخلوق هو جيما . .

ودقت ساعة البرج السابعة ، فتوقف سانين فى قلق ولهفة . وراح يتساءل : « أتراها لن تأتى ؟ » وسرت فى جسمه رعدة شديدة، حين سمع وراءه وقع خطوات رشيقة ، وحفيف ثوب امرأة . فالتفت ، فاذا هى فتاته . وكانت جيما واقفة فى الممر خلفه ، وقد ارتدت وشاحا أشهب ، ووضعت على رأسها قبعة . وألقت جيما نظرة طويلة على سانين . ثم أشاحت برأسها الى الجهة الأخرى . فلما أقبلت اخيرا بجواره ، حثت خطاها ، وتقدمته . وناداها سانين بصوت خافت : « جيما ! » ، فهزت رأسها قليلا ، وواصلت سيرها. فتبعها الشاب. وكان قلبه يخفق ، وساقاه لاتكادان تقويان على حمله !

وتجاوزت جيما مبنى الحديقة ، وسارت يمنة ، ثم انعطفت نحو الحوض الذى كان يستحم فيه أحد العصافير، ودارت حول مجموعة من الأشجار ، فأخذت مكانها على مقعد منزو ، بعيدا عن الانظار ، ثم لحق بها سانين ، فجلس الى جانبها. .وانقضت دقيقة لم ينطق احدمنهما خلالها بكلمة . ولم تلتفت جيما نحو صاحبها ، ولا نظر سانين الى وجه الفتاة ، وانما راح يحملق فى يديها اللتين كانتا تضمان احدى

المظلات .. ترى فيم كان يمكن أن يتحدثا ؟.. وأى اعتراف أبلغ من وجودهما معاً فى ذلك المكان ، وأروع من لقائهما فى هذه الساعة من الصباح ، وأقوى من جلوسهما جنبا الى جنب فى ذلك الركن النائى المنعزل ؟ !.. وما لبث سانين أن سألها هامسا :

ـ ألست غاضبة ؟

وأدرك أن سؤاله كان سخيفا غبيا ، ولكنه ارتاح ـ مع ذلك ـ لأنه استطاع ان يقطع به صمت الفتاة ، اذ أجابته هذه فى دهشة :

ـ أنا ؟ .. غاضبة ؟ .. لماذا ؟ .. ابدا !

ـ وأنت تصدقيننى، أليس كذلك؟..هل صدقت ما..؟

ـ ما قلته فى رسالتك ؟

ـ نعم .

واطرقت جيما ، ولم تجب.وانزلقت المظلة من بين يديها ، ولكنها تداركتها قبل أن تقع على الارض..واردف سانين :

ـ نعم ، ثقى بما قلته لك ، وصدقى كل ما كتبته اليك !

وسرعان ما تخلص الشاب من خجله ، فانطلق يتكلم بحرارة . وهتف :

ـ اذا كان هناك شىء صادق فى هذا العالم ، فهو الحب العميق الذى أحمله لك .. اننى أحبك حبا جنونيا !!

والقت عليه جيما نظرة مختلسة ، فكادت المظلة أن تسقط من بين يديها مرة أخرى على الارض . وصاح سانين :

ـ صدقينى .. صدقينى !

وكان يضرع اليها ، ويمد يديه نحوها ، ولكنه لم يجرؤ على لمس أصابعها . واستطرد يقول :

– كيف السبيل الى اقناعك ؟

فنظرت اليه جيما مرة أخرى ، ثم قالت :

– **يا سيد ديمترى ، حين جئت الى منذ ثلاثة أيام لتنصحنى ، ألم تكن تعرف بعد ؟ .. ألم تكن تشعر بعد ؟**

– نعم .. لا .. أعنى .. كنت أشعر ، ولكننى لم أكن أعرف .. لقد أحببتك منذ رأيتك ، ولكننى لم أدرك اذ ذاك قدر مكانتك عندى ! .. قالوا لى انك مخطوبة .. وهل كان فى وسعى ان أصد أمك، وأن أرفض ما كلفتنى به ؟ **ثم اننى ، على كل حال ، قد قدمت النصح على نحو يتيح لك أن تدركى ..**

وهنا سمع وقع خطوات ثقيلة .. كان ثمة رجل بدين بعض الشىء ، يحمل على ظهره حقيبة سفر ، وقد بدا انه أحد السواح . وكان قد خرج من وراء الاشجار ، فلما لمح الشابين ، لم يتحرج من النظر اليهما – على عادة الاجنبى – ثم سعل ، ومضى فى طريقه .. واستأنف سانين حديثة ، بعد أن ابتعد وقع الخطوات ، فقال :

– لقد أخبرتنى أمك أن فسخ خطوبتك فضيحة ، واننى سأكون فى هذه الحالة قد اثرت حول الأسرة الأقاويل .. فمن واجبى اذن أن انصحك بالتفكير فى الأمر ، قبل أن ترفضى خطيبك السيد كلوبر !

وقالت جيما ، وهى تمر بيدها على شعرها من جهة سانين :

ـ لا تدعو السيد كلوبر خطيبى بعد الآن ! .. فلن أكون زوجته ، وهو يعرف ذلك !

ـ هل نقلت اليه النبأ ؟ .. متى ؟

ـ أمس !

ـ اليه شخصيا ؟

ـ اليه شخصيا .. لقد جاء أمس الى بيتنا .

ـ جيما .. أأنت تحبيننى اذن ؟

ـ أكنت أجىء الى هنا لولا ذلك ؟ !

وفاهت جيما بعبارتها وهى تلتفت الى سانين . ثم استقرت يدا الفتاة على المقعد . فتناول سانين اليدين الساكنتين المنبسطتين؛ ورفعهما الى عينيه ثم الى شفتيه . واذ ذاك أحس بأن الغشاوة التى كانت تحجب المستقبل بالأمس قد زالت عن عينيه ، فها هى ذى السعادة تطل عليه بوجهها المشرق ! .. وتطلع سانين الى جيما ، بلا خوف . وكانت الفتاة تنظر اليه بدورها ، وقد خفضت حاجبيها . وكانت نظرة هاتين العينين المسبلتين ، وما يشع منهما من ضياء واهن تحجبه دموع عذبة ، تملأ قلب الشاب بسعادة دافقة . ولم تكن جيما تبتسم ، أو لعلها كانت تبتسم ابتسامة صامتة تضىء وجهها .. وأراد سانين أن يضم الفتاة الى صدره ، ولكنها تحولت عنه ؛ وهزت رأسها ، دون أن تتغير ملامح وجهها ، وكأنها كانت تقول بعينيها الفاتنتين « مهلا ، مهلا ! . » . فهتف سانين :

ـ آه يا جيما ، هل كنت أستطيع أن آمل أن تحبينى (١) فى يوم من الأيام ؟ !

وكان قلب الفتى يهتز كأنه وتر مشدود ، وهو يخاطبها لأول مرة بصيغة المفرد. وما لبثت أن قالت له جيما فى رقة بالغة :

ـ أنا أيضا لم أكن أظن ذلك ..

ـ وهل كان فى وسعى ، حين وصلت الى مدينة فرنكفورت التى كنت أظن اننى سأقضى فيها بضع ساعات فحسب ، ان أتوقع اننى واجد فيها سعادة حياتى كلها ؟

ـ حياتك كلها ؟ هل هذا صحيح ؟

ـ نعم ، حياتى كلها .. الى الابد .. الى الابد !

قال سانين ذلك وقد ازداد حماسه .. وكان مشط البستانى يحرك التربة على بعد خطوتين من المقعد الذى كان يجلس عليه الشابان . فقالت جيما :

ـ هيا بنا نعود .. هل توافق ؟

ولو أن جيما سألت سانين ، فى تلك اللحظة ، أن يلقى بنفسه فى البحر لأسرع يفعل ، قبل أن تتم عبارتها ! .. وخرج الاثنان من الحديقة ، واتجها نحو الحانوت عن طريق الضاحية ، اجتنابا لشوارع المدينة المزدحمة !

---

(١) كان سانين يخاطب « جيما » بصيغة الجمع ، وهو المألوف عند القوم قبل زوال الكلفة بين المتخاطبين ، وكانت هذه أول عبارة يخاطبها فيها بصيغة المفرد !

- ٢٨ -

كان سانين يسير الى جانب جيما تارة ، ويتخلف عنها تارة أخرى . وكان لا يتحول عنها ببصره قط ، بل كان يبتسم لها على الدوام . وكانت جيما تسرع الخطى حينا وتبطئها حينا آخر ، وكان الاثنان يسيران وكأنهما فى حلم . هو شاحب ، وهى متوردة الخدين من فرط الانفعال !

وكان هذا الامتزاج ، الذى تم بين روحيهما منذ لحظات ، قد جاء قويا ، مفاجئا ، جديدا ، مقلقا : حتى لقد شعرا بأن حياتهما قدأصابها تبدل شامل لم يكن فىالحسبان ، فصارا لا يكادان يدركان ما وقع لهما ، وخيل اليهما أن اعصارا يحملهما الآن أشبه بذلك الذى أوشك ذات مساء أن يلقى بكل منهما فى حضن الآخر !

وكان سانين يحدق فىجيما أثناء سيره ، وكأنه يراها لأول مرة .. كان يلاحظ فى خطواتها وايماءاتها خصائص لم يتبينها من قبل ، واصبحت هذه الأمور التافهة لها أهميتها البالغة عنده. وكانت جيما تحس بما تحدثه فى نفس الشاب من اثر .. **لقد كان كل منهما يقع فىالحب لأول مرة ، وكانت معجزات الحب كلها تعتمل فى نفسيهما ! .. فالحب الأول ثورة تحدث انقلابا فى مجرى الحياة التى تسير على وتيرة واحدة ، ويقع هذا الانقلاب فىلحظة خاطفة ، فيصعدالشاب على المتراس ، ويغرس هنالك رايته الساطعة التى تخفق عاليا ، لا يحفل بما ينتظره - موتا كان أو حياة جديدة -**

فهو يعيش اليوم الجديد الذى يشرق ، كائنا ما كان ، ويتحدى المستقبل !

وصاح سانين وهو يشير بأصبعه الى شخص ملفع يحاذى الحائط ، ويسير بسرعة . محاولا الا يراه أحد :

ـ عجبا ! لكأنه ..

وكان سانين ، فى غمرة هذا البحر من السعادة ، يشعر بأنه فى حاجة الى أن يحدث جيما ، ليس فى الحب ـ فهذا الحب أمر مقدس مفروغ منه ! ـ بل فى شىء آخر .. وقالت جيما فى حبور :

ـ نعم ، انه بانتاليون . وأغلب الظن أنه تبعنى .. فلقد ظل أمس يلاحقنى طوال النهار .. لقد حدس !

ـ حدس ؟ !

وردد سانين كلمة جيما فى نشوة. وراح يتوسل اليها أن تقص عليه كل ما حدث البارحة . فبدأت جيما تروى قصتها فى تعجل ، فكانت تتعثر ، ثم تقطع كلامها لتنظر الى سانين ، ولتتنهد . واخذا يتبادلان نظرات سريعة مشرقة. ثم أبلغته انه بعد المناقشة التى دارت بينها وبين امها منذ يومين ، أرادت السيدة روزيلى أن تنتزع منها جوابا حاسما ، ولكنها استطاعت أن تستمهلها الى اليوم التالى ، ولم تكن هذه المهلة بالأمر الذى يسهل الحصول عليه من السيدة روزيلى ، لكن جيما ظفرت بها مع ذلك ! .. وقالت جيما انها بينما كانت تحدث أمها ، اذا بالسيد كلوبر يصل على غير موعد . وكان أكثر سخفا وجمودا منه فى أى وقت مضى ،

وطفق يصب كل ما فىنفسه من استياء على العمل الصبيانى الذى قام به الشاب الروسى ، والذى جرح كرامته جرحا عميقا .. وارادت الفتاة ان توضح لسانين ما قصد اليه كلوبر ، فقالت :

ـ انه يقصد بالعمل الصبيانى المبارزة التى قمت بها أنت .. وقد طلب من أمى أن تغلق الباب فى وجهك بحجة ان ((هذا الروسى قد لطخ شرفى (وأخذت جيما تقلد نبرة كلوبر وحركاته) ، فلقد كانت مهمة الدفاع عن خطيبتى تقع على عاتقى أنا ، لو اننى رأيت أن ثمة جدوى من ذلك أو ضرورة ! ..أن فرنكفورت كلها ستعلم غدا ان أجنبيا قد تبارز مع أحد الضباط بسبب خطيبتى . فماذا عسى أن يكون معنى هذا ؟ .. ان هذا العمل الصبيانى ، الذى قام به الروسى ، ليلطخ شرفى)) . ووافقته أمى على رايه .. أما أنا ، فاخبرته بأنه لا يجدر به أن يقلق ، فشرفه مصون ، وكذلكشخصه ، وأن عليه الا يحفل بالاقاويل التى سيلفقها الناس عن خطيبته ، لأننى لم أعد خطيبته بعد الآن ، ولن أكون زوجته ..

والحق أننى كنت أنوى أن أتحدث اليك قبل أن أكاشفه بالقطيعة الحاسمة ، ولكنه كان أمامى ، ولم أستطع أن أكبح جماح نفسى.. فأخذت أمى تصرخ ذعرا وهولا . وخرجت أنا من الفرفة ، لأعود بعدقليل أحمل للسيدكلوبر خاتم الخطبة الذى كنت قد خلعته منذ يومين . وانزعج السيد كلوبر انزعاجا شديدا ، ولكنه ـ لفرط أنانيته وغروره ـ لم يعلق على ذلك اهمية ، ثم انصرف .. وانك لتدرك أننى تألمت

كثيرا لألم أمى . فقد عز على أن أراها حزينة ، حتى لقد قلت لنفسى : « لعلنى تسرعت قليلا » . لكن رسالتك كانت معى . ثم اننى ، حتى بغير تلك الرسالة ، كنت أحس ..

ـ أننى أحبك ..

ـ نعم ، أنك بدأت تحبنى !

***

وكانت جيما تقص ذلك على سانين بلهجة سريعة ، وهى تبتسم تلك الابتسامة الساحرة ، فاذا مر قربهما أحد ، خفضت صوتها ، أو لاذت بالصمت . وكان سانين يصغى الى حديثها مفتونا ، وقد اعجب بصوتها كما أخذ بالأمس بخطها .. وما لبثت ان استأنفت جيما كلامها فى تدفق ، فقالت :

ـ ان أمى مستاءة أشد الاستياء ، وهى لا تفهم أن يصبح السيد كلوبر عندى انسانا لا يطاق ولا يحتمل ، ولا أننى رضيت به قبل ذلك عن غير حب اذعانا لمشيئتها وحاجتها . وهى تشتبه فيك أنت ، حتى لقد أصبحت مقتنعة بأننى أحبك ! .. وانه ليحز فى نفسها أكثر من أى شىء آخر أن ذلك لم يخطر لها ببال ، وانها كانت حتى أمس فقط ترجوك أن تنصحنى .. يا لها من مهمة غريبة ، أليس كذلك ؟ وهى تدعى الآن انك محتال ، وانك استغللت ثقتها بك ، بل انها تتنبأ لى بأنك ستغدر بى !

وهتف سانين :

ـ كيف يا جيما ؟ الم تقولى لها ؟

ـ لم أقل لها شيئا .. وكيف أبيح لنفسى أن أقول لها أى شىء قبل أن أتحدث اليك ؟ !

فضرب سانين كفا بكف ، وقال :

ـ جيما ، أرجو الآن ان تفضى اليها بكل شىء .. خذينى أولا اليها .. أريد أن أبرهن لأمك على أننى لست بالرجل المخادع !

وكان صدر سانين يعلو بتأثير ذلك التدفق العارم من العواطف النبيلة الحارة . ونظرت اليه جيما نظرة فاحصة ، وقالت :

ـ أحقا ؟ أتريد أن تأتى معى الى أمى فورا لتحدثها فى الأمر ؟ .. أتريد أن تأتى الى أمى التى ترى أن هذا كله عبث ، وأنه لن يقدر له أن يتحقق قط ؟ !

وكانت ثمة عبارة لم تجرؤ جيما على أن تنطق بها ، رغم انها كانت تحرق شفتيها حرقا . فتولى سانين النطق بها ، نيابة عنها :

ـ ان أصبح زوجك يا جيما .. تلك سعادة لا تقاس بها سعادة !

ولم يبق هناك حدود لحبه ، ونبل قلبه ، وصدق عزمه . فلما سمعت جيما كلامه ، توقفت عن السير ، ثم استحثت خطاها مسرعة . ولعلها كانت تريد بذلك أن تهرب من تلك السعادة التى بلغت من العنفوان والمباغتة أنها لم تكد تستطيع احتمالها !.. وترنحت ساقاها فجأة . فعند ناصية شارع صغير . وعلى بعد بضع خطوات منهما ، لاح السيد كلوبر

مرتديا قبعة جديدة ، منتصبا كسهم ، أشعث الشعر أشبه بكلب مجعد الوبر . فلما رأى جيما ، وعرف سانين . احنى قامته وهو يضحك ساخرا ، ثم تقدم منهما . فكان الشعور الأول الذى استبد بسانين هو الاحتقار ، لكنه ما أن رأى وجه السيد كلوبر الذى حاول أن يظهر دهشته وازدراءه واشفاقه ، ما أن رأى ذلك الوجه الاحمر المبتذل ، حتى استعر فى نفسه الغضب ، فتقدم خطوة الى الأمام . لكن جيما أمسكت بيده ، وجذبتها اليها ، ثم راحت تنظر الى خطيبها السابق نظرة ملؤها العزة والصرامة . فطرف السيد كلوبر بعينيه ، وتضاءل ، ثم مر سريعا الى جانب الشابين ، وهو يدمدم بين أسنانه بكلمات : « هكذا تنتهى الأغنية ! » ، ثم ابتعد بقامته المتراقصة . واذ ذاك صاح سانين :

ــ ماذا قال هذا الوقح ؟

وأراد أن يهرع وراء كلوبر ، لكن جيما أمسكت به ، وأبقت ذراعها فى ذراعه ، وسارا معا . وان هى الا لحظات حتى ظهر لهما الحانوت . فتوقفت جيما مرة أخرى ، وقالت لسانين :

ــ ديمترى ، يا سيد ديمترى ، اننا لم ندخل بعد ، ولا تحدثنا فى الامر الى أمى ، وما يزال لديك متسع من الوقت للتفكير .. انك ما تزال حرا يا ديمترى !

وكان رد سانين على هذا الكلام أن شد ذراع جيما الى صدره بقوة ، وسار بها الى البيت . وقالت جيما فور وصولها الى حجرة المدخل :

ــ أماه .. لقد جئتك بخطيبى الحقيقى !

- ٢٩ -

لو أن جيما قالت لأمها انهـا جاءتها بالطاعون ، أو أقبلت تحمل اليهـا الموت ، لما أظهرت السـيدة ليونور من الألم ، والذعر ، واليأس ما ابدته عند سماعها كلام ابنتها . فقـد هرعت الى ركن من الغرفة ، واعتصمت به ، وأدارت وجهها الى الجدار ، ثم راحت تجهش بالبكاء فى عويل وأنين . فبدت اذ ذاك كفلاحة روسية تنتحب على قبر زوجها أو ابنها ! ..
وقد بلغ الامر بجيما من شدة تأثرها بهذا الاسـتقبال ، انها لم تجرؤ على الاقتراب من أمها ، بل ظلت واقفة فى وسـط الغرفة ، جامدة كالتمثال . ولم يعرف سانين كيف يضبط أعصابه ، حتى لقد أوشك ان يقتدى بالسيدة ليونور !

واستمر هذا الحزن، الذى لم يستطع شىء أن يذهب به ، ساعة كاملة . وقد وجد بانتاليون أن من الخير أن يغلق باب الحانوت بالمفتاح ، حتى لا يسـتطيع أحد أن يدخل . ومن حسن الحظ أن وقت توافد العملاء لم يكن قد حان بعد . وكان الرجل العجوز يشعر باضطراب شديد ، اذ لم يـكن يحبذ هذا التعجل فى مسلك جيما وسانين . ولكنه لم يجرؤ على لومها ، بل ظل مستعداً لأن يقدم لها العون والمسـاندة كلمـا دعت الضرورة الى ذلك . فانه لم يكن يميل قط الى السيد كلوبر .. أما ايميليو فقد ملأه الزهو لأنه كان الوسيط بين صديقه وأخته ، وكان يحس بغبطة وارتياح لأن الامور جرت على هذا النحو . ولم يكن يدرى سببا لحزن أمه ، بل كان يرى ان جميع النسـاء ــ حتى ارجحهن عقلا ــ انمـا

يعوزهن شيء من الحكمة والتعقل .. على أن سانين كان اكثرهم تألما ، وكان كلما هم بالاقتراب من السيدة روزيلى ، صرخت وأبدت تهيجا عنيفا . وقد حاول عدة مرات أن يقول لها عن بعد : « لقد جئت اليك ، أخطب ابنتك . » ، لكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح !

وكانت السيدة ليونور تحقد على نفسها لغفلتها ، ولا تغفر لها تلك الغفلة. وكانت لا تفتأ تردد : «لو كان جيوفانى باتيستا حيا ، لما وقع شيء من هذا الذى حدث ! » . وقال سانين لنفسه : « ترى كيف سننتهى من هذه الأمور يارب .. لقد تبلد ذهنى ، ولم أعد أدرى ماذا افعل ! » .. وكان يخاف من مجرد التطلع الى جيما ، وكانت جيما لا تجرؤ على أن ترفع نظرها اليه ، بل تكتفى بمعاونة أمها التى كانت ترفض تلك المعاونة فى أول الأمر !

ثم أخذت العاصفة تهدأ شيئا فشيئا . فقد انقطعت السيدة ليونور عن البكاء ، وسمحت لابنتها بأن تقودها من الركن الذى لاذت به ، وتجلسها على مقعد كبير قرب النافذة ، وتأتى لها بكوب من الماء المحلى بزهر البرتقال . لكنها ظلت تمنع سانين من الاقتراب منها ، قائلة : « أما أنت فلا ! » . ومع ذلك فقد احتملت بقاءه فى الغرفة ، بعد أن كانت تصر على طرده منها ، وسمحت له بأن يتكلم دون أن تقاطعه !

وسرعان ما استغل سانين هذه الفرصة ، فراح يظهر فى حديثه فصاحة منقطعة النظير .. ولعله ما كان ليقدر على كشف عواطفه ونواياه بمثل هذه القوة فى الحجة والاقناع ،

لو انه كان يتحدث أمام جيما وحدها .. لقد كانت عواطفه صادقة ، ونواياه طاهرة ، فكانت أشبه بعواطف « المافيفا » ونواياه فى مسرحية (حلاق أشبيلية) !!.. على أنه لم يحاول أن يخفى عن السيدة ليونور ، ولا عن نفسه ، ما كان فى وضعه من أمور ظاهرة غير مشجعة . فقد كان رجلا غريبا ، لم تعرفه الأسرة الا منذ بضعة أيام ، ولم تعلم شيئا واضحا لا عن مركزه ، ولا عن وسائل عيشه . ولكنه ذكر انه مستعد لتقديم براهينه واسانيده ، فهو من أسرة محترمة ، وعلى شىء من الثراء ، وفى وسعه أن يستشهد على ذلك بعدد كبير من أهل بلده . ثم قال انه يأمل أن يستطيع اسعاد جيما ، وأن ينجح فى تخفيف ما ستشعر به من ألم لفراق أسرتها .. وكادت كلمة الفراق هذه أن تفسد كل شىء ، اذ ما أن سمعتها السيدة ليونور ، حتى اضطربت فى مقعدها ، فأسرع سانين يستطرد مؤكدا بأنه سيكون فراقا الى حين ، وانه قد يمكن اجتنابه على كل حال !

وسرعان ماجنى سانين ثمرات بلاغته . فقد رضيت السيدة ليونور أخيرا أن تنظر اليه ، وزال ما كان على وجهها من غضب واشمئزاز ، ولم يعد يرتسم عليه الا تعبير عن الألم والعتاب . ومع انها استمرت فى تحسرها ، الا أن حسرتها كانت أكثر اعتدالا ورقة ، وأصبحت تقطعها باسئلة توجهها تارة الى سانين وتارة أخرى الى جيما . ثم سمحت للشاب الروسى بأن يأخذ بيدها دون أن تفكر فى سحبها . وسرعان ما عاودها البكاء ، الا انه كان بكاء هادئا صامتا . وعلت

وجهها أخيرا ابتسامة حزينة ، ثم عبرت مرة أخرى عن أسفها لعدم وجود جيوفانى باتيستا على قيد الحياة حتى يرى أولاده ويرعاهم !

وان هى الا لحظة حتى كان سانين وجيما يركعان عند قدميها ، فوضعت يدها على رأسيهما لتباركهما . ولم يلبث الشابان ان نهضا ، وقبلا السيدة ليونور . وأقبل ايمليو الى الغرفة مشرق الوجه من فرط السعادة ، وراح بدوره يقبل الجمع المتشابك . ثم القى بانتاليون نظرة على الغرفة ، وابتسم ، ولكنه ما لبث أن عبس مرة أخرى ، واتجه الى الحانوت ليفتح باب الدخول !

- ٣٠ -

كان الانتقال من الذعر الى الحزن ، ومن الحزن الى الاستسلام الرقيق ، قد جرى فى نفس السيدة ليونور بسرعة ، ثم ما لبث أن استحال ذلك الاستسلام الى رضى دفين ، راحت تخفيه احتراما للتقاليد . وكان سانين قد ملك قلب السيدة ليونور منذ اليوم الأول . فلما أدركت انه سيغدو صهرها ، لم تزعجها الفكرة ، ولكنها رأت من الضرورى أن تظهر بمظهر من أسىء اليه أو من استبد به القلق . ثم أن جميع الأحداث التى وقعت منذ بضعة أيام ، كانت قد تعاقبت بسرعة خارقة . وكانت السيدة ليونور امرأة عملية ، لذلك رأت من واجبها أن تستجوب سانين استجوابا دقيقا . وأخذ الشاب ـ الذى لم يكن حتى ذلك

الصباح نفسه ، عند لقائه بجيما ، ليفكر فى الزواج ، اذ كان جل همه منصرفا فى تلك اللحظة الى هواه - يمثل دور الخطيب الجاد ، فكان يجيب راضيا ، وفى اسهاب ، عن جميع الأسئلة التى تطرحها عليه السيدة روزيلى !

فلما أيقنت أم جيما أن سانين كان ينتمى الى طبقة النبلاء - وقد أدهشها قليلا أنه ليس أميرا ! - اصطنعت هيئة الجد ، وقالت له فى غير مواربة انها ستكون صريحة معه الى أقصى حدود الصراحة ، لأن ذلك هو الواجب المقدس الذى يقع على عاتق كل أم . فأجابها سانين بأن ذلك عين ما كان يريده ، ورجاها الا تتحرج فى مكاشفته بما فى نفسها . واذ ذاك ابلغته السيدة ليونور أن السيد كلوبر (وحين نطقت باسمه ، تنهدت قليلا ، وعضت على شفتيها ، ثم توقفت لحظة عن الكلام) خطيب جيما السابق ، كان له دخل يبلغ ثمانية آلاف جنيه ، وان ذلك المبلغ كان لا ينى يزيد كل عام .. ثم استطردت تسأل سانين : « وأنت ما دخلك ؟ » . فأجابها سانين ببطء :

- ثمانية آلاف جنيه ؟ ان هذا المبلغ يعادل خمسة عشر ألف روبل .. ان دخلى دون ذلك ، فأنا أملك ارضا فى ولاية تولا ، فان أحسنت استثمار هذه الارض ، درت على خمسة آلاف أو ستة آلاف روبل . وسأتقدم الى احدى وظائف الدولة ، وسيكون مرتبى منها ألفى روبل !

- وظيفة فى الدولة ؟ فى روسيا ؟ .. اذن سأنفصل عن جيما ؟

فبادر سانين يطمئنها بقوله :

ـ انها وظيفة فى السلك الدبلوماسى .. ان لى علاقات كثيرة ، ولا شىء يمنعنى اذن من أن أعيش فى الخارج .. **اصغى الى ! ان أفضل حل هو أن أبيع الارض التى أملكها ، وأن استثمر ثمنها رأسمالا فى أحد المشروعات .. ومن الممكن أن يتناول هذا المشروع تحسين متجركم وتوسيع اعماله !**

وكان سانين يدرك تماما أنه انما يقول أشياء بعيدة عن الحكمة ، لكنه كان يحس بأنه من الجرأة بحيث يستطيع الاقدام على أية تضحية .. كان حسبه أن يلقى نظرة على جيما ـ التى لم تكن تكف ، منذ أخذت أمها تتحدث « فى أمور عملية » ، عن الذهاب والمجىء فى الغرفة ، والتحرك بلا سبب ـ حتى يشعر بأنه مستعد لأن يقبل فورا على كل ما يطلب منه ، ما دامت فتاته راضية .. وقالت السيدة ليونور بعد لحظة تردد :

ـ لقد كان السيد كلوبر ينوى أن ينقدنى مبلغا من المال لتحسين متجرنا !

فصاحت جيما :

ـ أمى .. أمى .. أرجوك !

ـ بل يجب ترتيب هذه الأمور منذ الآن يا ابنتى !

ثم أخذت السيدة روزيلى تسأل سانين عن قوانين الزواج المعمول بها فى روسيا ، وما اذا كان يحظر هنالك على الروسى أن يتزوج من كاثوليكية ، كما هى الحال فى بروسيا ! .. وكانت ألمانيا كلها فى ذلك العهد ـ عام ١٨٤٠ ـ تتحدث عن

الخصومة التى نشبت بين الحكومة البروسية وبين أسقف كولونيا بشأن الزواج المختلط !

ومع ذلك، فحين علمت السيدة روزيلى أن ابنتها ستصبح من طبقة النبلاء ، اذ تتزوج من نبيل ، لم تخف رضاها عن هذا الزواج ، وانما هتفت فجأة تسأل :

ـ ولكن هل يجب أن تذهب الى روسيا قبل أن تتزوج ، لتحصل على ترخيص بزواجك ؟

فأكد لها سانين بأنه لم يكن فى حاجة الى ترخيص بالزواج، ولكنه قد يضطر الى العودة الى روسيا لمدة قصيرة ، ليبيع أرضه ، ويحصل على المال الذى كان فى حاجة اليه . وقد انقبض صدر سانين من مجرد الحديث عن السفر . وحين نظرت اليه جيما ، ادركت أنه يتألم ، فتضرج وجهها ، وظلت مطرقة تفكر . وقالت السيدة ليونور ، تخاطب سانين :

ـ ستأتينى من روسيا بفراء من « الأستراكان » .. فقد سمعت أنه ممتاز فى روسيا ، وانه ليس باهظ الثمن أبدا !

ـ بكل سرور ، وسآتى بفراء لجيما أيضا !

وهنا قال ايمليو ، وهو يطل برأسه من باب الغرفة الأخرى :

ـ أما انا ، فأريد قبعة من الجلد الروسى ، مطرزة بالفضة .

ـ حسنا .. ولبانتاليون حذاءان .

فقالت السيدة ليونور :

ـ لا داعى ، لا داعى ..

ثم استطردت :

ـ لنعد الى الجد .. لقد قلت أنك ستبيع الارض ، فهل ستبيع معها الفلاحين ؟

فأحس سانين ، عند سماعه هذا السؤال ، بوخز فى جسمه . فقد تذكر أنه حين تناقش مع السيدة روزيلى وابنتها فى موضوع تجارة الرقيق ، أظهر اعتراضه على هذا النظام واستنكاره له ، وقال انه لا يمكن أن يبيع عبيده بأى ثمن ، لأنه يرى فى ذلك تجارة منافية للأخلاق .. وأجاب محدثته فى شيء من الاضطراب :

ـ سأحاول أن أبيع أرضى لشخص أعرف فيه الرحمة والانسانية .. أو لعل الفلاحين عندى يؤثرون أن يشتروا حريتهم ..

فقالت السيدة ليونور :

ـ ذلك خير حل ، لأن بيع كائنات انسانية أمر ..

ـ بربرى .. وحشى !

كان الذى قاطع أم جيما هو بانتاليون ، وقد تدخل فى الحديث وهو يمد رأسه من وراء ايمليو ، ثم هز ذؤابته واختفى .. قال سانين لنفسه ، وهو يختلس النظر الى جيما : « حقا ان ذلك ليس بجميل ! » . وكان يبدو على الفتاة أنها لم تسمع كلماته الأخيرة . فقال سانين لنفسه مرة أخرى : « ستحل الأمور على كل حال » . ثم استمرت المناقشة بينه وبين السيدة ليونور حتى الغداء !

وما لبثت السيدة ليونور ـ فى النهاية ـ ان راحت تعامل

سانين فى مودة كبيرة ، فاذا بها تخاطبه باسم ديمترى ، وتهدده بأصبعها فى لطف ، وتقسم لتعاقبنه على مكره .. ومضت توجه اليه أسئلة دقيقة عن قرابته ، قائلة : « هذا أمر هام جدا ! » . وطلبت اليه أن يصف لها حفلات العرس فى طقوس الكنيسة الروسية ، وقدملأتها النشوة اذ تصورت ابنتها جيما فى ثياب العرس البيضاء ، وعلى راسها تاج من ذهب . فأردفت تقول فى زهو الأم :

– ان بنتى جميلة ، كملكة .. بل هى أجمل من ملكة !

فهتف سانين :

– فى العالم جيما واحدة ، لا اثنتان !

– ومن هنا جاء اسمها ! (١)

وأسرعت الفتاة نحو أمها ، وأخذت تقبلها ، وقد أحست بعبء ينزاح عن صدرها !

وشعر سانين بسعادة دافقة ، وامتلأ قلبه بفرح كفرح الأطفال حين تصور أن الأحلام التى كانت تداعب خياله منذ قليل فى ذلك البيت ، قد أخذت تتحقق ، واستولت عليه حاجة شديدة الى العمل والنشاط ، حتى لقد أراد أن يخدم فى متجر الحلوى ، كما فعل ذلك قبل بضعة أيام . وقال لنفسه : « ان هذا الآن من حقى ، فأنا هنا فى بيتى ! » .. وراح بالفعل يعمل فى المتجر ، فقام بعمل البائع ، ووزن لصبيتين كيلو من السكاكر بدلا من نصف كيلو ، وحسب لهما الكيلو بنصف سعره أيضا .. ولما أعدت مائدة الغداء ، جلس الى

(١) تعنى كلمة « جيما » بالايطالية : جوهرة .

جانب جيما ، اذ اعتبر نفسه خطيبها الرسمى . وظلت السيدة ليونور تتحدث فى « الأمور العملية » ، بينما أخذ ايمليو يناشد سانين أن يصطحبه معه الى روسيا !

واستقر الرأى على أن يسافر سانين بعد أسبوعين..وقد ظل بانتاليون وحده مكتئبا ، مكفهر الوجه ، حتى لقد رأت السيدة ليونور أن تقول له : « ألم تكن انت شاهده ؟ ! » ، فرمقها بانتاليون بنظرة غريبة . أما جيما ، فقد بقيت لائذة بالصمت طوال الوقت تقريبا ، ولم يكن وجهها فى يوم من الأيام أكثر جمالا واشراقا منه فى تلك اللحظة..وبعد الفداء نادت سانين ، وخرجت معه الى الحديقة ، فلما وصلت الى المكان الذى كانت جالسة عنده قبل يومين ، وهى تخرج ثمار الكرز من السلة وتضعها فى الطبق ، قالت له :

ـ لا تغضب يا ديمترى ، وانما أريد أن أذكر مرة أخرى بأن عليك الا تظن أنك قد ارتبطت ارتباطا لا فكاك منه .. !

ولم يدعها سانين تتم عبارتها . لكن جيما اردفت تقول ، وهى تخرج من صدرها صليبا من العقيق ، علق فى جيدها بخيط من الحرير :

ـ أما عن الأمر الآخر ، أعنى اختلاف الدين الذى تحدثت عنه أمى ، فان دينى سيكون دينك ، ما دمت قد وهبت نفسى لك !

ثم جذبت خيط الحرير فى عنف ، فلما انقطع ، دفعت بالصليب الى سانين..وكانت عينا سانين ما تزالان مبللتين بالدموع حين عاد الى الغرفة مع جيما . وفى المساء ، كانت الأسرة كلها قد استأنفت مجرى حياتها العادية ؛ حتى لقد عكف الحاضرون على لعب الورق تمضية للوقت !

«.. اذا كان هناك شيء صادق فى هذا العالم ، فهو الحب العميق الذى أحمله لك .. اننى أحبك حبا جنونيا !!»

(صفحة ٢٢٩)

- ٣١ -

استيقظ سانين فى اليوم التالى فى ساعة مبكرة من الصباح . وكان قد بلغ ذروة السعادة التى يمكن أن يصل اليها قلب انسان . على أن هذا ما كان ليحرمه من النوم ، وانما كانت تشغل باله مشكلة مالية ، اذ راح يسائل نفسه عما يجب عليه أن يفعله حتى يبيع أرضه بأقصى سرعة ، وبأحسن سعر ممكن . واختلطت فى ذهنه مشروعات كثيرة ، ولكنه لم يستقر على رأى واضح . وما لبث أن غادر الفندق ، ليستنشق الهواء المنعش ، ويتدبر أمره . فقد كان يريد أن يذهب الى جيما ، وقد اختمرت فى ذهنه خطة معينة !

وفجأة ، استوقف بصره منظر شخص مقبل . وكان رجلا بدينا . لكنه كان حسن الهندام ، ويسير وهو يهتز متأرجحا على قدمين كبيرين .. فتساءل سانين : ترى أين رأى هذا الشعر الأشقر الضارب الى الشيب ، وهذا الرأس الذى يكاد أن يكون مفروسا فوق الكتفين ، وهذا الظهر البارز من فرط ما اختزن من شحم ، وهاتين الذراعين المنتفختين المتدليتين . . الا يمكن أن يكون هذا الشخص هو «بوزلوف» ، رفيقه فى المدرسة الداخلية ، الذى لم يره منذ خمس سنوات ؟ !

فلما وصل اليه الرجل ، ثم تجاوزه ، هرع سانين يركض وراءه حتى تقدمه ؛ ثم التفت اليه ، فرأى وجها عريضا شاحبا ، وعينين صفيرتين كأنهما عينا خنزير ؛ لهما أهداب وحاجبان كساها الشيب ، وانفا قصيرا انطس ، وشفتين

مكتنزتين كأنما التصقت احداهما بالاخرى ، وذقنا مستديرة مرداء . فلم يشك سانين ، حين لمح ما كان يرتسم على هذا الوجه من امارات حـدة الطباع ، والشـك ، وسوء الظن ، ان صاحبه كان حقا «هيبوليت بوزلوف» .. فقال لنفسه : « لا شك أن حسن طالعى هو الذى أرسله الى ، هذه المرة أيضا ! » . ثم ناداه قائلا :

ـ بوزاوف ، هيبوليت سيدورتش ، أهذا أنت ؟

فتوقف الرجل ، ورفع عينيه الصغيرتين ، وتردد لحظة ، ثم فتح شفتيه ، وقال بصوت حاد أجش بعض الشىء :

ـ ديمترى سانين ؟

ـ بعينه !

وهز سـانين احدى يدى « بوزلوف » المدسـوستين فى قفازين رماديين ، والمتدليتين فى سكون على ردفيه الناتئين . وسأل صاحبه :

ـ انت هنا منذ مدة طويلة ؟ من أين وصـلت ؟ وفى أى فندق نزلت ؟

ـ وصـلت أمس من فسـبادن ، لأبتاع بعض الاشـياء لزوجتى ، وسأعود اليوم الى فسبادن .

ـ آه ، حقا ! .. لقد سمعت أنك تزوجت ، وأن امرأتك على جانب عظيم من الجمال !

وانزلقت عينا بوزلوف من اليمين الى الشمال حين سمع هذا الكلام ، وقال :

ـ نعم ، يقال ذلك !

فانفجر سانين ضاحكا ، ثم قال :

ــ أرى أنك لم تتبدل .. فما زلت على مثل ما كنت عليه من هدوء أيام الدراسة .

ــ وفيم التغيير ؟

ــ يقال أيضا (وقد ألح سانين على كلمة «يقال» هذه) . ان امرأتك عظيمة الثراء .

ــ نعم ، يقال ذلك أيضا !

ــ وأنت ، ألست متأكدا من ذلك ؟

ــ انا ، يا عزيزى ، لا أتدخل فى شئون زوجتى !

ــ ولا فى أى شأن من شئونها ؟

ــ ولا فى أى شأن من شئونها .. انها تسير فى طريقها ، وانا أسير فى طريقى !

وانزلقت عيناه مرة اخرى . ثم سأله سانين :

ــ الى أين أنت ذاهب الآن ؟

ــ لست ذاهبا الى أى مكان . سأبقى فى الشارع أجاذبك أطراف الحديث ، حتى اذا حان وقت الفداء ، ذهبت الى الفندق ، وتناولت غدائى !

ــ هل تحب أن أرافقك ؟

ــ فى الغداء ؟

ــ أجل .

ــ بكل سرور .. ان تناول الغداء مع شخص آخر امر اكثر متعة دائما . ولكنك لن تثرثر كثيرا ، أليس كذلك ؟

ــ كلا ..

ــ حسنا .

***

واستأنف بوزلوف سيره ، ومشى سانين الى جانبه . والتصقت شفتا بوزلوف مرة أخرى ، وراح يرسل صوتا من أنفه ، وهو يسير مهتزا فى صمت . فأخذ سانين يسائل نفسه : « كيف استطاع هذا الرجل الغبى ، أن يعثر على زوجة فى مثل هذه الفتنة وهذا الثراء .. انه لم يكن بالرجل الغنى ، ولا هو ينتمى الى الطبقة النبيلة العليا ، وليس على شىء من ذكاء .. لقد كان يعد فى المدرسة تلميذا أبله ، خاملا ، شرها لا أكثر ! .. ولكن ، ما دامت زوجته غنية ، أفلا يمكن ان تشترى أرضى ؟ لقد قال بوزلوف انه لا يتدخل فى شئون زوجته ، ولكننى لا أصدق هذا الزعم . سوف أطلب لأرضى ثمنا يغريها .. فلأحاول ، ربما كان حسن الطالع هو الذى ارسله الى .. نعم ، لقد قررت هذا ، وسوف افاتحه فى الأمر ! »

وقاد بوزلوف صاحبه الى فندق من أكبر فنادق فرنكفورت ، وكان يحتل فيه جناحا فاخرا ، ولما لمح سانين فوق أثاث الغرفة بعض العلب والصناديق ، قال صديقه مشيرا اليها :

ــ هذه مشترياتى لماريا نيقولايفنا !

ثم تهالك على أحد المقاعد . واستطرد ، وهو يحل ربطة عنقه :

ــ ما أشد الحر اليوم !

ودق الجرس للخادم ، وأمره بقائمة منوعة حافلة بأفخر الطعام ، ثم قال له :

- ويجب أن تكون العربة مهيأة فى الساعة الواحدة ، فى الساعة الواحدة ، هل فهمت ؟

فانحنى الخادم انحناءة كبيرة ، امعانا منه فى التحية والاحترام ، ثم انصرف . وفك بوزلوف أزرار صديريته .. وكان حسب المرء أن يرى كيف يرفع حاجبيه ، ويتنفس فى عناء وهو يفتح منخريه ، حتى يدرك أن الكلام كان يقتضيه مجهودا شاقا . وراح يتساءل ، فى قلق باد ، ما اذا كان رفيقه سيحمله على تحريك لسانه ، أم أنه سيعفيه من هذه المهمة ، ويتولى هو الكلام وحده .. وأدرك سانين ذلك، فلم يحاول ازعاج صديقه القديم بالأسئلة ، وانما اكتفى منها بما كان لا بد له من معرفته . فلم يلبث أن علم منه أنه قد دخل الجيش، وظل فيه سنتين، منخرطا فى سلاح الفرسان، وانه تزوج قبل أربع سنوات ، وانه يطوف فى الخارج مع زوجته منذ سنتين ، وأن زوجته تستشفى الآن بمياه فسبادن ، توطئة لسفرها من هناك الى باريس !

وكان سانين شديد التكتم ، فلم يحدث صديقه عن ماضيه ولا عن خططه ومشاريعه ، بل انتقل رأسا الى الموضوع الذى كان يعنيه بوجه خاص ، وهو رغبته فى بيع أرضه . وكان بوزلوف يصغى اليه دون أن ينبس بكلمة ، بينما أخذ يتطلع الى الباب الذى سيدخل منه الطعام . وسرعان ما وصل الطعام أخيرا ، يتقدمه رئيس الخدم ، ويحمله خادمان فى

اطباق عديدة فوقها اغطية ثقيلة من الفضة . وقال بوزلوف وهو يجلس الى المـائدة ، ويدس طرف المنشـفة فى ياقة قميصه :

ـ ان أرضك تقع فى ولاية تولا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، فى ولاية تولا .

ـ بمنطقة افرسوف .. انني أعرف ذلك !

ـ أانت تعرف أرضي الكائنة فى ألكسيئيفكا ؟

ـ أظن أننى أعرفها .

وحمل بوزلوف الى فمه قطعة كبيرة من العجة ، ثم قال :

ـ ان لزوجتى أراضى قريبة منها .

ثم نادى الخادم ، وطلب اليـه أن يفتح زجاجة الخمر . وأردف :

ـ ان هذه الاراضى خصبة ؛ لـكن فلاحيك قد قطعوا أشجار غابتك .. وبالمناسبة ، لماذا تريد أن تبيع أملاكك ؟

ـ لأننى فى حاجة الى المال .. أجل .. وسأبيع بثمن غير باهظ .. ان شراءك أرضى صفقة رابحة لك !

وأفرغ بوزلوف فى جوفه كأسا من الخمر دفقة واحدة ، ثم جفف فمه بمنشفته ، وراح يمضغ الطعام ببطء ، ويلوكه بصوت مسموع . ثم قال :

ـ لا .. انا لا أشترى أملاكا ، فليس عندى مال اشترى به .. ناولنى الزبد من فضلك .. ولكن زوجتى قد تشترى أرضـك .. حدثها فى الموضوع ، وما أحسب أنها ستحجم

عن الشراء اذا أنت طلبت ثمنا معقولا .. يا لهؤلاء الألمان من حمير ! .. انهم لا يجيدون طهى السمك ، مع انه من أيسر الأمور وابسطها ، ثم يتحدثون بعد ذلك عن وحدة الوطن !

ثم نادى الخادم مرة أخرى ، قائلا :

- ارفع هذا الطعام الذى لا يؤكل !

- هل صحيح أن زوجتك تدير أملاكها وحدها ؟

- نعم ، وحدها .. ان شرائح اللحم المشوى لذيذة .. أنصحك بأن تتذوقها .. قلت لك انني لا أتدخل فى شئون امرأتى .. أجل .. انا لا أتدخل فى شئونها قط !

ومضى بوزلوف يمصمص بشفاهه ، وهو يمضغ الطعام . فسأله سانين :

- ولكن ماذا يجب على أن أفعل لأحدثها فى الأمر بنفسى ؟

- الأمر بسيط .. اذهب الى زيارتها بفسبادن، وفسبادن ليست بعيدة عن فرنكفورت !

ثم نادى الخادم :

- هات لى خردلا انجليزيا .. أليس عندكم خردل انجليزى ؟ يا لكم من بهائم !

وعاد يخاطب سانين :

- ولكن يجب الا تضيع الوقت ، فنحن مسافران بعد غد .. هل لك فى قليل من الخمر ؟ ان خمرهم لا بأس بها !

واحمر وجه بوزلوف . ولم يكن ينتعش الا حين يأكل ويشرب ، وقال سانين :

- الحق أننى لا أعرف ماذا أفعل ..

ـ ولكن هل أنت متعجل لبيع أرضك ؟
ـ جدا !
ـ وهل أنت فى حاجة ماسة الى مبلغ كبير ؟
ـ أجل .. أصغ الى .. اننى أفضل أن أذكر لك كل شىء .. اننى بصدد الزواج !

فما أن سمع بوزلوف هذا التصريح، حتى أعاد الى المائدة القدح الذى كان قد حمله الى شفتيه . وسأل صديقه مشدوها :

ـ بصدد الزواج ؟ هكذا ؟ .. فجأة ؟

وراح يضم يديه الممتلئتين الى بطنه. بينما أجابه سانين :

ـ نعم .
ـ وخطيبتك .. هى الآن فى روسيا طبعا ؟
ـ كلا .
ـ أين هى اذن ؟
ـ هنا فى فرنكفورت !
ـ وما جنسيتها ؟
ـ انها المانية .. أقصد .. كلا .. انها ايطالية مولودة بفرنكفورت !
ـ أغنية هى ؟
ـ كلا .
ـ هو اذن غرام جامح !
ـ أنت مضحك .. أجل ، اننى أحبها حبا جما .
ـ ومن أجل هذا ، تريد المال ؟
ـ نعم ، نعم ، نعم !

وافرغ بوزلوف كأسه ، ثم تمضمض ، وغسل يديه ، وجففهما بالمنشفة ، وما لبث ان أخرج من جيبه سيجارا ، فأشعله . وكان سانين ينظر اليه دون أن يقول شيئا . وأخيرا قال بوزلوف ، وهو يدفع راسه الى وراء ، وينفث الدخان فى حلقات دقيقة :

– **لا أرى الا وسيلة واحدة ، هى أن تذهب الى زوجتى ، فاذا شاءت ، أخرجتك من المازق الذى أنت فيه .**

– ولكن كيف أستطيع أن أقابل زوجتك ، وأنت تقول انكما مسافران بعد غد ؟

واغمض بوزلوف عينيه . ثم قال اخيرا ، وهو يدير السيجار بين شفتيه ، ويتنهد :

– اسمع . اذهب الآن الى فندقك ، فهيىء أمتعة السفر بسرعة ، ثم عد الى هنا . اننى سأسافر فى الساعة الواحدة ، وعربتى متسعة ، فيمكن أن تأتى معى . وهذا خير ما يمكن عمله .. والآن ، أنا فى حاجة الى قيلولة قصيرة ، اذ اننى متى أكلت ، شعرت برغبة فى أن انام قليلا .. ان مزاجى يفرض على ذلك ، وأنا أخضع له دائما ، فلا تحل اذن بينى وبين النوم !

واخذ سانين يفكر ، ثم رفع رأسه فجأة ، وقد بدا انه اعتزم امرا . وقال لبوزلوف :

– حسنا .. شكرا لك . سأعود اليك فى الساعة الثانية عشرة والنصف ، وسنسافر معا الى فسبادن ، وآمل ألا تستاء زوجتك من قدومى !

وما أن فرغ سانين من كلامه ، حتى كان بوزلوف قد استغرق فى نوم عميق ، وراح يغط بصوت مرتفع . وكان ، منذ أن قال لصديقه : « لا تحل بينى وبين النوم » ، قد مد ساقية ، ونام كالطفل .. والقى سانين نظرة أخيرة على ذلك الوجه الضخم ، والراس الذى بدا وكأنه لا رقبة تحته ، والذقن العالية المدورة التى تشبه التفاحة ، ثم هرول الى حانوت السيدة روزيلى . لينبىء جيما بما استقر عزمه عليه !

- ٣٢ -

وجد سانين الفتاة مع أمها فى الحانوت . وكانت السيدة ليونور منحنية على الأرض ، وقد راحت تقيس المسافة بين النافذتين . فلما رات سانين ، نهضت ، واستقبلته فرحة ، ولكن فى شىء من الخجل . وقالت :

ـ أصبحت ـ منذ حديثنا أمس ـ. لا أفكر الا فى الاصلاحات التى يمكن أن ندخلها على الحانوت.. اننى هنا أريد رفوفا من مرايا حقيقية ، فهذه هى «الموضة» الآن .. وهنا ..

فقال سانين مقاطعا :

ـ حسنا ، حسنا ، سنفكر فى هذا كله فيما بعد .. اما الآن فتعالى معى . أريد أن أفضى اليك بنبأ !

وأمسك بذراع السيدة ليونور ، فمضى بها الى الغرفة المجاورة . وقد اضطربت المراة ، فسقط من يدها المتر الذى كانت تحمله . وانزعجت جيما قليلا ، فرفعت بصرها الى

مانين ، لكنها ما لبثت ان اطمأنت . فقد كان وجه الشاب ينبىء عن انشغال البال ، ولكنه كان يعبر فى الوقت نفسه عن شجاعة لا تتزعزع ، وعن عزم لا يلين .. وطلب الى المرأتين أن تجلسا ، وظل هو واقفا أمامهما ، يشير بيديه ، وقد انتكش شعره . وراح يقص عليهما لقاءه المفاجىء ببوزلوف ، وسفره المقترح الى فسبادن ، وأمله فى ان يبيع ارضه . وهتف مخاطبا جيما :

– هل تدركين السعادة التى أنا فيها ؟ اذا نجحت المساعى التى أقوم بها ، فلن أضطر الى السفر الى روسيا .. وسيكون فى وسعنا أن نتزوج قبل الموعد الذى كنت أقدره لزواجنا .

فسألته جيما :

– ومتى تسافر ؟

– بعد ساعة . سأصحب صديقى فى عربته !

– ستكتب الينا ، أليس كذلك ؟

– ساعة وصولى .. ومتى تحدثت مع هذه السيدة فى الأمر ، بعثت أطلعك على ما وصلت اليه من نتائج ..

وهنا سألته السيدة ليونور :

– تقول أن هذه السيدة غنية جدا ، أليس كذلك ؟

– بل هى ذات ثراء فاحش .. كان أبوها يملك عدة ملايين ، وقد أوصى لها بكل ثروته قبل ان يموت !

– لها وحدها ؟ هذا من حسن حظك .. ولكن حاول الا تبيع أرضك بثمن بخس .. كن حكيما ولا تفرط .. كن هادئا ولا تتحمس ! .. انا ادرك رغبتك فى الزواج بأقصى

سرعة . ولكن لا تنس ان ما سيبقى لكما ولأولادكما من المال سيكون على قدر المبلغ الذى تستطيع ان تنتزعه ثمنا لأرضك!

وحولت جيما رأسها . فاستأنف سانين كلامه وحركاته واشاراته :

ـ اعتمدى على حكمتى يا سيدة ليونور .. لن أسمح بالمساومة. سأحدد لهذه السيدة سعرا معقولا ، فان وافقت عليه كان بها ، والا فلا !

وقالت جيما :

ـ وهل سبق ان رأيت هذه السيدة ؟

ـ أبدا .

ـ ومتى تعود ؟

ـ اذا لم تنجح الصفقة ، عدت غدا . اما اذا رأيت ان من الممكن أن أخرج بشىء ، بقيت يوما آخر أو يومين .. وعلى كل حال ، لن تطول اقامتى هناك دقيقة واحدة فوق الحاجة .. اننى أترك روحى هنا .. ولكن يجب أن أذهب الى غرفتى قبل السفر .. يا سيدة ليونور ، ناولينى يدك ، اتيمن بها .. هذه عادة فى روسيا !

ـ اليمنى أم اليسرى ؟

ـ بل اليسرى ، لأنها الى القلب أقرب . وسأعود غدا منتصرا أو منكسرا . الا اننى احس بأننى سأعود منتصرا . الى اللقاء يا عزيزتى : الى اللقاء يا صديقتى !

وقبل السيدة ليونور ، ثم سأل جيما أن تسمح له بالدخول الى غرفتها لحظة ، ليسر اليها بأمر هام . والواقع انه كان

يريد الاختلاء بها قبل أن يرحل . وقد أدركت السيدة ليونور مقصده ، فلم تسأله عن ذلك الأمر الهام الذى كان يبغى الافضاء به الى ابنتها .. ودخل سانين لأول مرة غرفة الفتاة . فما أن اجتاز تلك العتبة المقدسة ، حتى استعر فى نفسه كل ما يثيره الحب من فتنة ، وسحر ، وحرارة ، ونشوة ، وكل ما فيه من خوف عذب أيضا . وألقى على ما حوله نظرة رقيقة ، ثم ركع أمام الفتاة ، وشد وجهه الى ثوبها . فقالت جيما :

– هل أنت لى ؟ هل ستعود قريبا ؟

فأجابها سانين بصوت مختنق :

– أنا لك .. وسأعود قريبا !

– سأنتظرك !

وبعد بضع دقائق ، كان سانين فى الشارع يعدو نحو الفندق . ولم يلحظ أن بانتاليون قد خرج من الحانوت فى أثره ، وهو أشعث الرأس ، وقد راح يلوح له بيده المرفوعة وكأنه يهدده ، ويتمتم بكلام لم يبلغ مسامع سانين .

وفى الساعة الواحدة الا ربعا – على وجه التحديد – دخل سانين على بوزلوف . وكانت أمام الفندق تقف عربة أنيقة ، تجرها أربعة جياد . فلما رأى بوزلوف صاحبه سانين ، ابتدره قائلا : « آه .. اذن لقد قررت ! » ، ثم ارتدى معطفه ، ودس قدميه فى حذاءين من المطاط فوق الخفين ، وسد أذنيه بقطعتين من القطن ، رغم أن الوقت كان صيفا ، ثم بارح الغرفة . وكان الخدم قد نقلوا الطرود الكثيرة الى

العربة حسب أوامره ، وحشوا مكانه بوسائد من الحرير ، وصفوا حولها أكياسا صغيرة ، ووضعوا عند مكان القدمين سلة مليئة بالمؤونة ، وحزموا الحقيبة الكبيرة الى جانب الحوذى . وبعد أن منح بوزلوف جميع الخدم «بقشيشا» ، صعد الى العربة وهو يئن ،وقد استند الى ذراعى البواب الذى تقدم ليعاونه فى احترام وتعظيم بالغين ، ثم اخذ مكانه بعد أن جس الطرود من حوله هنا وهناك ، واخرج من جيبه سيجارا فأشعله ، وبعد ذلك كله أشار الى سانين بحركة من أصبعه لكى يصعد الى العربة ، ففعل سانين ، وجلس الى جانبه . وطلب بوزلوف من البواب أن ينصح الحوذى بالتزام اليقظة والانتباه ، اذا كان حريصا على الحصول على « البقشيش » . وسرعان ما قرقع سوط الحوذى ، فصفقت الأبواب وهى تغلق ، وانطلقت العربة فى المسير !

- ٣٣ -

يقطع القطار ـ فى أيامنا هذه ـ المسافة بين فرنكفورت وفسبادن فى اقل من ساعة . أما فى ذلك العهد ، فكانت العربات تستغرق ثلاث ساعات لقطع هذه المسافة ، فضلا عن انها كانت تستبدل أثناء ذلك خمس مرات !

لم يتكلم بوزلوف الا قليلا أثناء الطريق ، وكان يبدو كالنائم ، وهو يهتز ، ويقلب سيجاره بين شفتيه . ولم ينظر من النافذة مرة واحدة ، اذ لم تكن المناظر الطبيعية لتثير شغفه أو اهتمامه . حتى لقد صرح قائلا : « الطبيعة هى الموت فى

نظرى ! » . وكان سانين راكنا الى الصمت هو الآخر ، ولم يعبأ بمناظر الطبيعة ، اذ كان مستغرقا استغراقا تاما فى أفكاره وذكرياته .. وكان بوزلوف ، فى كل محطة ، يدفع المال بلا مساومة ، وينظر الى الساعة المعلقة فى معصمه ، ويوزع « البقشيش » على الحوذية ، كل على قدر حماسته وهمته !

وأثناء الطريق ، اخرج من السلة برتقالتين ، فاختار افضلهما لنفسه ، ثم دفع بالأخرى الى سانين . وفيما كان بوزلوف يقشر برتقالته بأظافره القصيرة البيضاء ، أطلق سانين فجأة ضحكة عالية ، وهو ينظر الى رفيقه . فسأله هذا مشدوها :

ـ ما الذى يضحكك ؟

ـ رحلتنا هذه ..

ـ لماذا ؟

وراح بوزلوف يلتهم ربع البرتقالة دفعة واحدة . على حين أردف سانين :

ـ عجيبة رحلتنا هذه ! .. بالأمس لم يكن تصورى بأن القالك ليفوق توقعى مقابلة امبراطور الصين .. ثم ها أنذا اليوم مسافر معك ، لأبيع أرضى لزوجتك التى لم أرها فى حياتى قط !

فقال بوزلوف :

ـ ان كل شىء ممكن الحدوث . وكلما تقدمت فى السن ، رأيت ما هو أعجب .. انظر مثلا : هل تتصور صديقك

بوزلوف على صهوة جواد ، ملحقا بخدمة أحد أصحاب السعادة ؟ طبعا لا .. ومع ذلك فقد حدث هذا ! .. وحين رآنى الدوق ميخائيل بافلوفتش ، صاح فى : « أسرع ، أسرع .. الكز هذا البغل ! »

وحك سانين أذنه ، وقال :

ـ قل لى ، يا هيبوليت سيدورتش ، كيف هى امرأتك ؟ حدثنى عن طباعها ، اذ يجب أن أعرف شيئا عن الشخص الذى ساتعامل معه !

فاستطرد بوزلوف فى لهجة تقطر حقدا :

ـ كان فى وسع الدوق أن يأمرنى : « أسرع .. أسرع ! » ، ولكننى استطعت انا ايضا أن أنزل عن الحصان ، ثم أقول لهم : « هاكم الرتب .. وهاكم النياشين .. اننى اريدها ! » .. آه .. تريدنى أن احدثك عن زوجتى ؟ حسنا .. **ان امرأتى انسان كسائر بنى البشر ، ولكن لا ((تحاول أن تدس أصبعك فى فمها)) ، انها لا تحب هذا ! .. وقبل كل شىء يجب أن تضحكها ..** قص عليها حكايات غرامية ، على شرط أن تكون حكايات مضحكة ، هل فهمت ؟

ـ مضحكة ؟ كيف ؟

ـ طبعا .. لقد قلت لى انك تحب ، وانك تريد أن تتزوج .. حسنا .. قص عليها مغامرتك !

واحس سانين باستياء . لكنه قال :

ـ ما الذى يضحك فى زواجى ؟

فاكتفي بوزلوف بأن نظر الى سانين، وكان عصير البرتقال

يسيل على ذقنه . وعاد سانين يسأل صديقه بعد لحظة صمت :

- هل زوجتك هى التى طلبت منك أن تأتى الى فرنكفورت لشراء هذه الأشياء ؟

- نعم .

- وما الذى اشتريته ؟

- بعض اللعب .

- لعب ؟ .. هل لك أطفال ؟

وما أن سمع بوزلوف سؤال سانين ، حتى ابتعد عنه ، وقال :

- ما هذا الذى تقوله ؟ أطفال ؟ ولم الأطفال ؟ ان اللعب التى اشتريتها هى أشياء للزينة .. انها أدوات زينة !

- أأنت تجيد شراء مثل هذه الأشياء ؟

- طبعا !

- لكنك قلت لى أنك لا تتدخل فى شئون زوجتك ؟

- فى هذه الشئون أتدخل .. أقصد شئون الزينة .. ان هذا يسلينى ، وزوجتى تعتمد على ذوقى .. ثم اننى أحسن المساومة !

وصار بوزلوف يلفظ عباراته متقطعة ، وكان واضحا أن التعب قد نال منه كل منال . غير ان سانين راح يلاحقه بأسئلته :

- هل زوجتك غنية جدا ؟

- من ناحية الفنى ، هى غنية .. ولكنها تحتفظ بالثروة كلها لنفسها !

- يخيل الى مع ذلك أنه ليس لك أن تشكو أو أن تتبرم .. فأنت تعيش فى بحبوحة !

- ألست زوجها ؟ ! .. آه..ان هذا ما كان ينقصنى .. أن أعيش فى ضيق ! .. لاحظ أننى أقدم لها خدمات كثيرة ، فهى تستفيد منى .. ثم اننى لا أضايقها فى شىء ، فأنا زوج مريح !

ثم طفق يجفف وجهه بمنديل ، ويتنهد بصعوبة ، وكأنه يقول لمحدثه : « ارحمنى..ارحمنى .. لا تحملنى على المزيد من الكلام .. ألا ترى أن الكلام يرهقنى ؟ ! » .. فتركه سانين وشأنه ، واستغرق فى تأملاته من جديد !

***

وكان الفندق الذى وقفت أمامه العربة فى (فسبادن) أقرب الى القصر منه الى الفندق.وسرعان ما دقت الأجراس فى الممرات ، وقام فى الفندق هرج ومرج . وأقبل خدم يرتدون اللباس الرسمى ، ثم جاء بواب طرزت ثيابه بخيوط ذهبية ، ففتح باب العربة . وترجل بوزلوف فى خيلاء ، وأخذ يصعد السلم المعطر المفروش بالسجاد . وهرع الى استقباله رجل يلبس رداء رسميا أسود ، ويبدو من هيئته أنه روسى . لقد كان تابع السيد بوزلوف الخاص . وأبلغه هذا بأنه سيصطحبه بعد الآن حيثما يذهب، لأنهم قد تركوه

بالأمس ، طوال الليل ، فى فرنكفورت ، بدون قطرة واحدة من الماء الساخن . فعلت وجه التابع امارات الدهشة والرعب ، ثم أسرع ينحنى ، فخلع عن خفى سيده حذاءى المطاط . وسأله بوزلوف :

ــ هل ماريا نيقولايفنا فى حجرتها ؟

ــ صاحبة السمو فى حجرتها .. صاحبة السمو ترتدى ملابسها .. انها ستتناول طعام الفداء على مائدة الكونتيسة لاسونسكى .

ــ آه ، على مائدة الكونتيسة .. اسمع ، لقد تركت فى العربة ملابس .. فاذهب ، واحمل الى هذه الملابس بنفسك .. اما أنت ، يا ديمترى بافلوفتش ، فاحجز غرفة لنفسك ، ثم تعال الى ، هنا ، بعد ثلاثة أرباع الساعة ، وسنتناول الفداء معا .

ثم انصرف ، على حين مضى سانين ، فطلب أن تحجز له غرفة بسيطة متواضعة . حتى اذا انتهى من ارتداء ملابسه فى غرفته ، ونال قسطا من الراحة ، دخل الجناح الواسع الذى يحتله « صاحب السمو الأمير بوزلوف » ، فوجد « سموه » جالسا على أريكة من المخمل اللامع ، وسط صالون أنيق باهر . وكان صديق سانين قد استحم فى تلك الاثناء ، ثم خرج من الحمام ، فارتدى ثوبا من ثياب المنزل ، صنع من الحرير الفاخر ، ووضع على رأسه طربوشا أحمر زاهيا ارجوانى اللون . واقترب منه سانين ، واخذ يحدق فيه . لكن بوزلوف ظل جالسا لا يأتى حراكا ، وكأنه صنم

فى محراب . ولم يلتفت نحو سانين ، ولا هز حاجبيه ، أو نطق بحرف . وكان منظرا بالغ الروعة ، راح سانين يتأمله فى كثير من الاعجاب !

وفيما كان سانين يهم بأن يقطع ذلك الصمت المهيب ، اذا بباب الغرفة المجاورة يفتح ، فتطل منه امرأة شابة جميلة ، ترتدى ثوبا من الحرير الأبيض ، مزينا بشرائط سوداء ، وفى معصميها وجيدها تلتمع أحجار ماسية ثمينة . كانت « ماريا نيقولايفنا بوزلوف » . وكان شعرها الأحمر الكثيف يتدلى على كتفيها فى جدائل ، أخذت تمشطها تمهيدا لرفعها الى أعلى !

- ٣٤ -

ـ آه .. معذرة !

هكذا صاحت « ماريا نيقولايفنا » ، وهى تبتسم ابتسامة امتزج فيها الخجل بالسخرية . ثم رفعت بيدها احدى جدائلها ، ونظرت الى سانين بعينيها الواسعتين الصافيتين ، وقالت تخاطب زوجها :

ـ لم إكن أعلم أنك عدت .

فأجابها بوزلوف ، وهو يشير الى سانين بأصبعه ، دون أن يتحرك من مكانه :

ـ هذا سانين بافلوفتش ، من أصدقاء الطفولة !

ـ أعرف ذلك ، لقد سبق أن حدثتنى عنه .. أنا سعيدة بمعرفتك .. ولكننى جئت أطلب اليك خدمة يسيرة

يا هيبوليت سيدوروفتش ، فان وصيفتى اليوم لا يعتمد عليها .

— تريدين أن أصفف لك شعرك ؟

— نعم ، أرجوك ، ومعذرة !

وعادت ماريا نيقولايفنا تبتسم ابتسامتها الأولى . وما لبثت أن حيت سانين بحركة من رأسها ، ثم استدارت ، وانصرفت . وكان اختفاؤها — مثل ظهورها — سريعا خطفا . وكانت ذات جسم رشيق ، وجيد فاتن ، ونحر مشرق مضىء .. ونهض بوزلوف ، فتبع امرأته بخطوات متثاقلة الى الغرفة المجاورة . ولم يساور سانين ادنى شك فى أن المرأة الشابة كانت تعرف أنه كان فى صالون بوزلوف ، كما لم يرتب لحظة واحدة فى أنها لفقت هذه التمثيلية عامدة ، لتكشف له عن شعرها الجميل ، الذى كان — الواقع — جديرا بالمشاهدة والاعجاب . وقد اغتبط سانين لذلك ، قائلا لنفسه : « من يدرى . لقد أرادت أن تبهرنى بجمالها ، فعسى أن تتساهل معى ، فتشترى الأرض ! » .. وكانت نفسه مشبعة بحب جيما ، حتى أن جميع النساء ما كن ليستحوذن على اهتمامه قط . وقد اكتفى — هذه المرة — بأن قال لنفسه : « نعم ، لقد صدقوا حين قالوا ان امرأته رائعة الجمال ! » .

ومما لا شك فيه أنه لو كان سانين فى ظروف أخرى غير تلك الظروف ، لما اكتفى بمجرد هذه العبارة تعبيرا عن احاسيسه ومشاعره . فقد كانت ماريا نيقولايفنا (وكان اسمها قبل الزواج « كولشكين ») امرأة لا يستطيع المرء

الا أن يلتفت اليها . ولم يكن جمالها بالجمال الخارق ، بل أن قسماتها كانت تكشف فورا عن أصلها الوضيع..وكانت ضيقة الجبهة ، ذات أنف كبير مفرطح ، وبشرة لا تتميز بأية رقة أو نعومة ، ويدين وقدمين تجردت من الرشاقة .. وصحيح أن من كان يراها ، لم يكن يقف امامها ماخوذا « بجمال مقدس » ، على حد تعبير « بوشكين » . ولكنه كان يقف على كل حال ، وقد بهرته فتنة جسم نضر ، ممشوق ، قوى ، جسم امرأة روسية أو غجرية ! .. كان من يراها لا يسعه الا أن يقف أمامها حتما . غير أن صورة جيما كانت تحمى سانين ، وكأنها « الدرع المثلثة » التى تغنى بها الشاعر !

وعادت ماريا نيقولايفنا بعد عشر دقائق ، يصحبها زوجها . واقتربت من سانين .. وكانت مشيتها تثير الفتنة والاغراء ، حتى لقد قال أحد المعجبين فى وصفها : «حين تقبل عليك هذه المرأة ، تشعر كأن السعادة كلها مقبلة عليك!» .. ومدت يدها الى سانين ، وقالت تخاطبه بصوت لطيف رقيق :

ـ أرجو ألا تذهب قبل عودتى .. ولن اتأخر على كل حال !

فانحنى سانين فى احترام ، واتجهت ماريا نيقولايفنا نحو الباب ، فلما صارت عند العتبة ، التفتت برأسها الى الوراء ، وابتسمت ، ثم خرجت ، مخلفة فى نفس سانين ذلك الاحساس عينه الذى أحس به أول مرة !

وحين كانت ماريا نيقولايفنا تبتسم ، لم تكن ترتسم على كل خد من خديها غمازة واحدة ، بل ثلاث غمازات ..

فتضحك عيناها وشفتاها الطويلتان، القرمزيتان، المتمعتان ، اللتان كانت تجاورهما من الجهة اليسرى شامتان صغيرتان .

وجر بوزلوف نفسه جرا الى الأريكة ، دون ان يقول شيئا ، الا أن ابتسامة ساخرة غامضة كانت تعلو وجنتيه الممتلئتين ، الباهتتين ، المغمضتين ، من حين الى آخر .. وكان يبدو وكأنه رجل عجوز ، مع أن عمره لم يكن يجاوز عمر سانين الا بثلاثة أعوام ..

وجلس الرجلان الى المائدة . وكان الطعام الذى قدمه بوزلوف الى سانين خليقا بأن يرضى أرهف الناس ذوقا ، وأرقهم احساسا . لكن سانين وجد العشاء طويلا مملا ، حتى بدا وكأنه لن ينتهى . وكان بوزلوف يتناول طعامه ببطء . وكان يلتهمه بشغف ، واقتناع ، واهتمام ، فكان يميل برأسه الى الطبق حتى ليكاد يغمسه فيه ، ولم يكن يفته أن يشم كل لقمة قبل أن يزدردها . وكان يتمضمض بالخمر أولا ، ثم لا يلبث أن يبتلعها مصمصا مقرقعا . وحين جاء دور اللحم المقلى ، انحلت عقدة لسانه فجأة . فراح يتحدث عن الخراف التى كان يريد أن يجىء الى مزرعته بقطيع كامل منها ، فكان يفيض فى الحديث عنها ، موردا التفاصيل ، تلو التفاصيل ، ولم يكن يستعمل فى عباراته الا صيغ التصغير ، امعانا فى اظهار حبه وشدة تعلقه بتلك الخراف !

وبعد أن تناول فنجانا من القهوة الساخنة الى درجة الغليان (وقد لفت نظر الخادم ـ عدة مرات ، أثناء الطعام ـ

الى أن القهوة سبق أن قدمت اليه باردة كالثلج) ، قضم بأسنانه الصفراء المعقوفة، سيجارا من نوع (هافانا) الفاخرة ، ثم ما لبث أن نام ، على عادته ، فاغتبط سانين لذلك ايما اغتباط !

وأخذ الشاب يذرع الصالون جيئة وذهابا ، دافعا السجادة السميكة بقدميه ، وهو يفكر فى حياته المقبلة مع جيما ، وفى الانباء التى يمكن أن يحملها اليه الغد .. لكن بوزلوف استيقظ من نومه قبل الموعد الذى اعتاد أن يستيقظ فيه ، اذ لم يخلد الى النوم الا لمدة ساعة ونصف ساعة . فلما صحا ، شرب كوبا من الماء المثلج ، ثم التهم ثمانى ملاعق من مربى الفاكهة الروسية الفاخرة ، التى قدمها له تابعه فى اناء أخضر قاتم . وقال لصديقه انه بدون المربى لا يستطيع ان يعيش ، ثم رفع نحوه عينيه المحتقنتين بعض الشىء ، وسأله عما اذا كان مستعدا لأن يلاعبه الورق . وقبل سانين ، لأنه خشى أن يستأنف بوزلوف حديثه عن الخراف ، وأن يخوض فى تفصيلات ثقيلة لا أول لها ولا آخر .. وجاء الخادم بالورق ، وبدأ اللعب . وكان طبيعيا أنهما ما كانا ليلعبان ليربح أحدهما من الآخر ، وانما لمجرد تمضية بعض الوقت . فلما عادت ماريا نيقولايفنا من حفلة عشائها لدى « الكونتيسة لاسوفسكى » ، الفت الرجلين عاكفين على تسليتهما البريئة . وما لبثت أن انفجرت ضاحكة حين رأت الورق على منضدة اللعب ، فهب سانين واقفا ، الا أنها قالت له :

ـ بل اكملا لعبكما ، فانني ذاهبة لأغير ثيابي ، ثم أعود .

ومضت بين حفيف ثيابها ، وهى تخلع قفازيها أثناء سيرها . فلما عادت ، بعد أن استبدلت بثوب السهرة غلالة هفهافة مفتوحة الاكمام ، صنعت من الحرير البنفسجى ، وقد لفت حول خصرها حبل مجدول ، جلست الى جانب زوجها ، وجعلت تنتظر نهاية اللعب ، لكنها سرعان ما ملت الانتظار ، فخاطبت زوجها قائلة :

ـ يكفى هذا الآن يا « فطيرتى » الحبيبة !

فدهش سانين لمخاطبتها زوجها على هذا النحو ، لكنها ابتسمت له بابتسامة مرحة . وأردفت تقول لبوزلوف :

ـ انك لتكاد تسقط من شدة النعاس . هاك يدى فقبلها ، وامض الى سريرك ، وسأبقى أنا مع السيد سانين لنتحدث قليلا !

وقال بوزلوف ، وهو ينهض عن أريكته متثاقلا :

ـ ليس بى نعاس ، ولكننى سأمضى مع ذلك لاستلقى على السرير !

فمدت له يدها ، دون أن تكف عن الابتسام وهى تنظر الى سانين . ونظر بوزلوف أيضا الى صديقه ، ومضى دون استئذان . ولما انصرف ، قالت ماريا نيقولايفنا ، فى حرارة ، وهى تضع مرفقيها العاريين على المنضدة ، وتضرب اظافرها واحدا بالآخر علامة على نفاد صبرها :

ـ والآن حدثنى عن قصتك . لقد قيل لى انك موشك على الزواج ، فهل هذا صحيح ؟

وما أن طرحت ماريا نيقولايفنا هذا السؤال ، حتى مالت براسها قليلا كأنما لتنظر فى عينى الشاب نظرة أكثر نفاذا وأشد تعمقا !

- ٣٥ -

كان من الممكن أن يضطرب سانين لتبسط زوجة بوزلوف معه وملاطفتها له ـ رغم أنه لم يكن غريرا ، ورغم ما كان له من تجارب سابقة مع النساء ـ لولا أنه رأى فى تلك الألفة التى أظهرتها المرأة نحوه ، وفى عدم تحرجها معه ، بشير خير فى أمر مشروعه . فقال لنفسه : « لا بأس فى مداعبة نزوات هذه السيدة الفنية » . ثم أجاب عن سؤالها بقوله :

ـ نعم . اننى على أبواب الزواج !

ـ وهل خطيبتك اجنبية ؟

ـ انها ايطالية !

ـ وهل تعرفت اليها فى فرنكفورت ؟

ـ نعم ، يا سيدتى ، فى فرنكفورت .

ـ وهل يمكن أن أعرف من هى هذه الفتاة ؟

ـ طبعا .. هى بنت صاحب متجر للحلوى !

فلما سمعت ماريا نيقولايفنا رد سانين ، حملقت فى وجهه ، وقد رفعت حاجبيها لفرط ما تولاها من دهشة . ثم قالت بصوت متراخ :

ـ شىء جميل .. شىء رائع .. لقد كنت أحسب ان العالم لم يعد فيه رجال مثلك .. بنت صاحب متجر للحلوى !

فقال سانين بشيء من الاعتداد :

ـ أيدهشك هذا ؟ .. أولا ، أنا رجل لا أبالى بهذه الاعتبارات !

ـ أولا ، هذا لا يدهشنى أبدا .. أنا أيضا لا أبالى بهذه الاعتبارات .. اننى ابنة فلاح ! !

هكذا هتفت السيدة بوزلوف تقاطع سانين . ثم أردفت :

ـ لا ، لا ، أنك لا تدهشنى ، بل تسرنى .. وانت أخيرا رجل لا يخشى الحب .. هل تحبها ؟

ـ نعم ، يا سيدتى .

ـ أهى جميلة جدا ؟

وأحس سانين بالاستياء لسماعه هذا السؤال ، لكنه لم يجد مفرا من الاجابة ، فقال :

ـ كل رجل يرى فى وجه المرأة التى يحبها أجمل وجوه سائر النساء .. ولكن خطيبتى جميلة حقا !

ـ حقا ؟ من أى نموذج هى؟ النموذج الايطالى الكلاسيكى ؟

ـ نعم ، وقسماتها منسجمة كل الانسجام !

ـ هل تحمل صورة لها ؟

ـ كلا .

ـ وما اسمها ؟

ـ جيما .

ـ واسمك أنت ؟

ـ ديمترى .

ـ فقط ؟

ـ بافلوفتش .

وقالت ماريا نيقولايفنا ، بذلك الصوت المتراخى نفسه :

ـ هل تعلم أنك تعجبنى ؟ .. انك تعجبنى كثيرا يا ديمترى بافلوفتش ! .. لا شك فى أنك شاب شهم .. ناولنى يدك ، ولنكن صديقين !

وصافحت يد الشاب فى قوة بأصابعها العنيفة البيضاء . وكانت يدها أصفر قليلا من يد سانين ، وأكثر حرارة ورقة ، واشد مرونة وحيوية . وسألته :

ـ هل تعرف ما الذى يراودنى الآن ؟

ـ كلا .

ـ ألا تغضب اذا صارحتك بالفكرة التى تراودنى ؟ .. لقد قلت لى منذ لحظة انك خاطب .. أما من سبيل الى الا يكون الأمر كذلك ؟

فقطب سانين حاجبيه ، وقال :

ـ لست أفهمك يا سيدتى ..

فضحكت ماريا نيقولايفنا ضحكة قصيرة ، ثم هزت راسها ، ودفعت الى الوراء شعرها الذى كان يتدلى على خديها . وقالت وهى حالمة ذاهلة :

ـ انه لذيذ حقا .. وفارس شهم .. كيف يصدق المرء ، بعد ان يراه ، ما يقال من أن المثاليين لم يعد لهم وجود فى هذا الزمان !

وكانت ماريا نيقولايفنا تتكلم طوال الوقت باللغة الروسية ، فى صوت صافى النبرات كذلك الذى يتحدث به شعب

موسكو ، لا طبقة النبلاء . وقالت لمحدثها :

ـ لا شك أنك قد نشأت فى البيت ، بين أسرة من الطراز القديم الذى يخاف الله ؟

ثم استطردت تسأله على الفور :

ـ من اية ولاية أنت ؟

ـ من ولاية تولا .

ـ نحن اذن من « جرن » واحد . ان أبى .. هل تعرف من كان أبى ؟

ـ اجل .

ـ لقد ولد أبى فى تولا .. ولكن هذا يكفى الآن ، ولننتقل بحديثنا الى الاعمال !

ـ الى الاعمال ؟ ماذا تقصدين ؟

وطرفت عينا ماريا نيقولايفنا . وكانت نظرتها ، اذ تطرف عيناها ، تفيض رقة وودا يمتزج بهما شىء من السخرية . أما حين كانت تنظر محملقة ، فان بريق عينيها كان يستحيل الى نظرة جامدة ، لا تدل على شىء من الطيبة ، بل كان يبعث الخوف فى النفس . وكان حاجباها الكثيفان ، الطويلان ، المقوسان ، هما اللذان يضفيان على عينيها فتنة وجاذبية . وقالت لسانين :

ـ ما الذى جاء بك الى هنا اذن ؟ أنت انما جئت لتبيعنى أرضك ، لأنك فى حاجة الى مال ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، أنا فى حاجة الى مال .

ـ الى كثير من المال ؟

ـ إحتاج الآن الى بضعة الوف من الفرنكات .. ان هيبوليت سيدوروفتش يعرف أرضى ، وفى وسعك أن تستشيريه . ولست أطلب ثمنا باهظا !

وحركت ماريا نيقولايفنا رأسها يمينا ويسارا. ثم قالت ، وهى تضغط على كل كلمة من كلماتها ، وتضرب ظهر سانين بطرف أصابعها :

ـ أولا ، لم أتعود أن أستشير زوجى ، الا فيما يتصل بشئون زينتى ، فهو فى هذا المجال خبير .. ثانيا ، لماذا لا تطلب منى ثمنا باهظا ؟ اننى لا أريد أن أستغل الظرف الذى أنت فيه.. أنت الآن عاشق ، وقادر على جميع التضحيات ، وتريد أن تخفض الثمن كى تحصل على المال ، ولكن ، لا .. اننى لا أقبل أن ابخس سعر أرضك .. ماذا ؟ أأستغل حالتك بدلا من أن أشجعك ـ بكل ما أوتيت من قوة ـ على هذه العواطف النبيلة التى تحملها بين جوانحك ؟ ! لا ، لا ، ليس هذا من عادتى !

وتساءل سانين : « ترى أليست تمزح ؟.. آه .. معك ، يجب أن يكون المرء يقظا حذرا ! » .. وجاء خادم يحمل أقداح الشاى ، والزبد ، والفطائر على صينية كبيرة ، وضعها على المائدة بين سانين وماريا ، ثم خرج . وصبت المرأة الشابة قدحا من الشاى لسانين . ثم قالت له ، وهى تضع السكر فى قدحه بطرف أصابها ، رغم أن الملقط كان فى وعاء السكر :

ـ لا تؤاخذنى !

ـ سيدتى ، من يد لها مثل هذا الجمال ..

ولم يتم عبارته المبتذلة . وأوشك أن يختنق وهو يبتلع الجرعة الأولى من الشاى . وكانت الأميرة ، أثناء ذلك ، تنظر اليه بعينيها الزرقاوين الصافيتين . واستطرد سانين يقول :

ـ انما قلت اننى لن أطالب بثمن مرتفع ، لأنك الآن فى خارج البلاد ، وربما لم يكن ما تحت يدك من مال بالقدر الوفير .. ثم ان ظروف البيع هذه ليست بالظروف العادية ، وأنا أحسب حساب جميع هذه الامور !

وكان سانين يتردد فى كلامه ، ويتلعثم ، ويتلكأ ، بينما كانت ماريا نيقولايفنا قد ارتمت الى الوراء ، مستندة الى ظهر أريكتها ، وراحت ترنو اليه بتلك النظرة الصافية اليقظة . وسكت أخيرا . فقالت هى تشجعه :

ـ استمر ، استمر .. تكلم !

فانطلق سانين ، عندئذ ، يصف ارضه : فذكر مساحتها وموقعها ، وقال أن البيت فيها يطل على منظر جميل رائع .. وكانت ماريا نيقولايفنا لا تحول عنه نظرتها الصافية ، وكانت شفتاها تختلجان اختلاجا خفيفا دون أن ترتسم عليهما ابتسامة ما ، وكانت المرأة بين الحين والحين تضغط عليهما بأسنانها ، وشعر سانين بشىء من الحرج ، فما لبث ان لاذ بالصمت مرة أخرى . واذ ذاك ، قالت ماريا نيقولايفنا :

ـ ديمترى بافلوفتش ..

«.. هاك يدى فقبلها ، وامض الى سريرك ، وسأبقى
أنا مع السيد « سانين » لنتحدث قليلا » (ص ٢٧٤)

وكانت تريد أن تتكلم ، ولكنها توقفت فجأة . ثم عادت تقول بعد لحظة :

— ديمترى بافلوفتش .. أنا موقنة من أن حصولى على أرضك صفقة رابحة لى ، واننا سنتفق على الثمن . ولكن لابد أن تمهلنى قليلا، حتى انتهى الى قرار..أمهلنى يومين . هل تستطيع أن تبقى بعيدا عن خطيبتك مدة يومين ؟ لن أحجزك أكثر من ذلك لحظة واحدة ، بغير ارادتك .. أقسم لك ! .. واذا كنت فى حاجة الى خمسة آلاف أو ستة آلاف فرنك ، فأنا مستعدة حتى لاقراضك هذا المبلغ !

فنهض سانين ، وقال لها :

— اننى أشكر لك هذا العرض اللطيف .. انه لغاية فى الكرم منك أن تفكرى فى مساعدتى ، وأنت لا تكادين تعرفيننى . ولكننى أفضل أن أنتظر القرار الذى ستنتهين اليه بشأن شراء الارض . واذا كنت تصرين على بقائى هنا يومين ، فسأبقى !

— نعم يا ديمترى بافلوفتش ، اننى أصر..هذا يشق عليك، يشق عليك جدا ، اليس كذلك ؟ إعترف بأنه كذلك !

— اننى أحب خطيبتى ، ولا يهون على أن أفارقها !

— انك — حقا — لرجل من ذهب . وانى لأعدك بأننى لن أسوف أو أماطل .. ماذا ؟ اتنصرف منذ الآن ؟

قالت ماريا نيقولايفنا هذا ، وهى تطلق من صدرها زفرة . ولكن سانين أجابها :

— ان الوقت متأخر .

ـ وانت فى حاجة الى الراحة بعد السفر ، وبعد لعب الورق مع زوجى .. أخبرنى ، أأنت صديق حميم لزوجى ؟

ـ لقد كنا زميلين فى فترة الدراسة .

ـ هل كان فى ذلك الوقت كما هو الآن ؟

ـ ماذا تقصدين بـ « كما هو الآن » ؟

وانفجرت ماريا نيقولايفنا ضاحكة ، واصطبغ وجهها بحمرة شديدة ، فحملت منديلها الى شفتيها ، ثم نهضت وهى تترنح ، فاقتربت من سانين ، ومدت اليه يدها . فحياها ، واتجه نحو الباب . وهنا قالت له :

ـ الى الغد صباحا .. فى ساعة مبكرة .. هل تفهمنى ؟

فلما التفت سانين ، رأى ماريا نيقولايفنا قد عادت ، واستلقت على أريكتها ، وشبكت يديها وراء رأسها . وكان كما ثوبها الواسعان قد انزلقا حتى الكتفين ، فكان يستحيل على المرء الا يعترف بأنها كانت اذ ذاك فى وضع مغر للغاية ، وانها كانت امرأة تفيض سحرا وانوثة !

- ٣٦ -

كان الليل قد انتصف منذ مدة طويلة ، والمصباح ما يزال مضيئا فى غرفة سانين . وكان الشاب جالسا الى المنضدة ، يكتب الى « حبيبته جيما » . وراح يقص عليها فى خطابه كل ما وقع له ، ويصف لها أسرة بوزلوف ـ الرجل وزوجته ـ وبعد أن أفاض فى التعبير عن عواطفه نحو فتاته ، ختم رسالته بأن ضرب لها موعدا للقاء بعد ثلاثة أيام !

ونهض من نومه فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، فأودع رسالته صندوق البريد ، ومضى يطوف قليلا فى حديقة « الاستشفاء » ، حيث كانت الموسيقى تعزف منذ ذلك الوقت المبكر من الصباح .. ولم يكن بالحديقة عدد كبير من الرواد ، فتوقف سانين قليلا أمام الرواق الذى كانت تعزف فيه الجوقة ألحانا منوعة ، واحتسى فنجانا من القهوة ، ثم مضى يضرب فى ممر بعيد بين الاشجار ، وجلس أخيرا على احد المقاعد ، واستغرق فى أفكاره . وفيما هو كذلك ، اذا بمقبض مظلة يلكزه فى كتفه بشىء من القوة ، فانتفض ، والتفت وراءه ، فرأى ماريا نيقولايفنا واقفة أمامه. وكانت ترتدى ثوبا لونه رمادى ضارب الى الخضرة ، وقد وضعت على راسها قبعة من نسيج دقيق أبيض ، ولبست قفازين جميلين من صنع السويد . وكانت تفيض نضارة وحيوية مثل صباح يوم مشرق من أيام الصيف . وكانت فى حركاتها ونظراتها ما تزال تشيع آثار نوم هادىء عميق . وابتدرت سانين قائلة :

ـ عم صباحا .. لقد ارسلت إليك من يسأل عنك ، لكنك كنت قد خرجت . لقد شربت لفورى كأسى الثانية من الماء المعدنى ، فهم يرغموننى هنا على شرب الماء المعدنى ، لا ادرى لماذا ؟ أأنا مريضة ، أنا ؟ .. وبعد شرب الماء ، يجب على أن أسير مدة ساعة كاملة .. ولكن هل تريد أن ترافقنى ؟ ولسوف نحتسى القهوة بعد ذلك !

فأجابها سانين وهو ينهض :

ـ لقد تناولت القهوة ، ولكن يسعدنى أن أصحبك فى المسير !

ـ اذن هات ذراعك ؛ ولا تخش شيئا ، فخطيبتك ليست هنا ، ولن تراك !

فضحك سانين ضحكة مصطنعة .. وكان كلما تحدثت السيدة بوزلوف عن جيما ، شعر بشىء من الانزعاج ، لكنه أطاعها رغم ذلك . فدست المرأة ذراعها تحت ذراعه ببطء واسترخاء ، وطوقتها ، ثم التصقت به . وقالت وهى تضع مظلتها المفتوحة على كتفها :

ـ هنا .. فى هذه الحديقة ، أحس كأننى فى بيتى . وسوف أريك أجمل أركانها ، ولكن هل تعلم ؟ (وكانت تستخدم هذه العبارة كثيرا) اننا لن نتحدث الآن عن أرضك ، فبعد الافطار سندرس الموضوع على مهل . ولكن حدثنى الآن عن نفسك .. أريد أن أعرف من هو الشخص الذى اسير معه ! .. واذا كان يعنيك بعد ذلك أن أحدثك عن نفسى ؛ فعلت . هل توافق ؟

ـ ولكن ليس فى حياتى شىء يستحق أن يروى ، يا ماريا نيقولايفنا .

ـ عفوا ، عفوا .. انك لم تفهمنى حق الفهم . فليس فى نيتى أن استرسل معك فى شىء من المغازلة !

ورفعت كتفيها ، ثم أردفت :

ـ رجل له خطيبة كالتمثال جمالا ، من اضاعة الوقت أن احاول مغازلته ! .. لا .. لا .. أنت بائع ، وأنا مشترية ،

وأحب أن أعرف ماذا أشترى .. وانا لا تهمنى البضاعة التى أشتريها فحسب ، بل يهمنى أيضا بائع البضاعة ! .. تلك قاعدة كان أبى يسير عليها فى أعماله .. هيا ، اننى مصغية اليك ، وتستطيع أن تغفل مرحلة الطفولة .. ابدا باليوم الذى سافرت فيه الى الخارج . أين كنت قبل أن تأتى الى المانيا ؟ لا تتعجل كثيرا فى سيرك ، فما من شىء يستحثنا على الاسراع .

— كنت فى ايطاليا ، وقد قضيت فيها بضعة أشهر .

— لكأنك اذن تحب كل ما هو ايطالى . لماذا لم تعثر على خطيبتك هناك ؟ .. اتراك تحب الفنون ؟ اللوحات ؟ أم لعلك تؤثر الموسيقى ؟

— أحب الفنون .. أحب كل ما هو جميل !

— والموسيقى أيضا ؟

— والموسيقى أيضا !

— أما انا فلا .. لا أحب الا الأغانى الروسية . بل اننى لا أحب هذه الاغانى الا فى القرية ، وفى الربيع ، أثناء الرقص .. هل تعلم ؟ انه رائع جدا منظر الفلاحين بقمصانهم الحمراء فى المراعى النضرة .. تكلم .. لماذا لا تتكلم ؟

وكانت ماريا نيقولايفنا لا تحول نظرها عن سانين وهما يسيران . ولما كانت فارعة القوام ، فقد كان وجهها فى مستوى وجه الشاب تقريبا .. وانطلق سانين يحدثها عن أسفاره حديثا مضطربا فى أول الأمر — اذ كان يتكلفه على سبيل القيام بالواجب — لكنه ما لبث أن انتعش شيئا

فشيئا ، فأخذ يتكلم فى تدفق وحرارة . وكانت ماريانيقولايفنا تجيد الاصغاء . وكان يبدو على وجهها من سمات الصدق ما يحمل الآخرين على التزام الصدق معها . وكانت تملك تلك الموهبة العجيبة التى تحدث عنها « كاردينال ريتس » : « موهبة رفع الكلفة » !

وبعد أن فرغ سانين من الكلام عن أسفاره ، عرج فى حديثه على حياته فى (بطرسبرج) وعلى ذكرياته فيها . ولو قد كانت ماريا نيقولايفنا سيدة متكلفة من سيدات المجتمع الراقى ، اللواتى يحرصن على آداب السلوك والمجاملة حرصا زائدا ، لما انساق سانين فى حديثه على ذلك النحو الذى انساق به . لكن ماريا نيقولايفنا كانت امرأة منطلقة ، حتى لقد كانت تصف نفسها بأنها أشبه « بفتى مرح يكره التصنع » !.. على أن ذلك لم يمنعها من أن تسير الى جانبه متلوية متثنية ، وأن تميل عليه مستندة الى ذراعه . وكانت لا تنى تنظر فى عينيه .. ولقد كان ذلك « الفتى المرح » امرأة شابة تنشر فيما حولها جوا ساحرا من السكر والنشوة ، جوا أخاذا مفعما بالهدوء والفتنة ، لا تنشره فيما حولهن الا السلافيات الحسان ، ولا يستطيع البشر ، بما يتميزون به من ضعف ، أن يقاوموا ما فيه من اغراء وغواية !

***

ودامت نزهة ماريا وسانين فى الحديقة ، وما تخللها من حديث بينهما ، ساعة كاملة ، لم يتوقفا أثناءها مرة واحدة ،

بل راحا يسيران دائمـا الى الأمام ، مرتادين تلك الدروب الطويلة من الحديقة التى لم يكن لها نهاية .. وكانا يجتازان الرابية ، فيتـأملان جمال المناظر ، ثم يدلفان الى المنحدر ؛ فيغيبان بين ظلال الاشجار ، وقد تشابكت ذراعاهما اللتان لم تنفصلا لحظة واحدة .. وكان سانين لا يفتأ يؤنب نفسه ويلومها لعدم خروجه يوما مع حبيبته الغالية جيما فى نزهة طويلة كتلك التى يقوم بها الآن . سيما وان رفيقته كانت تستأثر به فى تلك اللحظة من دون جيمـا الغـائبة . فطفق يسأل ماريا بين الحين والآخر :

– ألم تتعبى ؟

فكانت تجيبه بقولها :

– انا لا اتعب ابدا !

وكان يتفق لهما ان يصادفا بعض المتنزهين . فكانوا جميعا يحيون الأميرة بوزلوف ، بعضـهم فى احترام ، وبعضـهم فى شبه ذل وهوان . وقد هتفت ماريا فى أحدهم ، وكان شابا اسمر أنيقا ، تقول :

– كونت ، يجب الا تزورنى لا اليوم ولا غدا !

فرفع الكونت قبعته احتراما ، وانحنى انحنـاءة كبيرة ، دون أن ينطق بكلمة . وسألها سانين وقد استبد به شيطان حب الاستطلاع ، كما يستبد عادة بجميع الروس :

– من يكون هذا الشاب ؟

– من يكون ؟ انه شاب فرنسى ، وأمثاله هنا كثيرون ، وهو

يتودد الى ويتقرب منى ، محاولا أن يطارحنى الهوى .. لقد آن لنـا أن نشرب القهوة ، فلنعد .. وأنا واثقة أنك تموت جوعا . ولا شك أن «عريسى» قد فك الآن التصاق عينيه !!

وأخذ سانين يقول لنفسه : « عريسى .. فك التصاق عينيه .. ما هذه المخلوقة العجيبة ! .. ثم يا لها من لهجة باريسية صميمة خالصة ! » . ولم تخطىء ماريا نيقولايفنا الظن . فحين عادا الى الفندق ، وجدا « عريسها » أو « فطيرتها الصغيرة » ، قد جلس أمام المائدة الممدودة ، وعلى رأسه طربوش . وقال لهما فى حدة :

ـ لقد مللت الانتظار ، وكدت أشرب القهوة وحدى !

فهتفت ماريا نيقولايفنا فى مرح :

ـ حسنا ، حسنا .. أأنت غاضب ؟ ان هذا يفيد صحتك .. انك لا تقوم بأى تمرين ، فهيا أقرع الجرس ، وسوف نشرب القهوة ، الذ قهوة فى العالم ، وسنتناولها فى أقداح فخمة ، تحتها مفرش أبيض كالجليد !

وخلعت قبعتها وقفازيها ، وأخذت تصفق . ونظر اليها بوزلوف من تحت حاجبيه ، ثم قال لها بصوت خافت :

ـ ما الذى جعلك اليوم تبدين مثل هذا المرح يا ماريا نيقولايفنا ؟

ـ هذا ليس من شأنك يا هيبوليت سيدوروفتش .. اقرع الجرس .. اجلس يا سيد سانين ، واشرب القهوة مرة ثانية هذا الصباح .. آه ، ما اكثر ما أحب أن آمر هذه لذتى الكبرى .. !

فهمس بوزلوف يكمل لها عبارتها :

ـ وأن تطاعى !

ـ طبعا ، وان أطاع . ولهذا أنا سعيدة معك ، أليس كذلك يا فطيرتى الصغيرة ؟ آه ، ها هى ذى القهوة !

وكان على الصينية الكبيرة التى جاء بها الخادم ، برنامج سهرة المساء ، فأسرعت ماريا نيقولايفنا تتناوله ، فمـا أن القت نظرة عليه ، حتى صاحت غاضبة :

ـ دراما .. دراما ألمـانية .. هى على كل حال خير من الـكوميديا الالمانية .. أحجز لى « لوج » ، بل « بينوار » ، بل .. أحجـز لى « بينوار اجانب » .. افضـل هـذا .. « بينوار أجانب » ، هل فهمت ؟

ـ ولكن ماذا أصنع ، اذا وجدت أن سعادة عمدة المدينة قد سبقنا الى حجزه ؟

ـ تدفع لسعادته عشر ليرات ذهبية ، فيصبح « البينوار » لى .. أفهمت ؟

فأطرق الخـادم فى حزن وخضـوع . ثم قالت مخاطبة سانين :

ـ ديمترى بافلوفتش ، ستصحبنى الى المسرح .. صحيح ان الممثلين الالمان لا يطاقون ، ولكنك ستصحبنى ؟ موافق ، هه ؟ الا ما ألطفك ! .. وأنت ، يا فطيرتى الصغيرة ، الا تأتى معنا ؟

فتمتم ، يجيبها وفنجان القهوة بين شفتيه :

ـ كما تريدين !

ـ هل تعلم ؟ ابق فى البيت ، فانك تنـام فى المسرح . ثم انك لا تفهم الالمـانية فهمـا جيـدا . اكتب للوكيل ردا على رسالته بشأن الطاحونة ، وطحين الفلاحين ؛ وقل له اننى لا أوافق .. ان هذا كفيل بأن يشغل السهرة كلها !

ـ حسنا .

ـ انك لفتى عاقل .. والآن ، ما دمنا قـد تحـدثنا عن الوكلاء وما الى ذلك ، فلنبحث المسـألة الأساسية .. مر الخادم أن يحمل ما يوجد فوق المائدة .. والآن أشرح لنـا الموضوع يا سيد سـانين . اذكر لنـا الثمن الذى تطلبه ، وشروط الدفع ، وكل شىء !

وقال سانين لنفسه : « ها نحن قد وصـلنا أخيرا ! » .

وأردفت السيدة بوزلوف تقول :

ـ لقد سبق أن حدثتنى فى الأمر ، فوصفت لى أرضـك وصفا دقيقا ، ولكن « فطيرتى الصغيرة » لم تكن معنـا ، ولا بد أن يكون على علم بالموضـوع .. وانه ليسـعدنى أن احس بأن فى وسعى أن أسـهل لك زواجك . ثم اننى قـد وعدتك أن ندرس المسـألة بعد الافطار ، وأنا حريصـة على الوفاء بوعدى دائمـا ، اليس كذلك يا صـديقى هيبوليت سيدوروفتش ؟

ففرك بوزلوف وجهه براحتى يديه ، وقال :

ـ هذه هى الحقيقة بعينها .. أنت لا تـكذبين ابدا على احـد !

— أبدا ، أبدا .. ولن أكذب على أحد ما حييت ! هيا يا سيد سانين ، « ترافع فى قضيتك » ، على حد تعبير المحاكم !

— ٣٧ —

« وترافع سانين فى قضيته » ، فأخذ يصف أرضه مرة ثانية ، ولكن دون أن يشير الى جمال الطبيعة فيها . وكان من حين الى حين يطلب الى بوزلوف أن يؤيد ما كان يذكره من وقائع وارقام . لكن هذا كان يكتفى بهز رأسه مغمغما . فلم يكن أحد يدرى ما اذا كانت ايماءته علامة على التأييد أم مجرد التفكير . على أن ماريا نيقولايفنا لم تكن فى حاجة الى الاستعانة برأى زوجها . وقد برهنت على أنها امرأة تفهم فى شئون الاعمال فهما كبيرا . حتى لقد كانت على علم كامل بجميع ما يتعلق بادارة الاراضى من أسرار .. استفسرت عن كل شىء ، ودخلت فى ادق التفاصيل ، ووضعت النقاط على الحروف فى كل المسائل !

ومضى سانين يتحدث ساعة ونصف ساعة . فكان يشعر بجميع انواع العذاب والضيق التى تنتاب المتهم الجالس على مقعد ضيق ، أمام قاض شديد القسوة بارع الحيلة . وكان يقول لنفسه : « وكأننى بصدد تحقيق ! » .. وكانت ماريا نيقولايفنا لا تكف عن الابتسام ، وكأنما أرادت بذلك أن تبين انها انما كانت تمزح ؛ لكن هذا لم يكن ليسرى عن سانين . وما لبثت أن قالت أخيرا :

— حسنا ، حسنا ، لقد عرفت الآن ارضك كما أعرفك . فما هو الثمن الذى تطلبه عن كل نفس ؟

وكانت الاراضى فى ذلك العهد تباع على أساس عدد الارقاء المرتبطين بالارض . فقال سانين ، وقد تحامل على نفسه :

ـ لا أقل من خمسمائة روبل للنفس ، فيما أقدر !

ورفعت ماريا نيقولايفنا عينيها الى السماء ، كأنما لتقدر المبلغ فى ذهنها ، ثم قالت :

ـ حسنا .. يخيل الى أن السعر معقول ، ولكننى سألتك أن تمهلنى يومين ، ويجب أن تنتظر حتى الغد . واحسب اننا سنتفق . واننى أترك لك أن تحدد انت نفسك القسط الاول . والآن حسبنا هذا ! (**وكانت ماريا نيقولايفنا قد لاحظت أن سانين يهم بأن يجيب**) .. فلقد شغلنا بحديث المعدن الخبيث مدة كافية من الوقت ، وغدا نستأنف الكلام فى الاعمال . هل تعلم ؟ اننى أعتقك الآن ..

ونظرت إلى ساعة صغيرة مزينة بالاحجار الكريمة ، وأردفت :

ـ .. حتى الساعة الثالثة .. انك فى حاجة الى قليل من الراحة . فاذهب ، والعب الروليت !

ـ ولكننى لا ألعب أى نوع من ألعاب الميسر !

ـ حقا ؟ انك اذن الكمال بعينه ! .. على اننى لا ألعب أنا أيضا .. انها لحماقة أن يلقى المرء بماله فى الهواء .. انه يخسر حتما .. ولكن ، ادخل قاعة اللعب مع ذلك ، لا لشىء الا لترى وجوه اللاعبين . فان بينها وجوها مضحكة حقا .. هناك سيدة عجوز ، تضع فى أذنيها قرطين كبيرين ،

ولها شاربان .. ان منظرها لذيذ ! .. وهناك أيضا امير روسى ، فريد فى نوعه .. ان له وجها جليلا ، وأنفا معقوفا كمنقار نسر . وكلما أوشك أن يخسر ليرة ، رسم اشارة الصليب تحت صديريته .. ثم اقرأ الصحف ، أو تنزه .. افعل ما يحلو لك ، ولكن لا تنس أننى انتظرك فى الساعة الثالثة .. سأنتظرك حتما ، وسنتناول العشاء معا .. ان هؤلاء الالمان السخفاء يبدأون التمثيل فى السادسة والنصف !

ومدت اليه يدها ، وهى تقول :

- أأنت حاقد على ؟

- وفيم الحقد يا ماريا نيقولايفنا ؟

- لاننى عذبتك .. ثم اننى لم أنته بعد ، وسترى ما ينتظرك !

وطرفت عيناها ، وبرزت غمازاتها الصغيرة كلها فى خديها . ثم قالت :

- الى اللقاء

وحياها سانين مودعا ، وخرج من الصالون . واذ ذاك انطلقت ضحكة صاخبة وراءه . ونظر فى مرآة كانت أمامه ، فاذا هو يلمح ماريا نيقولايفنا وقد راحت تضرب طربوش زوجها حتى أوصلته الى أنفه ، بينما أخذ بوزلوف يحرك ذراعيه يائسا ، ليخرج عينيه من تحت الطربوش !

- ٣٨ -

ما أن وصل سانين الى غرفته ، حتى انطلقت من صدره زفرة ارتياح وغبطة بالفين . فقد كانت ماريا نيقولايفنا

محققة حين قالت انه فى حاجة الى الراحة .. والحق أن سانين كان أشد ما يكون حاجة الى الراحة من علاقاته الجديدة ، وماجلبته له معها من اجتماعات وأحاديث ومن ذلك الضجيج الحاد الذى نفذ الى رأسه والى نفسه ، بل من ذلك التقارب ، الذى لم يتوقعه ولا تمناه ، والذى نشأ بينه وبين امرأة كان يحس انها غريبة عنه . ومما ضاعف من اكتئابه انه صادف مغامرته الجديدة غداة عرف أن جيما تحبه ، وغداة أصبحت خطيبته . فكان يحس بأنه قد اقترف فعلة دنس بها حبه المقدس ! .. وراح يستغفر الف مرة ــ بينه وبين نفسه ــ حبيبته الطاهرة البريئة ، رغم انه لم يدر سببا لشعوره بالاثم . ثم تناول الصليب الصغير الذى أهدته اياه جيما ، وطفق يقبله المرة تلو المرة . ولولا أنه كان يأمل فى انهاء الصفقة التى جاء من اجلها الى (فسبادن) ، للاذ بالفرار سريعا ، وعاد الى فرنكفورت العزيزة ، قاصدا الى ذلك البيت الحبيب الذى صار يعده بيته هو ، ليرتمى عند قدمى جيما ، طالبا الصفح والغفران !

ولكن لم يكن ثمة دواء لعلته . وقد أحس بأنه لابد له أن يشرب الكأس حتى الثمالة ، وانه يتحتم عليه أن يرتدى ملابسه ، فيتناول عشاءه مع تلك المرأة ، ويصحبها الى المسرح . وكان يقول لنفسه : «المهم أن تدعنى أسافر غدا !» .. وكان هناك شىء يقلقه ويزعجه . فرغم انه كان يفكر فى جيما فى وله ، وشوق ، ونشوة ، وان نفسه كان تهفو الى الحياة التى سيعيشانها معا ، والى السعادة التى تنتظرهما ،

الا أن صـورة تلك المرأة العجيبة ـ زوجة بوزلوف ـ كانت تطارد خيـالـه ، فى اصرار ، جعله يتمثلهـا امام عينيـه على الدوام . وكان يشـعر بالجزع لعجزه عن التحـرر من رؤية طيفها وسماع صوتها ، واخفاقه فى أن يطرد من ذهنه ذكرى كلماتها الحلوة ، وأن يتخلص من رائحة العطر المسكر العذب الذى كان يفوح من ثيابها ، وكأنه شذى زنبقة صفراء !

وكان سانين لا يفتأ يقول لنفسـه : « من المؤكد أن هـذه المرأة تعبث بى ، وانهـا تسـتخدم فى ذلك كافة الاسـاليب والألاعيب . ولكن ترى ما الذى تبيته لى ؟ وما الذى تريده منى؟ . . هل هذا كله مجرد نزوة من نزوات امرأة غنية مدللة ، لا تراود ضميرها وساوس ، ولا تعرف أى شعور بالحرج ؟ . . والزوج ؟ ما هذا الانسان العجيب ؟ وما عسى أن تكون علاقته بزوجته اذن ؟ » . . وقد أستاء سـانين ايما استياء لفشـله فى الهروب من تلك الاسـئلة التى راحت تتلاحق فى راسه البائس عن ماريا نيقولايفنا وزوجها السيد بوزلوف . وأحس بوخز الضمير لعجزه عن التخلص من تلك الصـورة التى لم تكف عن محاصرة خياله ، حتى حين كانت نفسـه كلها تتجه نحو صورة أخرى مشرقة صافية كضوء النهار . واستنكر أن يجرؤ وجه تلك المرأة على أن يقف حاجزا بينه وبين الملامح الملائكية لوجه حبيبته . وهاله أنها كانت تبتسم له بوقاحة، بعينيها الزرقاوين ، وغمازات وجنتيها ،وجدائل شعرها المتلوية المتعرجة ، حتى لقد راح يسائل نفسه ما اذا كان قد صـار حقا اسـيرها الذى لا يقوى على التخلص من

اغلال سحرها !

وكان سانين يطرح على نفسه تلك الاسئلة كلها ، بينما كانت الساعة التى يجب أن يوافى فيها ماريا نيقولايفنا تدنو وتقترب . فارتدى ملابسه ، وبعد أن طاف فى الحديقة قليلا ، مضى الى حيث كانت ماريا فى انتظاره . فلما وصل ، وجد معها فى الصالون سكرتير السفارة الروسية ، وكان رجلا طويل القامة ، أشقر الشعر ، له وجه أشبه بوجه الحصان ، وقد فرق شعر رأسه من الخلف ، طبقا لموضة حديثة كانت قد بدأت تظهر فى ذلك الوقت . على أنه ما أن وقعت انظاره على الرجل الآخر الذى كان يجلس معها ، حتى ذهل من هول المفاجأة . اذ لم يكن ذلك الرجل أحدا سوى البارون فون دنهوف الذى تبارز معه سانين منذ ثلاثة أيام .. ولم يكن سانين يتوقع أن يلقاه عند الاميرة ، فلما حياه اضطرب اضطرابا لم يستطع له دفعا. واذ ذاك سألتهما ماريا ، وقد لحظت ارتباك سانين :

ـ أانتما متعارفان ؟

فأجابها دنهوف بقوله :

ـ نعم ، لقد تشرفت بمعرفته قبل الآن !

ثم مال على الاميرة ، واستطرد يقول لها بصوت خافت :

ـ هذا هو مواطنك الروسى !

فصاحت المرأة الشابة متعجبة :

ـ احقا ؟ !

ثم لوحت للضابط بأصبعها مهددة ، ولم تلبث أن نهضت لتودعه هو وسكرتير السفارة .

وكان واضحا أن الدبلوماسى متدله فى حب ماريا نيقولايفنا ، حتى لقد كان يفغر فاه اعجابا كلما نظر اليها . أما دنهوف فقد انسحب فورا ، بطواعية لطيفة ، كصديق من أصدقاء الاسرة يفهم ما يطلب منه تلميحا . على حين بدا على السكرتير انه يريد أن يبقى ، فما كان من ماريا نيقولايفنا أن طردته دون احتفال ، قائلة له :

— اذهب الى صاحبة السمو ، اذ فيم وجودك عند امرأة من الشعب مثلى ؟

وكانت تعيش فى فسبادن ، فى ذلك الحين ، أميرة من (موناكو) ، سيئة السيرة . فقال السكرتير :

— ان جميع أميرات الدنيا يا سيدتى ..

لكن ماريا نيقولايفنا لم تدعه يتم كلامه ، ولم ترحم مذلته وخضوعه ، بل أرغمته على الانصراف فورا ، رغم الفرق الذى كان يزين به شعره من الخلف ! .. وكانت ماريا نيقولايفنا فى أبهى ملابسها . فقد كانت ترتدى ثوبا وردى اللون براقا ، ذا كمين ضيقين . وقد زينت أذنيها بقرطين من الماس . وكانت عيناها ترسلان وميضا أشبه بوميض قرطيها الماسيين . وكانت منطلقة المزاج ، جياشة الروح . فلما قاما الى المائدة ، جلست الى جانب سانين ، وراحت تحدثه عن (باريس) التى كانت تعتزم السفر اليها بعد بضعة أيام ، وقالت له انها قد سئمت هؤلاء الالمان الذين

يتصفون بثقل الظل حين يريدون أن يكونوا ظرفاء ، ويتميزون بالظرف — فى غير مناسبة — حين يتفوهون بأشياء سخيفة . ثم سألته فجأة :

— هل صحيح انك تبارزت مع الضابط الذى التقيت به هنا منذ لحظة ؟ —

فدهش سانين ، وقال :

— كيف عرفت ذلك ؟

— عجبا !.. ما من شىء يظل خافيا ، ياديمترى بافلوفتش. وأنا أعلم أيضا أنك كنت على حق ، على حق تماما ، وأنك تصرفت تصرف فارس شجاع .. قل لى .. هل كانت تلك المراة خطيبتك ؟

فقطب سانين حاجبيه قليلا ، ولم يجب . فأردفت ماريا نيقولايفنا تقول بحرارة :

— لا داعى للاجابة .. لا داعى للاجابة .. اننى ألاحظ أن ذلك يزعجك .. معذرة .. اعتبر اننى لم أقل شيئا ، ولا تغضب !

وفى تلك اللحظة ، دخل بوزلوف من الغرفة المجاورة ، وقد امسك بيده احدى الصحف . فسألته زوجته :

— ما الذى جاء بك ؟ هل أعدت المائدة ؟

— لم تعد بعد .. هل تعرفين اى نبأ قرات فى جريدة « نحلة الشمال » ؟ لقد مات الأمير جروموبوى !

ورفعت ماريا نيقولايفنا رأسها ، وقالت :

— رحمة الله عليه !

ثم التفتت الى سانين ، وأضافت :

– كان الأمير جروموبوى ، فى شهر فبراير من كل عام ، يزين بيتى بأزهار الكاميليا احتفالا بعيد ميلادى .. وكان هذا لطيفا منه ، ولكنه لم يستحق أن أقضى الشتاء فى بطرسبرج من أجله !

ثم التفتت الى زوجها ، تسأله :

– ماذا كان عمره ؟ سبعون سنة ؟

– على الأقل .. ولكن ما أروع جنازته ! لقد خرج البلاط كله لتشييعها . وفى الجريدة ، قصيدة للأمير كوفرجكين نظمها فى رثائه .

– عظيم .

– هل تريدين أن أقرأ لك القصيدة ؟

– لست حريصة على ذلك .. هيا بنا الى العشاء .. أن الحى يفكر فى الحياة !.. هات يدك ، يا ديمترى بافلوفتش !

وكان العشاء حافلا كما كان بالامس ، الا انه كان أكثر بهجة وحرارة . وكانت ماريا نيقولايفنا تجيد الحديث ، وهى موهبة نادرة عند المرأة ، وخاصة عند المرأة الروسية . وكانت لا تنتقى عباراتها ، ولا تتصنع الرقة فى ألفاظها ، وكانت تتندر على مواطنيها ، حتى لقد ضحك سانين أكثر من مرة ، لأن كلماتها اللاذعة كانت تضرب على وتر حساس ، وتصيب كبد الحقيقة .. وكانت ماريا نيقولايفنا تكره الادعياء ، والمتحذلقين ، والمنافقين ، وما كان أكثرهم حولها ! **ولكانها**

كانت تعتز بأنهـا ولدت فى بيئة فقيرة متواضـعة ، فانطلقت تروى أغرب النوادر وأدهشها عن ذويها فى أيام طفولتها ..

وأدرك سانين ، مما سمعه ، أن ماريا نيقولايفنا قد قاست من المحن فى حياتها مالم تقاسه من كانت فى مثل سـنها من النساء !

وكان بوزلوف يأكل وقد استغرق فى التفـكير ، ثم يشرب وقـد عاد اليه انتباهه ويقظته . ولم يكن يرفع رأسـه نحو امرأته ونحو سانين الا من آن الى آخر ، فتظهر اذ ذاك عيناه الصـفيرتان الضـاربتان الى البياض فى لونهمـا ، واللتـان يحسبهما المرء ضريرتين، بينما هما ، فى حقيقة الامر، تبصران أحسن أبصار . وقالت ماريا نيقولايفنا لزوجها فجأة :

ـ أنت عظيم يا حبيبى .. لقـد أجدت شراء لوازمى من فرنكفورت أيما اجادة .. وددت لو قبلتك فى جبينك ، لولا أنك لا تحب ذلك !

فأجابها ، وهو يقطع ثمرة أناناس بسـكين من فضة :

ـ بلى .. أنا لا أحب ذلك !

ـ ورهاننا ، أأنت مصر عليه ؟

ـ اجل ، أنا مصر .

ـ ولكنك ستخسر ؟ !

ـ اعتقد أنك أنت التى ستخسرين الرهان فى هذه المرة ، رغم كل ما تعمدين اليه وتعولين عليه !

ثم مد ذقنه الى الامام . فسأل سانين :

ـ رهان ؟ على ماذا ؟ أم أنه سر ؟

فقالت ماريا نيقولايفنا وهى تضحك :

— لا ، ليس سرا ، ولكننى لا أستطيع أن أذكر لك عنه شيئا الآن .. سأخبرك فيما بعد !

ودقت الساعة السابعة . فجاء خادم يعلن أن العربة فى الانتظار . فرافق بوزلوف زوجته حتى الباب ، ثم عاد يجلس على أريكته . الا انها ما لبثت أن صاحت من حجرة المدخل ، تقول :

— لا تنس كتابة الرسالة الى الوكيل !

فأجابها بقوله :

— لا تخافى ، فسوف أكتبها .. اننى انسان لا يخلف مواعيده قط !

– ٣٩ –

فى عام ١٨٤٠ ، كان مسرح (فسبادن) مبنى من أبشع المبانى . أما فرقته الضعيفة المتداعية ، التى كانت تجرى على وتيرة واحدة فيما تقدمه من تمثيليات ، فكان مستواها لايكاد يعلو على مستوى سائر المسارح الالمانية فى ذلك العصر ، كمسرح (كارلسروهه) ، الذى كان يديره «دفريانت» الشهير ، والذى يمكن أن يعد نموذجا لذلك النوع من المسارح !

وكان وراء « اللوج » الذى استأجرته « صاحبة السعادة السيدة فون بوزلوف » — ولا يعلم الا الله بأية حيلة استطاع الخادم أن يستأجر هذا اللوج ؛ ولا شك أنه لم يخطر بباله أن يدفع لسعادة عمدة المدينة بقشيشا لقاء تنازله عنه — صالون صغير صف فيه عدد من الارائك !

وقد طلبت ماريا نيقولايفنا الى سانين ــ قبل أن تدلف الى اللوج ــ أن يسدل الستائر التى تفصل اللوج عن القاعة ، قائلة :

ــ لست أحرص على أن يرانى أحد ، والا جاءوا يزعجوننى واحدا بعد آخر !

وأجلست سانين الى جانبها ، جاعلة ظهرها الى القاعة ، حتى يبدو اللوج خاليا . وكانت الاوركسترا تعزف افتتاحية « زواج فيجارو » . ولم يلبث أن رفع الستار . وكانت المسرحية فى تلك الليلة واحدة من تلك التمثيليات الألمانية التى يحاول فيها الممثلون ــ وكانوا على جانب كبير من الفضل والعلم ، وان اعوزتهم الموهبة ــ أن يعبروا ، بلغة سلسة جزلة ولكنها ميتة ، وبمجهود كبير ولكنه عقيم ، عن فكرة « عميقة » أو « خطيرة » من خلال « صراع تراجيدى » يبعث فى النفس سأما . آسيويا (قياسا على الكوليرا الآسيوية) !

وتذرعت ماريا نيقولايفنا بالصبر ، فظلت تصغى الى منتصف الفصل الاول ، حتى اذا أخذ الفتى الاول ، وقد أيقن أن حبيبته تخونه (وكان الفتى الاول يرتدى سترة فضفاضة ، بنية اللون ، مرصعة بالصدف ، وقفازين أبيضين صنعا من جلد الغزال) يطلق صراخا أشبه بنباح الكلاب ، واضعا يديه على صدره ، مباعدا ما بين قدميه ، لم تطق ماريا نيقولايفنا أن تحتمل أكثر مما احتملت ، فقالت فى استياء :

ــ ان أضعف ممثل فرنسى فى أصغر مدينة بالريف ،

يمثل خيرا مما يمثل هذا النجم الالمانى الشهير !

ثم انتقلت الى الصالون ، وقالت لسانين ، وهى تشير بيدها الى المكان الذى الى جانبها :

ـ تعال هنا ، وسنتحدث !

فأطاع سانين . فنظرت اليه ماريا نيقولايفنا ، وقالت :

ـ انك لمطيع حقا ، وستعيش زوجتك معك حياة سهلة ! .. ان هذا الاحمق (واشارت الى الممثل الذى كان ما يزال يصيح) يذكرنى بصباى (وكان الممثل يقوم بدور مربى فى أسرة) .. لقد أحببت انا أيضا الرجل الذى كان يتولى تربيتى .. **كان ذلك غرامى الاول .. بل غرامى الثانى ، لأن الشخص الاول الذى أحببته كان راهبا من رهبان دير «دون»** . وكنت فى الثانية عشرة من عمرى ، وكنت لا أراه الا يوم الاحد .. كان يرتدى لباسا مخمليا ، ويتعطر بماء الخزامى ، ويشق طريقه بين الحشد الحافل ، وهو يهز مبخرته ، قائلا للسيدات باللغة الفرنسية : « معذرة .. عفوا .. ! » ، ولا يرفع بصره أبدا . وكانت أهدابه طويلة هكذا !

قالت ماريا نيقولايفنا ذلك ، وهى تشير بظفر السبابة الى نصف خنصرها . ثم أردفت ، تتم حديثها :

ـ أما المربى فكان اسمه مسيو جاستون . وكان رجلا غزير العلم ، شديد القسوة .. كان سويسريا ، ضخم الرأس ، أسود اللحية ، اغريقى القسمات، له شفتان كأنهما مقدودتان من البرونز . وكنت أخافه ، ولعله الرجل الوحيد الذي خشيته منذ ولدت ! .. وكان قد تولي تربية اخي من

قبلى .. أخى الذى مات غرقا .. لقد تنبأت لى عرافة فجرية بميتة عنيفة ، ولكننى لا أصدق هذه النبؤات .. انها أمور صبيانية .. هل تتصور زوجى وقد أشهر خنجرا ؟

ـ الموت العنيف يمكن أن يحدث بغير هذه الطريقة !

ـ كل هذا سخافات .. ترهات .. أتؤمن أنت بهذه الخرافات ؟ أما انا فلا ، ولا بد مما ليس منه بد ! .. كان مسيو جاستون يسكن اذن فى بيتنا . وكان يحتل الفرفة التى تقع فوق غرفتى . وكنت كثيرا ما استيقظ فى الليل ، فأسمع وقع خطواته فوق راسى . وكان لا ينام الا فى ساعة متأخرة . فكان قلبى يفيض عندئذ تقديرا أو اجلالا ، لا أدرى .. وكان أبى لا يكاد يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه ثقفنا وأحسن تثقيفنا .. هل يخطر ببالك أننى اعرف اللاتينية قليلا ؟

ـ تعرفين اللاتينية ؟ !

ـ نعم ، لقد علمنى اياها مسيو جاستون .. لقد ترجمت معه الانيادة (١) .. انها مملة جدا ، رغم أن فيها فقرات جميلة .. هل تذكر مغامرة ديدون وانياد فى الغابة ؟

ـ اذكر ، اذكر !

---

(١) الانيادة : ملحمة شعرية للشاعر اللاتينى « فيرجيل » ، وهى تتالف من اثنى عشرة انشودة ، وتروى مغامرات الامير « انياد » ، وقصص بطولته فى حربه ضد اليونانيين أثناء حصار (طروادة) .

قال سانين ذلك بسرعة ، رغم أنه كان قد نسى اللاتينية منذ مدة طويلة ، ولم تبق فى ذهنه الا فكرة غامضة عن الانيادة . فرمقته ماريا نيقولايفنا بنظرة جانبية ، دون أن ترفع عينيها ، على عادتها حين كانت تنظر اليه . ثم قالت :

ـ لا تظنن ، مع ذلك ، اننى امرأة على جانب عظيم من العلم .. كلا .. اننى لست على شىء من العلم أبدا ، ولم أؤت أية موهبة خاصة .. اننى لا أكاد أجيد الكتابة ، ولا أحسن القراءة جهارا ، ولا أعزف على البيانو ، ولا أرسم ، ولا أتقن الحياكة .. هذه أنا ، لا أكثر ولا أقل !

وباعدت ما بين يديها ، ثم أردفت :

ـ وانما أروى لك ذلك كله أولا : حتى لا نصغى الى هؤلاء الحمقى (وأشارت الى المسرح ، وكان الفتى الاول قد كف عن الصياح ، فأخذت الممثلة تصرخ بدورها ، وقد مدت مرفقيها الى الامام مثله) ، وثانيا : لأننى وحيدة معك .. ألم تقص على أمس قصة حياتك ؟

ـ لقد طلبت الى أن أفعل !

فلما سمعت ماريا نيقولايفنا جوابه ، التفتت نحوه بسرعة ، وقالت :

ـ الا يهمك أن تعرف اذن أية امرأة أنا ؟ .. ولكن ، طبعا ، طبعا ! .. (وعادت تستند من جديد الى وسائد الاريكة) هل فى وسع رجل مقبل على زواج حب بعد مبارزة ، أن يفكر فى شىء آخر ؟

وظلت ماريا نيقولايفنا مستغرقة فى تفكيرها ، وقد أخذت تضغط مقبض مروحتها بأسنانها الكبيرة المتناسقة ، البيضاء كاللبن .. وأحس سانين ، من جديد ، بذلك الضباب الذى اجتاح رأسه منذ يومين ، ولم يستطع أن يتخلص منه . فقد كان يثيره ذلك الحديث الهامس الذى يدور بينهما ، وكانت تلك المناجاة الخافتة التى يتبادلانها تحدث فى نفسه اضطرابا شديدا .. وتساءل بينه وبين نفسه : « ترى متى ينتهى هذا كله ؟ » .. وهكذا الرجال الضعاف دائما .. انهم لايحسمون الامر أبدا ، بل ينتظرون أن يزول الموقف الحرج من تلقاء نفسه .. وعطس أحد الممثلين على المسرح . وكان الممثلون قد رتبوا هذا العطاس ، من قبيل الاضحاك ، وهو الشىء الوحيد الذى هيأوه للاضحاك من أول المسرحية الى آخرها . فاستجاب لهم الجمهور شاكرا ، وأخذ يضحك . وكان من شأن هذا الضحك الصاخب المفاجىء أن تفاقم الاضطراب الذى تملك سانين . وكان هذا — فى بعض اللحظات — لا يدرى أهو ساخط أم راض ، وهل هو مستاء أم مسرور .. وقالت ماريا نيقولايفنا فجأة :

— انه لشىء غريب حقا ! .. اذا أراد المرء أن يقول : « سأتزوج » قالها بصوت هادىء ، ولكن أحدا لا يخطر بباله أن يقول : « سأقذف بنفسى الى الماء » فى هدوء . وما الفرق مع ذلك بين الأمرين ؟ .. حقا انه لشىء غريب !

وشعر سانين بحزن مشوب بالغضب ، وقال :

— الفرق كبير جدا ، يا ماريا نيقولايفنا .. هناك أناس

لا يبالون أن يقذفوا بأنفسهم الى الماء لأنهم يعرفون السباحة . والحق أن الزواج الغريب هو الزواج الذى ..

ثم صمت فجأة ، وهو يعض لسانه . فضربت ماريا نيقولايفنا راحة يدها بالمروحة ضربة خفيفة ، وقالت :

ـ اكمل يا ديمترى بفلوفتش ، أكمل .. وكأننى أسمعك تقول : « هلا تذكرت يا سيدتى ، ونحن نتحدث عن الزواج، أننى لا أستطيع أن أتخيل زواجا أغرب من زواجك ؟ .. اننى أعرف زوجك .. أعرفه منذ الطفولة ! » .. هذا ما اردت أن تقوله ، أنت يا من تعرف السباحة !

ـ اسمحى لى ..

ـ الست على حق ؟ الا تعترف أننى ادركت ما أردت أن تقوله ؟ انظر الى وجها لوجه .. هل تجرؤ على أن تدعى اننى لم أحدس ما بنفسك ؟

ولم يعرف سانين ماذا يصنع ، لكنه قال أخيرا :

ـ حسنا .. هذا صحيح !

فهزت ماريا نيقولايفنا راسها ، واضافت :

ـ آه .. ولقد ساءلت نفسك أيضا ، أنت الذى تجيد السباحة ، عما يدفع الى مثل هذا الزواج ، امراة ليست بالفقيرة ولا بالغنية .. ولا بالشديدة الدمامة .. الا يهمك أن تعرف ؟ سيان .. سأشرح لك الأمر مع ذلك، ليس الآن ، بل فى آخر الاستراحة ، فاننى أخشى أن يباغتنا أحد !

وما كادت ماريا نيقولايفنا تتم عبارتها ، حتى انفتح باب

المقصورة ، واطل من ورائه وجه أحمر ؛ يغطيه عرق لزج ، وتبدو عليه أمارات الشباب ، ويعلوه شعر طويل ناعم ، وله انف مسطح ، واذنان ضخمتان كأنهما جناحا خفاش ، وقد وضع منظارا ذهبيا على عينين صغيرتين ، باهتتين ، متفرستين . واطل الوجه من فتحة الباب ، وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن أسنان مهشمة ، ثم مال برقبته المعروقة محييا . فأشارت له ماريا نيقولايفنا بمنديلها قائلة :

ـ لست هنا !

فظهرت على الرجل علامات الدهشة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مغتصبة ، وقال وكأنه ينتحب مقلدا الموسيقى « ليست » ، الذى كان فيما مضى يلعق قدميه :

ـ حسنا .. حسنا !

وقال سانين ، بعد أن انصرف الرجل :

ـ ما هذا الشبح المفزع ؟

ـ انه ناقد فسبادن .. ان شئت فهو أديب ، وان شئت استأجرته تابعا ! .. ان مدير المسرح يدفع له اجرا ، فيثنى على كل ما يمثل على هذا المسرح ، ويقول انه رائع ممتاز ، رغم أن نفسه تفيض مرارة وحقدا ، ولكنه لا يجرؤ على ان يظهر ما فى نفسه . وهو لا يؤثر على اغتياب الناس شيئا ، واخشى ما اخشاه أن يمضى الآن مناديا فى المسرح كله أننى هنا .. على كل حال ، ليفعل ما يحلو له .. لا يهمنى !

واخذت الاوركسترا تعزف مقطوعة من نوع الفالس ، وما لبثت الستارة ان رفعت مرة اخرى . فعاد الصراخ

يتردد بين ارجـاء المسرح ، مثلما كان من قبل ، بل بصـورة أشد حدة وعنفا . فقالت ماريا نيقولايفنا ، وقد استرخت وتهالكت على أريكتها :

ـ حسـنا ، ما دمت أسـيرا ، وما دمت مضطرا الى مصـاحبتى بدلا من الذهاب الى خطيبتك لتتـأملها وتعجب بجمالها.. كلا.. كلا.. لاتحملق، ولا تغضب !..اننى أفهمك ، وقد وعدتك بأن أدعك تمضى اليها متى أردت . وانما أريد الآن أن أفضى اليك باعترافات..هل يهمك أن تعرف ما هى أحب الأشياء الى نفسى ؟

فقال سانين :

ـ الحرية !

فوضعت ماريا نيقولايفنا يدها على يد الشـاب ، وقالت جادة ، بصوت تختلج فيه نبرة الصدق :

ـ نعم ، يا ديمترى بافلوفتش .. الحرية .. الحرية قبل كل شىء ، وفـوق كل شىء ! ولا يذهبن بك الظن الى أننى أفاخر بهذا .. كلا ، فليس فى هذا ما يفاخر به الانسـان . ولكن الحقيقة هى أننى كذلك ، وأننى سأظل كذلك الى أن أموت. ويجب أن تصدق أننى قد عانيت فى طفولتى من عذاب العبودية الشىء الكثير . وقد ساهم مسيو جاستون ، الذى تولى تربيتى ، فى تفتيح عينى .. هل تفهم الآن لماذا تزوجت بوزلوف ؟.. لقد تزوجته لأننى أستطيع معه أن أكون حرة ، حرة كالهواء .. كنت أعرف قبل أن أتزوجه أننى سـأكون مع زوج مثله « قوزاقية » حرة !

وصمتت ماريا نيقولايفنا ، ثم رمت مروحتها جانبا . واردفت :

ـ كلمة أخرى أيضا .. اننى لا أكره التفكير ، فانما أوتى الانسان عقلا ليفكر . ولكننى لا أفكر أبدا فى النتائج التى يمكن أن تنجم عن أعمالى .. اننى أنساق حين يجب الانسياق ، فلا أهتم ، ولا أقلق ، وشعارى هو : « ليكن ما يكون ! » . وفى هذه الحياة الدنيا ، لا حساب . أما فى الآخرة ، أما فى السماء (قالت ذلك وقد رفعت أصبعها نحو السقف) .. هه .. فليصنعوا بى ما يشاءون . فحين يحكمون على فى الآخرة ، لن أكون أنا نفسى .. هل تسمع ما أقول ؟ أم ترانى أضجرك كثيرا ؟

ـ مطلقا .. اننى أصغى اليك بغاية الاهتمام . ولكن ، لماذا تقولين لى هذا الكلام كله ؟

فاقتربت ماريا نيقولايفنا منه ، وقالت :

ـ ياله من سؤال ! .. أجاهل أنت أم متجاهل ؟

فرفع سانين رأسه . وأضافت هى تقول بصوت هادىء ، لكنه صوت لا يتفق والمعنى الذى يتبدى على وجهها :

ـ انما اقول لك هذا كله ، لأنك تعجبنى .. اجل ، لا تتظاهر بالدهشة .. وليس فى هذا ما يفرحنى ، فانه ليشق على أن أترك فى نفسك ـ بعد لقائنا ـ رأيا سيئا أو خاطئا !.. ومن أجل ذلك ، قدتك الى هنا ، واختليت بك ، وحدثتك فى صدق .. أجل ، اننى لا اكذب ! ولاحظ اننى أعرف أنك تحب امرأة أخرى ، وانك على أهبة الزواج ،

ومعنى هذا اننى لااطمع منك فى شىء . ومع ذلك ، كانت تلك فرصة مواتية لأقول لك فيها : « ليكن ما يكون ! » .

ثم ضحكت ، لكنها سرعان ما انقطعت عن الضحك فجأة ، وسكتت ، ولم تحرك ساكنا ، وكأن كلماتها أدهشتها هى نفسها . وفى عينيها اللتين كان يشيع فيهما المرح ، وتومض الجرأة عادة ، طاف شىء أشبه ما يكون بالحياة . . وبالأسى والحزن . فقال سانين لنفسه : « أيتها الافعى . . آه منك أيتها الأفعى الجميلة ! » . . وفجأة أمرته أن يناولها المنظار قائلة :

ـ اعطنى المنظار . . أريد أن ارى من على المسرح . . هل يعقل أن تكون الفتاة الاولى على هذا القدر الكبير من الدمامة ، الذى ألمحه من هنا ؟ لكأن الحاكم قد اختارها عمدا لغماية أخلاقية ، هى عدم استثارة الشباب !!

ودفع اليها سانين بالمنظار ، فتناولته ، ثم تلمست بأصابعها يديه فى حرارة . وقالت :

ـ لا تعبس . . اننى لا أحب أن يقيدنى أحد ، ولكننى لا أحب أيضا أن أقيد أحدا . . اننى أحب الحرية ، ولا أريد لغيرى الا ما أريده لنفسى . . والآن ابتعد قليلا ، ولنصغ الى المسرحية !

وراحت ماريا نيقولايفنا تتطلع الى المسرح من خلال المنظار ، ثم اقتدى بها سانين وكان هذا ـ وهو جالس الى جانبها فى عتمة المقصورة ـ يستنشق ، على غير ارادة منه ، حرارة الجسد العطر النضر . . ورغما عنه أيضا ، كان يفكر

فى كل ما أفضت به اليه خلال تلك السهرة ، وبخاصة خلال الدقائق الأخيرة !

- ٤٠ -

استغرقت المسرحية ساعة أخرى ، الا أن ماريا نيقولايفنا وسانين سرعان ما تولاهما السأم ، فعادا يتحدثان ، وجرى حديثهما على الوتيرة نفسها ، غير أن سانين أصبح ـ فى هذه المرة ـ أقل تحفظا ، وأكثر انطلاقا !

وكان سانين مستاء من نفسه ومن ماريا نيقولايفنا ، فحاول أن يبرهن لها على أن « نظرياتها » خاطئة ، وكأن ماريا نيقولايفنا كانت تعنيها «النظريات» فى كثير أو قليل . وقدسرها أن يدحض سانين حججها وأدلتها ، قائلة لنفسها : « ما دام يناقش ، فمعنى هذا انه استسلم أو أنه على وشك الاستسلام ، فأول الخضوع معارضة ، والسمكة متى عضت الصنارة ، فقدوقعت! » . ومضت ماريا نيقولايفنا تبتسم له ، ثم توافقه على آرائه ، وتستغرق فى التفكير ، ثم تستأنف الهجوم . وكان وجهاهما ـ أثناء ذلك ـ يتقاربان ، وأصبحت عينا سانين لا تتحولان عن عينى المرأة الشابة اللتين كانتا تتفرسان فيه ، وتجولان بنظراتهما فى ملامحه وقسمات وجهه .

وكان سانين يجيب على ذلك بابتسامة تفيض لباقة ولطف .. وقد أسعدها كثيرا أن يسترسل سانين فى أفكار عامة ، بعيدة كل البعد عن الشرف ، والواجب ، والوفاء ، وقدسية الحب والزواج . فمن الامور المعروفة ان مثل

هذه الآراء المجردة ، تعد بداية طيبة للغاية ، بل لعلها خير بداية على الاطلاق. ولعل ماريا نيقولايفنا لم تكن تبلغ أقصى درجات فتنتها واغرائها الا حين كانت تبدو عليها سمات التواضع ، والرقة ، والخجل ، والحياء (ولا يعلم الا الله من اين كانت تضفى هذه الفضائل على طبيعتها القوية المسترجلة) .. ولو قد أتيح لسانين أن يراجع نفسه لحظة ، لاحتقر تلك المرأة ، لكن وقته لم يتسع لذلك ، فلم يستطع أن يفكر . سيما وان ماريا نيقولايفنا ما كانت لتضيع وقتها ، بعد أن استحوذ سانين على اعجابها ، وترك أثرا فى نفسها !

وانتهت المسرحية أخيرا . فطلبت ماريا نيقولايفنا الى سانين أن يضع لها شالها على كتفيها ، ثم وقفت ساكنة ، بينما راح الشاب يدثر بالحرير الفاخر كتفى رفيقته الفاتنين . فلما فرغ من مهمته ، امسكت بذراعه ، ومضت . وما أن خرجت من باب المقصورة ، حتى أطلقت ـ على حين غرة ـ صرخة فشلت فى كبتها .. فقد كان «دنهوف» واقفا عند مدخل المقصورة ، كالشبح ، ومن ورائه كانت تطل قامة الناقد الادبى التعس ، الذى كان وجهه يلمع من فرط سمنته ، ويشرق فى فرح وخبث . وقال الضابط ، وهو يرتعد من غضب لم يستطع أن يخفيه فى صوته :

ـ هل تسمحين لى يا سيدتى بأن استدعى عربتك ؟

فأجابت :

= كلا ، شكرا .. ان تابعى يتولى هذه المهمة !

وأضــافت تقول بصوت حاسم ، وهى تبتعـد بسرعة مع سـانين :

ــ ابق هنا !

فصاح دنهوف بصوت غاضب ، مخاطبا الناقد :

ــ اذهب الى الشيطان .. أتظل ورائى ، لا تفارقنى ؟

فقد كان دنهوف فى حاجة الى أن يصب جام غضبـه على شخص ما . فغمغم الناقد ، يجيب وهو يبتعد :

ــ حسنا .. حسنا ..

***

وكان خادم ماريا نيقولايفنا ينتظرها عند مدخل المسرح ، فان هى الا لحظة حتى تقدمت عربتها ، فدلفت اليها بسرعة ، ووثب فى اثرها سـانين . وما أن أغلق باب العـربة ، حتى انفجرت ماريا نيقولايفنا فى ضحكة مدوية . فسألها سانين :

ــ مم تضحكين ؟

ــ أوه .. معذرة .. لا تؤاخذنى ! .. **لقد خطر ببالى أن دنهوف قد يدعوك الى المبارزة مرة أخرى .. أليس هـذا مضحكا ؟**

ــ هل تربطك به علاقة وثيقة ؟

ــ تربطنى بهذا الصبى ؟ .. هه .. اننى اسـتخدمه فى شراء بعض حاجياتى .. **لا تقلق .. لا تنزعج !**

ــ وفيم القلق ؟ أن أمره لا يهمنى قط !

وتنهدت ماريا نيقولايفنا ، ثم قالت :

ـ آه .. بالطبع .. أعرف هذا حق المعرفة . لكن اسمع ، مع ذلك ، يا ديمترى بافلوفتش ! لقد كنت لطيفا حتى الآن غاية اللطف ، فلا تخيب رجائى الأخير .. **سأسافر أنا الى باريس بعد ثلاثة أيام ، فهل توافق على أن تبقى معى حتى ذلك الحين ، ثم تعود الى فرنكفورت ؟ ..** لا يعلم الا الله متى نلتقى بعد ذلك !

ـ وما فائدة بقائى ؟

ـ هل تجيد ركوب الخيل ؟

ـ أجل .

ـ عظيم .. سنقوم غدا اذن بنزهة بالجياد ، خارج المدينة .. انها خير أنواع الجياد .. حتى اذا عدنا ، سوينا القضية ، التى جئت من أجلها ، وانتهى الامر .. ولا تقل أن هذه نزوة ، أو اننى مجنونة .. فقد أكون مجنونة ، ولكن قل لى أنك تقبل !

ثم أدارت رأسها نحو سانين . وكانت العربة مظلمة ، لكن بريق عينى ماريا نيقولايفنا كان يومض فى الظلام . فقال سانين وهو يتنهد :

ـ قبلت !

فهتفت ماريا نيقولايفنا ، وهى تقلد سانين فى تنهده :

ـ أراك تتنهد .. اسمع .. لقد امتلأت الكأس ، فلا بد من شربها . لكنك رجل لطيف .. انت شاب شهم ، وسأبر بوعدى . **هاك يدى أمدها اليك بلا قفاز ، يدى اليمنى التى أوقع بها الاتفاقات ، فشد عليها ، واطمئن اليها .. لست**

ادرى أى نوع من النساء أنا ، ولكننى أعرف أننى ، فى ميدان الاعمال ، صادقة مستقيمة يمكن التعامل معى !

وتناول سانين يدها ، وبدون أن يدرى ماذا كان يفعل ، رفعها الى شفتيه . فسحبت ماريا نيقولايفنا يدها ببطء ، وسكتت ، وظلت صامتة الى أن وقفت العربة أمام الفندق. وحين همت بأن تنزل ، أحس سانين على خده بلمسة سريعة محرقة . فخال نفسه فى حلم . وما لبث أن سمعها تقول له :

ــ الى الغد !

ثم توجهت الى السلم الذى كان يضيئه الشمعدان المزين بالقصب المذهب ، والذى حمله البواب بمجرد أن لمح وصول العربة . وقبل أن تدلف الى المكان ، عادت تقول لسانين ، وقد غضت بصرها : « الى الغد ! » .

ولما وصل سانين الى غرفته ، وجد على منضدته رسالة من جيما . وما ان رأى الرسالة ، حتى أحس برعشة فى جسمه ، لكن سرعان ما ابتسم ليبدد ما اعتمل فى نفسه من مشاعر. . وكانت رسالة جيما لا تكاد تضم الا بضعة أسطر. وقد ابلغته فيها الفتاة انه قد أسعدها أن تعلم أن« الصفقة بدات هذه البداية الطيبة.» ؛ وراحت تحث سانين على التذرع بالصبر، مؤكدة له بأن الامور كلها ستجرى على خير مايرام ، وختمت رسالتها معبرة عن فرحتها بقرب لقائها بسانين !

ووجد الشاب الرسالة جافة بعض الشىء ، الا انه تناول ورقة وقلما ليكتب ردا . لكنه سرعان ما القى بهما جانبا ،

وهو يقول لنفسه : « فيم اكتب ما دمت عائدا فى الغد ؟ لقد آن لى أن أعود ! » .. ولم يلبث أن استلقى فى فراشه ، وحاول أن ينام بسرعة . ولو قد ظل سانين ساهرا ، لكان من الممكن أن يفكر فى جيما ، لكنه كان يخجل من مجرد التفكير فيها . فقد كان ضميره مضطربا وتفكيره مشتتا ، فكان لا يفتأ يطمئن نفسه بأن كل شىء سينتهى فى اليوم التالى ، وانه سيتخلص من ماريا الى الابد ، وينسى جميع نزواتها واهوائها .. وهكذا شأن الرجال الضعاف دائما .. انهم يستخدمون العبارات القوية الطنانة ، حين يتحدثون الى أنفسهم ، فيقولون : « **ثم ان الأمر لن تكون له نتائج خطيرة !** » .

- ٤١ -

تلك كانت الخواطر التى دارت فى رأس سانين وهو مستلق فى فراشه . ولكن ما من أحد يعرف ما الذى فكر فيه سانين فى صباح اليوم التالى ، حين طرقت ماريا نيقولايفنا باب غرفته بقبضة سوطها المرجانية ، ثم طالعته عند العتبة ، وهى تمسك بيدها طرف ثوبها الازرق القاتم الذى ترتديه الفارسات ، وقد وضعت على جدائل شعرها الغزيرة قبعة من قبعات الرجال ، وعلى كتفها وشاحا شفافا متموجا ، وعلت شفتيها وعينيها ووجهها كله ، ابتسامة مثيرة فاتنة !

وصاحت فيه ماريا نيقولايفنا فى مرح :

— هل تأهبت ؟

فأسرع سانين يعقد أزرار سترته ، ثم تناول قبعته دون أن ينبس بكلمة واحدة . والقت عليه ماريا نيقولايفنا نظرة فرحة ، وأومأت اليه برأسها ايماءة خفيفة ، ثم هرولت تهبط السلم راكضة . وتبعها الشاب مسرعا !

وكانت ثمة ثلاثة جياد تنتظر فى الشارع أمام باب الفندق . وكانت تتألف من فرس أصيلة شقراء ، لها منخران جافان ، وأسنان مكشوفة ، وعينان سوداوان جاحظتان ، وساقان كأنهما ساقا عنزة لشدما انتابهما من ضمور ، لكنها كانت فرسا رشيقة حارة كالنار ، وكانت هى التى ستمتطيها ماريا نيقولايفنا .. أما الحصان الثانى ، فكان قوى الشكيمة ، عريض المنكبين ، ثقيلا بعض الشىء ، لا تكسو جلده أية بقع ، وكان مخصصا لسانين . وكانت ثمة دابة ثالثة للسائس !

وامتطت ماريا نيقولايفنا صهوة فرسها فى خفة ، فأخذت الفرس تضرب الارض بحافريها ، وهى تدور حول نفسها ، رافعة ذيلها ، محركة ردفيها . لكن ماريا نيقولايفنا كانت فارسة ممتازة ، فاستطاعت أن تكبح جماح الفرس ، وأن تبقيها فى مكانها !

وكان لابد من توديع بوزلوف الذى كان قد خرج الى الشرفة بقلنسوته وسترته المفتوحة ، وراح يلوح بمنديله الحريرى ، وقد عبس وجهه وتجهم .. وسرعان ما امتطى سانين ظهر جواده بدوره . فهزت ماريا نيقولايفنا قبضة سوطها بحركة خفيفة ، تحية لزوجها ، ثم ضربت الفرس

ضربة هينة على عنقها المسطح المائل ، فشبت الفرس ، ثم مضت مقهورة ، رشيقة ، مرتعشة الجلد ، تعض اللجام ، وتنفث الهواء فى غضب .. وتبع سانين الفارسة ، وراح يتأمل قوامها الدقيق المرن ، الذى كان يهتز على صهوة الجواد منتصبا ثابتا . وما لبثت ماريا أن التفتت نحو سانين ، واشارت اليه براسها ، فاقترب منها ، وسارا متحاذيين . ثم قالت له هاتفة :

ـ ما أجمل هذا الجو ! .. دعنى أقل لك مرة أخيرة قبل أن نفترق ، انك انسان رائع ، ولن تندم على أنك صحبتنى فى هذه النزهة !

وكانت تقول هذا الكلام ، وهى تشفعه بحركات من راسها ، كأنما لتعززه وتجعله أقوى نفاذا الى قلب صاحبها . وقد بلغ وجهها ، من فرط تعبيره عن السعادة ، أن أخذ سانين يقول لنفسه دهشا : «انه لوجه طفلة . . طفلة عاقلة للغاية ! » .. وظل الجوادان يسيران متقاربين بخطى وئيدة ، الى أن بلغا الحاجز ، فأخذا بعد ذلك يعدوان . وكان الجو جميلا ، والسماء سماء يوم من أيام الصيف ، وكانت الريح تلقى الفارسين مغمغمة ، وترسل فى الآذان صفيرا ممتعا . وشعر الفارسان براحة وسعادة . فقد كانت حياة فتية عارمة تتدفق فى كيانهما ، وهما يعدوان ذلك العدو الطليق القوى . وأخذت نشوتهما تزداد وتتضاعف كلما مر بهما الوقت . وسرعان ما شدت ماريا نيقولايفنا عنان فرسها ، وعادت تسير بخطى وئيدة . فحذا سانين حذوها . واذ ذاك هتفت

الفارسة ، وهى تتنهد تنهدا عميقا سعيدا :
ـ هكذا تستحق الحياة أن نحياها !.. ما أروع أن يحقق المرء ما كان يحسبه مستحيلا !
ثم مرت بيدها على عنقها ، وأضافت :
ـ ان المرء ليصبح عندئذ أطيب نفسا .. اننى لأشعر بأننى صافية القلب للغاية فى هذه اللحظة ، وأن فى وسعى أن أقبل العالم بأسره .. كلا ، ليس العالم بأسره ، فهذا شخص ما أظن أننى أستطيع تقبيله !

واشارت بطرف سوطها الى رجل عجوز كان يرتدى اسمالا رثة ، ويسير على حافة الطريق ، وقالت :
ـ ولكننى أريد أن يكون هو الآخر سعيدا ..أيهاالشيخ ، خذ هذا لك !
ثم القت بكيس نقودها بين قدمى العجوز . وسقط الكيس الصغير ثقيلا على الطريق ، فأحدث سقوطه صوتا جافا . فدهش العجوز المسكين ، وتوقف . فانفجرت ماريا نيقولايفنا ضاحكة ، وهمزت فرسها ، فانطلقت هذه تركض بها سريعا . فلما أدركها سانين ، سألها :
ـ أأنت مرحة دائما هكذا ، كلما ركبت خيلا ؟
فجذبت ماريا نيقولايفنا زمام فرسها ، فتوقفت هذه عن السير . ولم تكن توقف فرسها أبدا بغير هذه الطريقة . وقالت :
ـ انما أردت أن أفلت من الشكر .. ان الشكر يفسد كل شىء ! وأنا لم أقذف اليه بالمال من أجله ، بل من أجلى

..لم افعل هذا لكى ابعث السرور فى نفسه ، وانما لكى ارضى نفسى . فعلام يشكرنى ؟ .. ماذا سألتنى ؟ اننى لم أسمع !

– انمـا أردت أن أعرف لماذا انت مرحة اليوم كل هـذا المرح ؟

ترى الم تسمع ماريا نيقولايفنا السؤال ؟ أم أنها لم تشأ أن تجيب عليه ؟ .. فقد غيرت موضوع الحديث قائلة :

– هل تعرف ؟.. أن هذا السائس الذى يتبعنا يضايقنى ، فكيف السبيل الى التخلص منه ؟

وسحبت من جيبها دفترا صغيرا وأردفت :

– سأعطيه رسالة ليمضى بها الى المدينة .. ولكن ، كلا .. لقد وجدت الوسيلة .. أليس حانة ، هـذا المكان الذى امامنا ؟

وتطلع سانين الى المكان الذى اشارت اليه ، وقال :

– يخيل الى انه حانة فعلا !

– عظيم .. سأقول له أن يبقى هناك ، وأن يشرب البيرة الى أن نعود !

– ولكن ماذا عسى أن ينصرف اليه ذهنه ؟

– لا شىء .. سيشرب البيرة وكفى .. هيا يا سانين !

وكانت هذه أول مرة تخاطبه فيها ماريا نيقولايفنا باسم ((سانين)) مجردا . وقـد خاطبته على هـذا النحو أثنـاء الطريق ، والخيل تعدو . فلما وصل الفارسان الى الحانة ، نادت ماريا نيقولايفنا التابع ، وأصدرت اليه أوامرها . فما ان سمع التابع ما امرته به – وكان رجلا انجليزى الاصل ،

حار المزاج ـ حتى رفع يده الى حافة قبعته دون أن ينطق بكلمة ، ثم وثب عن حصانه ، وجره من عنانه . فلما انصرف صاحت ماريا نيقولايفنا ، مخاطبة سانين :

ـ نحن الآن طائـران طليقـان ، فالى أين نـذهب ؟ الى الشـمال ؟ الى الجنوب ؟ الى الغرب ؟ الى الشرق ؟ أنظر .. انني كملك المجر عند تتويجه (واشارت بطرف سوطها الى الاتجاهات الأربعة) .. الكون كله لنا .. هل ترى هذه الروابى ؟ هـذه الغابات هناك ، فوق الجبـال .. ان فوق الجبال توجد الحرية .. هناك ، فى الأعالى !

وانحرفت ماريا نيقولايفنا عن الطريق ، وانعطفت بفرسها مسرعة فى درب ضيق لا يكاد يكون ممهدا ، ويبدو أنه كان يؤدى الى الجبل حقا . واندفع سانين فى اثرها !

ـ ٤٢ ـ

لم يلبث الدرب الضيق أن استحال الى ممر لا تكاد تراه العين ، ثم اختفى تماما وراء احدى الحفر . وكان من رأى سانين أن يرجعا أدراجهما ، لكن ماريا نيقولايفنا هتفت تقول :

ـ بل نمضى الى أعلى الجبل .. نمضى الى أعلى الجبل قدما من خلال الحقول ، كما تطير الطيور !

ولـكزت حصانها ، فوثب فوق الحفرة . واقتفى أثرها سانين .. وكان يمتد فى الجانب الآخر أحد المراعى ، وكان جافا يابسا فى أوله ، رطبا تنتشر فيه المستنقعات بعد ذلك ، فقد كانت المياه هناك تنبثق من كل مكان ، مكونة فى بعض

المواضع غدرانا وبركا . وتعمدت ماريا نيقولايفنا أن تمضى بفرسها الىوسط الفدران ، وأخذت هنالك تضحك صائحة :

ـ ها نحن قد أصبحنا كالتلاميذ الهاربين من المدرسة .. هل مارست الصيد فى فترة مياه الربيع ؟

ـ طبعا !

ـ لقد كان لى عم يحب الصيد حبا جما . وكنت أصحبه كثيرا فى الربيع .. الا ما كان أروع ذلك ! .. وها نحن اليوم نبتل بمياه الربيع .. انى لأرى أنك روسى حقا ، ومع ذلك تريد أن تتزوج من ايطالية .. على كل حال ، هذا شأنك .. حذار ، هذه حفرة اخرى !

ووثب الفرس فوق الحفرة، فطارت قبعة ماريا نيقولايفنا ، وانحلت جدائل شعرها ، فانسدلت على ظهرها . وأراد سانين أن يقفز من فوق حصانه ، لكن الفارسة أمسكت به قائلة :

ـ بل سأحضرها أنا !

ثم مالت ميلا شديدا الى أسفل ، دون أن تترك صهوة الفرس ، ومدت قبضة سوطها ، فعلقت بها طرف القبعة ، ثم حملتها ، ووضعتها على رأسها دون أن ترفع شعرها ، واستأنفت العدو وهى تصيح فرحة . وكان سانين يعدو بحصانه الى جانب ماريا نيقولايفنا ، ويثب معها فوق الحفر والأسيجة والسواقى ، ويصعد ويهبط ، متسلقا الجبال ، هابطا المنحدرات ، دون أن تفارق نظراته وجه رفيقته !

وكان وجه ماريا مشرقا متألقا ، وكانت عيناها متألقتين ، شرهتين ، صافيتين ، ضاريتين ، وشفتاها تنفرجان ، وأنفها يختلج مستنشقا الهواء فى نهم . وكانت ماريا نيقولايفنا تتطلع أمامها ، معانقة بنظراتها الافق كله ، وكأن روحها أرادت أن تلتهم كلما كانت تراه ، وتمتلك الارض ، والسماء ، والشمس ، والهواء . وما كان يضايقها الا شىء واحد هو ندرة الحواجز والعقبات فى الطريق ، فقد كانت تود لو أحرزت انتصارات أخرى عديدة . وما لبثت ان قالت لسانين :

ـ سانين .. ان هذا ليشبه كل الشبه ما فى قصة « لنيور » لمؤلفها بورجر (١) .. ولكنك لست ميتا ، أليس كذلك ؟ أما أنا فأحس بأننى أحيا .. أحيا !

ولم تكن ماريا نيقولايفنا فى تلك اللحظات مجرد فارسة تعدو على صهوة جوادها ، بل كانت قد صارت أشبه بحورية من خوريات الأساطير ، وهى تشق بفرسها الارض الطيعة التى افتتنت بها وانبهرت بجمالها !

وأخيرا أوقفت ماريا نيقولايفنا فرسها التى بللها العرق ولطخها الطين . وكانت الفرس تترنح من تحتها ، وكان حصان سانين القوى الثقيل يلهث اعياء . وقالت ماريا نيقولا يفنا تهمس نشوانه :

ـ ان هذا لجميل ، أليس كذلك ؟

فقال سانين فى حماسة :

---

(١) بورجر : شاعر ألمانى عاش فى القرن الثامن عشر .

ـ رائع ..

وكان دم سانين يغلى ايضا . فعادت تقول له :

ـ انتظر .. لم ينته كل شيء !

ومدت اليه يدها ، وكان قفازها قد تمزق . وأردفت :

ـ قلت لك انني سأمضى بك الى الغابة هناك ، فى الأعالى ، فى الأعالى .. فى الجبل !

وكان الجبل ينتصب هناك شامخا ، على مسافة مائتى متر من الفارسين المنطلقين . واستطردت تقول :

ـ انظر ، هذا هو الطريق ، فلنسترح قليلا ، ثم فلنمضى الى هناك..ولكننا سنسير الهوينا ، اذ يجب أن ندع للخيل فرصة لأن تتنفس !

ومضيا فى طريقهما . وبحركة من يديها ، ردت جدائل شعرها الى الخلف . ونظرت الى قفازيها ، ثم خلعتهما وهى تقول :

ـ لقد تشبعت يداى برائحة الجلد ، ولكن لا بأس !

وكانت تبتسم ، وكان سانين يبتسم لها هو الآخر . وسألته فجأة :

ـ ما عمرك ؟

ـ اثنتان وعشرون سنة .

ـ أحقا ؟ هذا غريب .. أنا أيضا عمرى اثنتان وعشرون سنة .. ما اجملها من سن ! .. لو أضفت عمر كل منا الى ،

عمر الآخر ، لظللنا بعيدين عن الشيخوخة .. ان الجو حار .. لقد احمر وجهى ، أليس كذلك ؟

ـ وصار بلون أزهار شقائق النعمان !

وجففت وجهها بمنديلها ، وقالت :

ـ سيتلطف الجو متى أصبحنا فى ظل الغابة .. انها غابة قديمة ؛ وهى عندى كصديق قديم .. هل لك أصدقاء ؟

ـ عدد قليل منهم .. وانما أصدقاء حقيقيون لا !

ـ اما انا ، فلى أصدقاء حقيقيون .. هذه الفرس مثلا .. انها تحملنى على ظهرها فى رفق .. ما أعظم ما أشعر بالراحة هنا ! .. أيمكن أن أسافر الى باريس بعد غد ؟

ـ هل صحيح انك ستسافرين ؟

ـ طبعا ، وستسافر انت الى فرنكفورت ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، سأعود الى فرنكفورت !

ـ امض الى فرنكفورت ، واننى لأبارك سفرك الى فرنكفورت . **اما هذا اليوم ، فهو يومنا نحن ، نحن وحدنا !**

وكانت الخيل قد بلغت الغابة ، وتوغلت فيها . وكان الظل الرطب اللذيذ يكتنف الفارسين من كل جانب . فصاحت ماريا نيقولايفنا :

ـ ان المرء هنا يخال نفسه فى الجنة . فلنوغل ؛ ولنوغل فى هذا الظل .. سانين ، ان الخيل تسير فى اعماق الغابة الهوينا !

وانحرف الممر فجأة ، وسلك طريقا ضيقا . وكانت رائحة الخنشار ، والصنوبر ، والسماد تتصاعد من الارض . وكانت

« .. ولكننى أريد أن يكون هو الآخر سعيدا .. أيها الشيخ ، خذ هذا لك ! »

شقوق الصخور السمراء تنشرجوا رطبا ينفذ الى الاجسام. وعلى جانبى الطريق ، كانت تقوم آكام مفظاة بطحالب خضراء . وصاحت ماريا نيقولايفنا قائلة :

ـ فلنقف ! أريد أن أستريح على هذه الخميلة. ساعدنى على الهبوط من فوق الحصان .

فترجل سانين ، وهرع نحوها ، فاستندت الى كتفيه ، ووثبت بسرعة الى الارض ، ثم جلست على ربوة يغطيها الطحلب. ووقف سانين امامها ، ممسكا بزمامى الحصانين. فرفعت ماريا نيقولايفنا عينيها نحوه ، وقالت :

ـ سانين ، هل تستطيع أن تنسى ؟

وما ان قالت له ذلك ، حتى تذكر ما جرى بينهما بالأمس فى العربة ، فسألها :

ـ أهذا سؤال ، أم لوم ؟

ـ ما لمت أحدا فى حياتى .. ولكن هل تؤمن بالسحر ؟

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أعنى هل تؤمن بأن الانسان يستطيع أن يسحر أحدا بالرقية ، كما تحفل بذكر ذلك الأغانى التى ينشدها الفلاحون فى بلادنا ؟

ـ آه .. فهمت !

ـ أما أنا فأومن بذلك ، وأنت ؟

ـ السحر .. الرقية .. ان كل شىء ممكن فى هذه الدنيا ! .. لقد كنت فى الماضى لا أؤمن بشىء من ذلك ، أما الآن فأصبحت أؤمن .. أننى الآن لا أكاد أعرف نفسى !

وفكرت ماريا نيقولايفنا لحظة ، ثم نظرت فيما حولها ، وقالت :

– يخيل الى أننى أعرف هذا المكان .. سانين ، انظر ! هل هناك صليب أحمر ، على جذع تلك السنديانة الكبيرة ؟ .. أهو هناك ؟

واقترب سانين من الشجرة . ثم قال :

– نعم ، ان الصليب ههنا !

فابتسمت ماريا نيقولايفنا ، وهتفت :

– الآن عرفت أين نحن .. اننا لم تبتعد عن طريقنا .. ولكن من هذا الذى يحدث صوتا هناك ؟ أهو حطاب ؟

ونظر سانين الى الجهة التى كان يأتى منها الصوت . وقال :

– أجل ، انه رجل يقطع الاغصان الميتة !

– اريد أن أعيد تصفيف شعرى .. ترى ماذا عسى أن يقول أى شخص يرانى ؟

ثم نزعت قبعتها عن رأسها ، وأخذت تصفف جدائلها الطويلة فى جد ووقار ، دون أن تنطق بكلمة واحدة . وظل سانين واقفا أمامها . وكانت مفاتن جسد المرأة الشابة تبرز واضحة تحت ثنايا سترتها القاتمة ، التى علقت بها وريقات الطحلب هنا وهناك .. وفجأة أجفل أحد الحصانين من وراء سانين ، فارتعش هذا وانتفض . فقد كان كل شىء مضطربا أمام عينيه ، وكانت أعصابه متوترة وكأنها أوتار مشدودة .. لقد صدق حين قال أنه اصبح لا يعرف نفسه . فقد

كان يقف مسحورا ، وقد استبدت بكيانه كله فكرة واحدة ورغبة واحدة !

ورمقته ماريا نيقولايفنا بنظرة حادة ، ثم قالت وهى تضع قبعتها على رأسها :

ـ الآن أصبح هندامى سليما لا غبار عليه .. لماذا تظل واقفا ؟ اجلس هنا ! .. كلا ، انتظر .. لا تبتعد .. ما هذا الذى نسمعه ؟

فقد دوى فى تلك اللحظة صوت عنيف ، هز ارجاء الغابة هزا . فسألت ماريا رفيقها :

ـ أهو رعد ؟

ـ لكأنه رعد !

ـ اننى اذن لفى عيد حقا .. لقد كان الرعد هو ما ينقصنا !

ودوى الصوت العنيف مرة أخرى ، وتردد صداه طويلا . فعادت تقول :

ـ مرحى .. عظيم .. هل تذكر ؟ لقد حدثتك بالأمس عن الانيادة .. لقد فوجئا ، هما ايضا ، بالعاصفة فى الغابة ! .. يجب علينا أن نبحث عن ملجأ نلوذ به !

ونهضت واثبة ، وهى تقول :

ـ الى بفرسى .. ناولنى يدك .. اننى لست ثقيلة !

وقفزت فوق صهوة فرسها ، فى خفة العصفور . وامتطى سانين حصانه بدوره ، ثم سألها بصوت متردد :

ـ اتريدين العودة ؟

ـ العودة ؟ !

قالت ذلك وهى تضغط على مقاطع الكلمة ، وتجمع طرفى عنان الفرس ، ثم استطردت تقول :

ـ اتبعنى !

وعادت الى الطريق من ناحية الصليب الاحمر ، وهبطت الى درب أجوف ، ثم وصلت الى مفرق طرق ، فانعطفت يمينا ، وأخذت تصعد الرابية من جديد. وكانت تعرف الى أين هى ذاهبة ، فمضت توغل فى الغابة الكثيفة ، وتتقدم فى سيرها فى عزم وقوة ، دون أن تنبس بكلمة واحدة ، أو أن تلتفت الى الوراء ، حيث كان يسير سانين طائعا مستسلما ، مفعم القلب ، مسلوب الارادة . وأخذ المطر يهطل رذاذا : فاستحثت ماريا نيقولايفنا خطى فرسها ، وحذا سانين حذوها !

وأخيرا ، ومن خلال خضرة أشجار الصنوبر القاتمة ، لمح سانين كوخا فقيرا فى ظل صخرة صهباء ، وكان باب الكوخ مصنوعا من أغصان متشابكة . ودفعت ماريا نيقولايفنا فرسها الى شق طريقه بين أشجار الصنوبر ، ثم وثبت الى الارض ، وهرعت نحو باب الكوخ . وهناك ، همست تقول ، وهى تلتفت الى سانين : ((**ائياد !**)) .

***

بعد أربع ساعات ، كانت ماريا نيقولايفنا عائدة الى فندقها بفسبادن ، يصحبها سانين ، والتابع النائم على ظهر حصانه . وهب بوزلوف الى لقاء امرأته ، وهو يمسك

بالرسـالة التى كتبهاالى الوكيل . فلما أنعم النظر فى وجه ماريا نيقولايفنا ، قال لها بصوت خافت ، وقد بدت على وجهه علامات الاستياء :

- يظهر أننى فقدت الرهان ، أليس كذلك ؟

فلم تجبه زوجته الا بهزة من كتفيها !

وفى ذلك اليوم نفسه ، وبعد ساعتين ، كان سانين يقف أمام ماريا نيقولايفنا فى غرفتها ، معدوم الحيلة ، مسلوب الارادة . وقالت له :

- والآن، الى أين تذهب؟ أالى باريس ، أم الى فرنكفورت؟

- أذهب الى حيث تذهبين، ولن أتركك الا يوم تطردينني !

قال ذلك منهارا ، وهو يقبل يدى المرأة التى سيطرت عليه ، واستبدت به . فسحبت ماريا نيقولايفنا يديها ، ووضعتهما على رأس الشاب ، وأخذت تداعب شعره ، وتعبث به بأناملها . ثم ما لبثت أن انتصبت قائمة ، وقد علت شفتيها ابتسامة ظافرة . وكانت عيناها واسعتين صافيتين ، تبدوان بيضاويتى الشكل ، وكانتا لا تعبران الا عن انتصار وحشى ، لا يرحم . ولعلهما كانتا تشبهان اذ ذاك عينى الصقر ، حين ينشب مخالبه فى فريسته !

- ٤٣ -

طافت تلك الذكريات كلها فى خيال سانين ، حين وجد الصليب الصغير المصنوع من العقيق ، وهو يرتب أوراقه وسط سكون غرفته. وأخذت تلك الأحداث المتلاحقة تترابط

فى ذاكرته ترابطا واضحا . فلما تصور نفسه بعد ذلك ذليلا يتضرع الى الاميرة بوزلوف ، ويرتمى عند قدميها ، استيقظت فى ذهنه أيام عبوديته لها ، فأراد أن يتحول عن تلك الذكريات، والا يستعيدها مرة أخرى . لا لأن الذاكرة كانت تعوزه ، على العكس .. لقد كانت تصور له تصويرا دقيقا كل ما حدث بعد ذلك اليوم . **لكن الشعور بالعار كان يخنقه خنقا ، وهو رغم السنين العديدة التى انقضت على تلك الأحداث ، كان ما يزال يخشى أن يعود احتقاره لنفسه ، فيسمم جميع مشاعره ، اذا هو لم يرغم ذاكرته على النسيان** . ولكن كيف كان السبيل الى النسيان ؟ .. وكيف تنمحى من خياله تلك الأحداث كلها ؟ !

لقد راح يتذكر الرسالة السخيفة الكاذبة المتباكية ، التى أرسلها الى جيما ، ولم يتلق ردا عنها . وكيف كان يستطيع أن يراها ، أو أن يعود الى بيتها ، بعد أن خانها على ذلك النحو المخزى المشين ؟ ! .. لقد بقى له من الضمير والشرف ما منعه من الاقدام على ذلك . ثم انه كان قد فقد كل ثقة بنفسه ، وكل احترام لذاته ، حتى لقد أصبح رجلا لا يصون ذمة ، ولا يرعى عهدا ..

وتذكر سانين أيضا انه أرسل خادم أسرة بوزلوف الى فرنكفورت ، ليجيئه بمتاعه . فقد كان يخاف أن يمضى بنفسه الى هناك ، ولم يكن يشغل باله الا شىء واحد ، هو أن يرحل بأقصى سرعة الى باريس !

وتذكر انه ــ عملا بأوامر ماريا نيقولايفنا ــ أخذ يتملق

زوجها ، ويداهن دنهوف الذى كان يحمل فى اصبعه خاتما من الحديد ، كالخاتم الذى أهدته اليه ماريا نيقولايفنا .. ثم وافاته ذكريات أشد سوادا ، وأدعى الى الخجل والشعور بالعار ..

ففى ذات صباح ، دخل عليه خادم الفندق ، ودفع اليه ببطاقة ، قرأ عليها اسم « بانتاليون شيباتولا : المغنى الايطالى فى قصر صاحب السمو الملكى دوق مودين ». فرفض سانين أن يلقاه ، لكنه لم يستطع أن يتحاشاه فى دهليز الفندق . فقد ظهر له هنالك ، بوجهه الحانق ، ذى الذؤابة الشعثاء ، والعينين المتقدتين كأنهما من جمر ، وسمع صوته يردد ، بالايطالية ، كلمات مروعة : « نذل .. جبان .. خائن .. وغد .. » ، فأغمض سانين عينيه ، وهز رأسه ، ونظر يمينا ثم يسارا ، وكأنما خشى أن يكون هناك من سمع كلمات الايطالى ..

ومرة أخرى ، وبينما كان سانين يجلس جلسة غير مريحة على المقعد الامامى الضيق من العربة ، ووراءه ، على الوسائد الوثيرة ، تجلس ماريا نيقولايفنا وزوجها بوزلوف فى راحة واسترخاء ، والعربة تنطلق من فسبادن فى طريقها الى باريس ، لمحه مرة أخرى .. كان بوزلوف يلتهم احدى ثمار الكمثرى التى قشرها له سانين ، وكانت ماريا نيقولايفنا تنظر اليه نظرتها الى عبد ذليل ، وتبتسم تلك الابتسامة التى بات يعرفها ، ابتسامة المالك السيد.. وفى ركن من الشارع ، عند أطراف المدينة ، كان يقف بانتاليون .. أجل ، لقد كان

بانتاليون ، ومعه ايمليو ، الفتى الصغير المتحمس الذى كان يحب سانين حبا جما لا يعرف حدودا .. لقد كان هذا القلب الفتى يرى فيه بالأمس بطلا، ويعده مثله الأعلى . أما اليوم ، فان وجهه الشاحب الجميل ، الذى بلغ من جماله انه لفت نظر ماريا نيقولايفنا ، فأطلت من نافذة العربة لتنظر اليه ، ذلك الوجه كان يفيض اليوم حنقا ، وسخطا ، واحتقارا ، وعيناه اللتان تشبهان عينى « أخربيين » شبها كبيرا كانتا ترشقان الآن سانين بنظراتهما ، والشفتان تنقبضان ثم تنفرجان لتقذفا بالشتائم .. وكان بانتاليون يمد يده مشيرا الى تارتاجليا .. لقد جاء تارتاجليا أيضا ، وراح ينبح فى وجه سانين ، فاذا بنباح الكلب الامين ينفذ فى أذنى سانين سبابا لا يحتمل ، واهانة لا تطاق !

وتذكر حياته فى باريس ، وما عانى فيها من الوان الذل والهوان ، وما كابد من عذاب العبودية . فلقد كان هنالك عبدا لا يحق له أن يغار ، ولا أن يتذمر ، وانما عرضة لأن ينبذ ذات يوم كما ينبذ الثوب البالى !

وتذكر أيضا عودته الى الوطن ، والحياة المنملة الفارغة ، التى حفلت بتوافه الأمور وسفاسفها ، كما تذكر الندم المرير الذى لم يجده شيئا ، والنسيان الممض الذى لم يجده شيئا كذلك !

كان ذلك هو العقاب الخفى الذى لا تعقبه راحة ، والألم الدفين الذى لا يرجى منه شفاء .. كان ذلك سدادا لدين لا يعرف المدين مقداره .. وقد امتلأ الكيل حتى طفح ..

اذ كيف حدث أن الصليب الصغير الذى أهدته اياه جيما كان ما يزال هناك ؟ ولماذا لم يرده سانين الى صاحبته ؟ .. ولماذا لم يعثر عليه قبل الآن ؟

***

وظل سانين غارقا فى تأملاته مدة طويلة ، لكنه ــ رغم الخبرة التى حصل عليها بتقدم السن ــ لم يستطع أن يدرك كيف أمكنه أن يهجر جيما ، انتى تدله فى هواها ، وهام بها ذلك الهيام القوى العنيف ، من أجل امرأة لم يشعر نحوها بالحب فى يوم من الايام !

وما كان أشد الدهشة التى شعر بها أصدقاء سانين ومعارفه ، حين أنبأهم فى اليوم التالى أنه مسافر الى الخارج .. فقد حيرهم النبأ ، وأثار تساؤلهم . ذلك أن سانين كان يغادر (بطرسبرج) فى منتصف الشتاء ، وكان قد أتم لفوره اعداد بيت جميل مريح ، كما اشترى تذكرة لحضور حفلة الاوبرا الايطالية التى كانت ستغنى فيها « باتى » نفسها ، مغنية الاوبرا المشهورة !

وقد راح أصدقاء سانين يتساءلون عن الاسباب التى دفعته الى السفر ، لكن الناس ليس لهم من وقتهم مايقفونه على شئون غيرهم . فلما جاء اليوم الذى سافر فيه سانين الى الخارج ، لم يصحبه الى المحطة الا شخص واحد ، هو حائكه الفرنسى ، وقد رافقه الى المحطة ، أملا فى تقاضى مبلغ كان سانين مدينا له به ، وهو اجرة تفصيل رداء من المخمل الأسود الأنيق !

- ٤٤ -

لقد أنبأ سانين أصدقاءه بأنه مسافر الى الخارج ، لكنه لم يذكر لهم الجهة التى كان سيقصدها . وقد مضى رأسا الى (فرنكفورت) . وبعد اربعة أيام من السفر ، حط رحاله فى تلك المدينة التى لم يعد اليها منذ عام ١٨٤٠ . وكان فندق (البجعة البيضاء) ما يزال حيث هو ، لكنه لم يعد فندقا من فنادق الدرجة الاولى . واذا كان شارع (زايل) — وهو الشارع الرئيسى بفرنكفورت — لم يكد يتغير الا قليلا ، فان الشارع الذى كان يقع فيه حانوت روزيلى لم يبق له من أثر !

وطاف سانين ، كالتائه ، فى تلك الأمكنة التى الفها فى الماضى ، وأصبح الآن لا يكاد يتعرف فيها على شىء . فلقد حلت محل البيوت القديمة ، أبنية عالية وقصور أنيقة . بل ان الحديقة التى كان سانين قد تواعد مع جيما على اللقاء فيها ، قد اتسعت ، وبلغت من الاتساع حدا جعل سانين يشك فى انها كانت عين الحديقة التى شهدت لقاءه مع حبيبته ! .. وانتابته الحيرة والشعور بالضياع ، اذ لم يعرف الى من يتجه وبمن يستعين ، بعد أن انقضت على ذلك العهد ثلاثون عاما ، سيما وان الاشخاص الذين سألهم سانين ، لم يكونوا قد سمعوا يوما باسم روزيلى . وقد نصحه مدير الفندق ان يذهب الى المكتبة العامة ، وأن يقلب هنالك الجرائد القديمة . ولكن أنى لتلك الجرائد أن تمده بالمعلومات التى كان يبحث عنها . ولم يستطع احد أن يخبره بشىء . فلما يئس ، سأل عن السيد كلوبر !

وكان الجميع يعرفون السيد كلوبر ، ولكن ما علمه سانين عنه ما كان ليمده بما يريد معرفته . فلقد قيل له أن ذلك البائع الانيق قد أثرى ثراء فاحشا ، ثم أخذ يمارس أعمالا تجارية غير مشروعة ، فأفلس ، وما لبث أن قضى نحبه فى السجن . على أن سانين لم يكن ليعبأ بتلك المعلومات كلها . حتى اذا وقع ذات يوم - عرضا ، فى دفتر التليفون - على اسم فون دنهوف ، الضابط المتقاعد ، أدرك أن كل ما قام به قبل ذلك من بحث ، كان يعوزه التروى وحسن التدبير . وان هى الا لحظة ، حتى كانت احدى العربات تمضى به الى العنوان الذى عثر عليه فى دفتر التليفون . وراح يسائل نفسه فى الطريق : ترى هل دنهوف هذا كان ذلك الضابط نفسه الذى عرفته فيما مضى ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فهل كان فى وسعه ان يخبرنى بشىء عما آلت اليه أسرة روزيلى ؟ .. لكنه اخذ يعشم نفسه ويمنيها بالحصول على بغيته ..

ووجد سانين الضابط فون دنهوف فى بيته ، فلم يلبث أن عرف فى ذلك الرجل الاشيب خصمه القديم . وقد عرفه دنهوف بدوره ، وسره أن يراه ، فقد كان ذلك يذكره بأيام شبابه ومغامراته .. واستطاع سانين أن يعلم منه أن أسرة روزيلى قدهاجرت منذ مدة طويلة الى أمريكا ، حيث استقرت فى (نيويورك) ، وأن جيما قد تزوجت من أحد التجار ، وأنه - أى دنهوف - يعرف تاجرا بفرنكفورت ، لعله كان يعرف عنوان زوج جيما ، لما كان يربطه بامريكا من صلات ومصالح بحكم عمله .

فرجا سانين الضابط دنهوف أن يحصل له على العنوان ، ومن حسن الحظ أن خصمه القديم استطاع ان يجيئه به ، وكان : « **السيد يرمياه سلوكوم ، نيويورك ، برودواى ، رقم ٥٠١** » . لكن العنوان كان يرجع الى عام ١٨٦٣ ، فصاح دنهوف يقول :

– نرجو أن تكون حسناء فرنكفورت ما تزال على قيد الحياة ، وما تزال تقيم بنيويورك !

ثم استطرد مخفضا صوته :

– بالمناسبة .. تلك السيدة الروسية .. أنت تعرف من أقصد .. تلك السيدة الروسية التى كانت فى فسبادن .. السيدة بو .. بوزلوف ، أما تزال على قيد الحياة ؟

فأجابه سانين :

– كلا ، لقد ماتت منذ مدة طويلة !

فأطرق دنهوف ، لكنه حين رأى سانين يشيح بوجهه ويعبس ، لم يضف شيئا آخر ، ولاذ بالصمت !

***

وفى ذلك اليوم نفسه ، بعث سانين برسالة الى السيدة « جيما سلوكوم » ، بنيويورك ، يخبرها فيها انه يكتب اليها من فرنكفورت ، وانه جاء الى تلك المدينة ليراها ، عالما حق العلم انه لا يحق له ان ينتظر منها ردا على هذه الرسالة ، لأنه لا يستحق غفرانها . وكل ما يأمله ، أن تكون قد نسيت مجرد وجوده ، وهى تتقلب بين أعطاف السعادة .. **وأضاف**

الى ذلك ، انه قرر فجاة أن يكتب اليها ، على اثر ظرف ايقظ فى نفسه صور الماضى بقوة لم يستطع لها دفعا ..

وراح يصف لجيما حياة العزلة التى كان يعيشها ، بلا اسرة ولا سعادة ، وناشدها الا تسىء الظن فى البواعث التى دفعته الى كتابة هذه الرسالة . فانه لا يستطيع أن يموت ، وهو يعلم أن الاثم الذى ارتكبه ، وعانى من التفكير فيه ما عانى من ضروب العذاب ، لم يغتفر .. وطفق يتوسل اليها ان تخبره بكلمتين عن حالتها فى الوطن الذى اختارته لنفسها . وأضاف يقول ، وهو يختم رسالته :

((ان كلمة واحدة تصلنى منك ، لهى عمل طيب لايستغرب أن يصدر عن روحك النبيلة ، وساظل أشكرك عليه الى أن الفظ آخر أنفاسى .. أنا الآن فى فندق ((البجعة البيضاء)) بفرنكفورت ، وسانتظر ردك هنا حتى آخر الربيع)) .

وأرسل سانين خطابه ، وراح ينتظر . وقد لبث فى الفندق ستة أسابيع ، لم يبارح غرفته خلالها ، ولا لقى أحدا . وسره أن أصدقاءه فى روسيا لا يستطيعون أن يكتبوا اليه ، لجهلهم بعنوانه ، وبذلك يكون فى وسعه ، متى وصلته اية رسالة ، أن يدرك ممن كانت آتية .. وكان يظل يقرأ من الصباح الى المساء ، ليس صحفا ، بل كتبا جدية ومؤلفات تاريخية . وكانت تلك القراءات الطويلة ، والساعات الصامته ، والوحدة التامة تناسب حالته النفسية . وكان يشكر لجيما انها أتاحت له ذلك كله عن غير قصد منها . لكنه عاد يتساءل: ترى أما زالت جيما حية ؟ .. وهل تجيب على رسالته ؟

وأخيرا وصلت الرسالة التى كان ينتظرها فى شوق ولهفة ، وقد لصق عليها طابع بريد أمريكى ، من نيويورك .. وكان العنوان مكتوبا باللغة الانجليزية . ولم يتعرف سانين على الخط فى أول الامر ، فانقبض صدره ، حتى لقد خشى أن يفض الرسالة . لكنه سرعان ما لمح التوقيع ، فأدرك انها واردة من جيما . وما ان قرأ الاسم ، حتى انهمرت الدموع من عينية . فقد كان تذييل الرسالة باسم « جيما » وحده ، دون ذكر أسم العائلة ، يبشر بأنها غفرت له . وفيما هو يبسط الورقة الناعمة الزرقاء التى كتبت عليها الرسالة ، سقطت منها صورة فوتوغرافية على الارض ، فأسرع يلتقطها ، ونظر اليها ، فاذا بالدهشة تمتلكه . فقد كانت الصورة تمثل جيما ، جيما فى صباها ، كما عرفها منذ ثلاثين عاما . وكانت العينان هما العينان ، والفم هو الفم ، والوجه هو الوجه .. وفى ظهر الرسالة ، قرأ سانين هذه العبارة : « **ابنتى ماريانا** » . وكانت الرسالة بسيطة ، وتفيض رقة ونبلا !

وكتبت جيما تشكر لسانين انه لم يشك فيها ، وانه أولاها ثقته . ولم تخف عنه انها تألمت بعد هروبه ألما شديدا قاسيا ، لكنها اكدت له بانها ما تزال ، وستظل الى الابد تعد لقاءها به سعادة كبرى ، لأن هذا اللقاء منعها من الزواج بكلوبر ، **فكان سانين هو الذى كان السبب غير المباشر فى زواجها بالسيد سلوكوم ، الذى هيأ لها السعادة منذ ثمانية وعشرين عاما ، وكفل لها حياة يسر ورخاء ، لأن متجرهما الكبير كان معروفا فى نيويورك كلها !**

وذكرت جيمـا فى خطابها انها قد رزقت بخمسة أولاد ، اربعة أبناء ، وابنـة فى الثـامنة عشرة من عمرها ، وهى مخطوبة .. وانها ترسل اليه صورة ابنتها التى يجمع كل من يراها على أنها تشبه أمها تمام الشبه .

ولم تذكر جيما الانبـاء المفجعة الا فى آخر الرسـالة . فقالت ان السيدة لينور ماتت فى نيويورك ، حيث صحبت ابنتها وصهرها ، وانها عاشت الفترة التى عاشتها هناك ، سعيدة بسعادة أبنائها وتربية أحفادها . وقالت أن بانتاليون كان من المقـرر أن يصـحبهم الى نيـويورك ، لولا أنه مات صبيحة يوم السفر .. « أما ايمليو ، أيمليو العزيز ، فقـد مات هو أيضا ، مات ميتة الابطال ، فى سبيل حرية وطنه ، فقد قتل فى صـقلية محاربا بين صـفوف « الألف » ، تحت قيادة «غاريبالدى» العظيم . وقد بكينا فقد أخينا الحبيب بكاء سخينا ، لكننا كنا ، ونحن نبكيه ، نعتز به وسنظل نعتز الى الأبد .. ان ذكراه مقدسة فى قلوبنا .. لقد كانت روحه السـمحة النبيلة تسـتحق اكليل الاستشـهاد فى سـبيل الوطن » .

وذكرت جيما فى ختام رسالتها أنه يؤسفها حقا أن حياة سانين لم تكن سعيدة ، وانها تتمنى له طمأنينة الروح قبل كل شىء . واضافت الى ذلك انه يسـعدها ان تراه ، وان يكن الأمل فى مثل هذا اللقاء ضعيفا مستبعد التحقيق !

***

ويسـتحيل على المرء أن يعبر عما شعر به سـانين وهو يقرأ رسالة جيما . ذلك ان العواطف التى أحس بها كانت

أعمق واقوى من أن يفصح عنها الكلام . ولعل الموسيقى وحدها هى التى تستطيع أن تعبر عن مثل هذه العواطف !

وأسرع سانين يجيب على رسالة جيما . فأرسل الى ماريانا سلوكوم هدية « من صديق مجهول » بمناسبة زفافها ، هى الصليب الصغير المصنوع من العقيق ، بعد أن رصعه بلآلىء ثمينة . وما كانت تلك الهدية لتؤثر على ثروة سانين ، رغم انها كانت ذات قيمة كبيرة . ذلك أن سانين كان ، خلال الاعوام الثلاثين التى انقضت منذ عودته من فرنكفورت ، قد اثرى ثراء كبيرا !

وعاد سانين الى بطرسبرج فى أول شهر مايو . ولكن أغلب الظن انه لن يمكث فيها طويلا . فالناس يؤكدون انه يحاول أن يبيع أملاكه ، وأن فى نيته أن يسافر الى أمريكا !!

الشركة العربية لأنوار النيون والفلورسنت
١٣٣ شارع محمد بك فريد
تليفون ٤٤٧٩٢ - ٤٣٨١٦
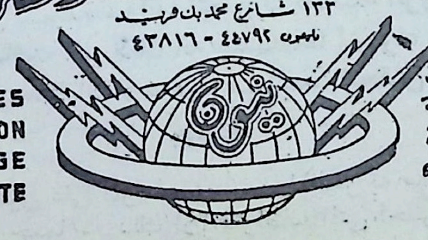
لافتات
زخرفة
انارة
كهرباء
ENSEIGNES
DECORATION
ECLAIRAGE
ELECTRICITE

عزيزى القارىء ..

والان ، بعد ان استمتعت بقراءة النص الكامل لرواية « ميـــاه الربيع » ، تعال نقرأ هذا الفصل الممتع من كتاب « اندريه موروا » عن حياة ترجنيف ، وفيه يحدثنا عن فنه القصصى ، وطريقتـه فى كتابة الرواية :

فن ترجنيف

لعل المساجلات الأدبية وسيلة من أعنف وســائل شــغل الوقت وأشدها عقما وبطلانا ، ولو أنه بدونها ــ مع ذلك ــ تبدو الحياة للناس ، على قصرها ، طويلة باعثة على الضـجر والسأم . وكان حريا بمشاعر النشوة والاستحسان التى يوحى بها أديبـان مختلفا النزعات ، أن تـكون أحاسـيس متميزة متبـاينة ، لا مجال للقيـاس بينهـا أو المقـارنة ، ولا تستطيعأن تنال من بعضها البعض بأية حال . لكن الأدب الروسى الحديث ــ كما كان الشأن فى القرن السابع عشر ، حين كان المعجبون بالشاعر الفرنسى « راسـين » يتصرفون كالعشاق المتيمين الذين لا هم لهم الا أن يطردوا من أذهان خليــلاتهم ذكرياتهن عن « كورنى » ! ــ قــد أثار فى أوروبا الغربية طائفة منالنزوات والأهواء العجيبة الساذجة . فقد كان هناك من شغف ب «دوستويفسكى» وأحبه حبا متعنتا ، الا أن ذلك النفر من الناس ما كان ليتيه اعجابا به الا كيدا فى « تولستوى » ، وبالأخص فى « ترجنيف » !

وكما هى الحال فى معظم شئون الحياة ، يحدث دائما أن يحتجب وراء السخف السطحى شــعور صـادق عميق .. فالذى يستهوينا ونداًفع عنه لدى أديب من الأدباء ، ليس

عمله الفنى فى ذاته ، وانما هو — فى واقع الأمر — ميولنا وأذواقنا الدفينة . ذلك أن اتجاهاتنا الأدبية وما نؤثره من كتاب وقراءات ، تحددها دائما احتياجاتنا الوجدانية والذهنية . فحين نلمح فى احدى الروايات صورة صحيحة دقيقة لما يتولانا من قلق أو نشعر به من صفاء نفسى ، سرعان ما ننظر الى الناقد المناوىء لروايتنا المفضلة على أنه عدو شخصى لنا !

وفى عالم القراء ورجال الأدب — على السواء — تتباين الأمزجة وتتنافر ، وهو أمر طبيعى للغاية ، بل لعله أمر سليم يدعو الى الارتياح . وانما العجيب حقا هو الاصرار على احالة هذه المشاعر الذاتية الى أحكام مطلقة لا مرونة فيها ولا تساهل . **فالذى يأخذ على ترجنيف مثلا ان قريحته لم تخلق ما أبدعه دوستويفسكى من روائع ، لهو أشبه بمن يبدى حسرته وأسفه لأن شجرة التفاح لا تستطيع أن تثمر خوخا !!**

ويقول أنصار تولستوى ودوستويفسكى المتعنتون : « اننا لو قارنا بين العوالم التى خلقها الروائيون الروس الثلاثة فى مؤلفاتهم ، لاعترفنا عن طيب خاطر بأن عالم ترجنيف مطابق تماما لطبيعة خالقه ، وانه لا يخلو من جلال يهز النفوس ، بل انه صادق مستمد من الحياة.. لكننا نرى — مع ذلك — انه عالم صغير ضيق الدائرة ، سرعان ما يفرغ المرء من ارتياده واستكشاف معالمه . وحسب القارىء أن يطالع روايتين من روايات ترجنيف ، لكى يلم بالاطار كله الذى تتحرك فيه شخصياته .. فهو يكاد يتألف دائما من بيت فى الريف الروسى ، يملكه أحد النبلاء المتوسطى الثراء ، ومن خزائن قديمة تزينها نقوش نحاسية ، ومقاعد كبيرة بيضاء بيضاوية الظهر ، وثريات بلورية تتدلى منها الأحجار الكريمة ، وسرير

ضيق ذى ستائر من القماش المخطط ، وسجادة بالية ملطخة بالشمع ! .. أما المناظر فتقع غالبا فى مقاطعة (أوريول) ، بين غابات اشجار السندر والحور ، تظللها الفيوم والأبخرة الكثيفة الدائمة .. وأما أبطال ترجنيف ، فهم نماذج ضئيلو العدد ، يتحدثون فى معظم الأحيان لغة واحدة . فمنهم الـ « هملت » الروسى مثل **« بازاروف »** و **« رودين »** ، ومنهم الشيخ الذى يعد من رواسب القرن الثامن عشر ، والثورى المفوه العاجز ، والموظف القانع الطموح !.. أما دنيا النساء عنده ، فلا تكاد تتجاوز فريقين أو ثلاثة . فبينهن الفتاة الوديعة الرقيقة ، التقية غالبا ــ مثل **« تاسيانا »** فى رواية (**الدخان**) ، أو **« ليزا »** فى (**عش النبلاء**) ــ والمرأة الجامحة المتقلبة ــ مثل **« ايرين »** فى (**الدخان**) ــ والعذراء القوية ذات العينين الرماديتين والانف المستقيم والشفتين الرقيقتين .. التى تنم عن رغبة عارمة فى الكفاح والتفانى ، مثل **« ماريان »** فى (**الأرض العذراء**) .. على أن هؤلاء الرجال الثرثارين الخائرى العزيمة ، والنساء المشبوبات العاطفة الكريمات النفس ، لا يشكلون الا عالما محدودا مغلقا ، ما أشد الفارق بينه وبين الشخصيات التى يجيد تحريكها تولستوى ودوستويفسكى .. ! »

***

وقد يكون أصحاب هذا الراى على حق فيما يبدونه من وجهات نظر ، لكن الأمر الغريب حقا هو ما يأخذونه على عالم الفنان من انه ضيق محدود النطاق . **فقيمة العمل الفنى لا تقاس بأبعاده وأحجامه ، ولا بأهمية الشىء المعروض فيه . وما اشبه الذى يعتمد فى حكمه على هذه المقاييس بمن ينعى على رسامى مناظر الطبيعة الخامدة تفاهة موضوعاتهم ..**

ان شأنه فى ذلك كشأن الذى ينتقد رساما كبيرا لأنه لم يصور فى لوحاته الا حياة الأسر الفقيرة ، أو لم يتناول فى عمله الفنى سوى فريق ضئيل من الناس ينتمون جميعهم الى نفس البيئة ويمارسون عين النشاط ! .. فعظمة الفنان انما تتمثل ـ على العكس من ذلك ـ فى قدرته على الحد من حقل دراساته . وعلى هذا النحو قد تكفى لوحة صغيرة ، رسمت فى صدق واتقان ، لاعطائنا قدرا من الحقائق الانسانية لا تستطيعه لوحة ضخمة غير متقنة . وفى وسع الكاتب الروائى أن يصف وصفا صادقا ملامح وطباع ثلاثة أو عشرة من الألمان مثلا ، لكنه لا يمكنه ان يورد مميزات وخصائص ألمانيا بأسرها .. فليس من المهم اذن أن ترجنيف لم يضمن رواياته الا صورا لبعض الفلاحين فى ضواحى (سباسكوى) ، وانما الخليق بالأهمية انه استطاع أن يعطى من خلال كتبه صورة كاملة صادقة لروسيا فى عام ١٨٣٠ ، على نحو لم تفعله كتب التاريخ الطويلة التى وضعت عن تلك البلاد !

وفضلا عن ذلك ، فاننا اذا كنا نجد فى كل رواية من روايات ترجنيف ـ كما يزعمون ـ المرأة الجامحة النزوات ، وال « هملت » الروسى ، فان هذه الشخصيات لا تتشابه قط فى شىء .. ان « بازاروف » طراز من الرجال مخالف تماما لطراز « رودين » ، فهو صموت بقدر ما « رودين » ثرثار ، وهو ضارى الطباع ، قانط النفس ، قادر على الحب ، على عكس الشخصية الأخرى فى جميع معالمها .. و « لافريتسكى » بطل (عش النبلاء) قد يكون « هملت » آخر كذلك ، لكنه أكثر بساطة وأشد سذاجة . **وقد تجمع بين هذه الشخصيات جميعا سمات مشتركة ـ ولا مندوحة عن وجود هذه السمات ـ الا أن لكل منها طابعها الخاص المميز الذى رسم رسما دقيقا** . وربما تؤخذ على ترجنيف

ـ بشكل اكثر انصافا ـ الرتابة التى اتسمت بها شخصياته النسائية ، لكنه انتقاد خليق بأن يوجه أيضا الى روائيين مشهورين آخرين ، فمعظم الرجال يطارد تفكيرهم نوع معين من النساء لا يسعهم الا ملاحقته على الدوام !

كان ينتزع شخصياته من الواقع

والمأخذ الآخر الذى يعزونه الى ترجنيف انه لم يؤت قريحة خلاقة . وقد يبدو أنه يقرهم على ذلك اذ يقول : « **اننى لم استطع فى يوم من الايام أن اخلق شيئا مستمدا من خيالى وحده ، وانما أنا فى حاجة دائما ، عند رسم احدى شخصياتى ، الى انسان حى !** »

وفى وسعنا ان نقف ، من خلال الكراسات والمخطوطات التى خلفها ترجنيف فى باريس ، على الطريقة التى كان يتبعها الفنان لاستيعاب واستخدام الكائنات الحية . فحين كان يشرع فى كتابة احدى رواياته ، كان يضع أولا قائمة بجميع الشخصيات ، وكثيرا ما كان الاسم الحقيقى للنموذج مبينا أمام اسم بطل الرواية . وبعد اعداد هذه القائمة ، كان ترجنيف يدون بيانات عن سيرة كل من شخصياته ، مضمنا اياها وصفا مفصلا لأبعادها الجسمانية والنفسية ..

والذين درسوا « الصنعة الفنية » التى انتهجها كبار الروائيين ، يعلمون أن ترجنيف كان فى ذلك متشابها معهم الى أبعد حدود التشابه . **فالخلق الفنى ليس خلقا من العدم ، وانما هو تجميع لعناصر منتزعة من الواقع** . ومن الميسور التدليل على أن أغرب القصص ، والتى بدت لنا أبعد ما تكون عن التأمل الواقعى ، مثل (**رحلات جوليفر**) ، و (**أقاصيص**) ادجار بو ، و (**الكوميديا الالهية**) لدانتى ، انما هى كلها مجموعة من الذكريات .

ولكن اذا كان الخلق من العدم أمرا مستحيلا ، فانه لمن الصحيح أيضا أن الروائى لا يستطيع أن ينقل من الطبيعة الا بصورة تقريبية . ويقول ترجنيف : « اننى واقعى » ، مؤكدا بذلك أن واجب الفنان ان يرسم بأمانة ما يشاهده . الا أن المشكلة فى الواقع أكثر من ذلك تعقيدا ، اذ أن النقل من الطبيعة أمر محمود فى ذاته ، ولكن ما هى الصورة التى يجب أن يكون عليها ؟ .. ذلك أن الطبيعة معين لا ينضب ، وهى متعددة الجوانب ، سواء فى الزمان أو المكان . وفى ذهن المرء ، تتلاحق فى ساعة واحدة من الصور والخواطر ما يكفى لملء مجلد ضخم . فاذا ما أردنا أن نروى فى مثل هذا المجلد سيره – لا لرجل واحد ، وانما لمجموعة من الرجال والنساء – صار من الواجب أن تتخلى نزعتنا الواقعية عن بعض مطالبها ، فتعمد الى الحذف والتنقيح والانتقاء !

فالفن ليس الطبيعة ، وانما هو الانسانية قبل كل شىء . والحاجة التى يشعر بها الناس نحو فن من الفنون هى حاجتهم بالفعل الى جعل هذه الطبيعة المعقدة واضحة مفهومة لعقل الانسان ، بأن يضفوا عليها أبعادا ليست مرئية فيها .

ولابد للمرء اذن ، كيما يصدر حكمه على العمل الفنى ، (وذلك هو مذهب ترجنيف كله فى الأدب) ، أن يدرك أن فكرتى الواقعية والشاعرية غير متعارضتين . فالرواية لا تشبه الحياة ، اذ هى محدودة النطاق ، منسقة البناء ، مرتبة العناصر . لكن هذه الوحدة المتجانسة يجب أن تتألف من تفاصيل حقيقية ، وان تكون فى ذاتها مطابقة للواقع . ولم يحدث قط فى أية رواية من روايات ترجنيف أن بدا أحد الأبطال بمظهر من يقوم بدور من أدوار « الميلودراما » ! ..

مذهبه فى الوصف

ولكن اذا كان ترجنيف واقعيا بحكم ما يورده فى رواياته من تفاصيل صادقة ، فان انتقاءه لهذه التفاصيل هو الذى جعله فنانا عظيما . وقد سمعه « بول بورجيه » ذات يوم يلخص نظرياته فى فن الوصف بقوله : **((ان موهبة الوصف تكمن كلها فى الاختيار الدقيق للتفاصيل الايحائية .. ان الوصف يجب دائما أن يكون غير مباشر ، ويجب أن يكون ايحائيا وليس مرئيا !))** .

فالاكتفاء بالتفاصيل الأساسية ، والجنوح الى الايحاء بدلا من التبيان والتصريح لهما من القواعد والاساليب التى تضفى روعة وقوة على الشكل الفنى فى الكتابة . ولقد قارن البعض بين فن ترجنيف والفن الاغريقى ، وانهما لمقارنة فى موضعها ، اذ أن كلاهما يوحى بشىء متكامل ، بما يستخدمه من تفاصيل انتقيت انتقاء فائقا !

والملم بالطرق الفنية التى تكتب بها الروايات ، لا شك يعجب كيف استطاع ترجنيف ، بكتبه القصيرة المقتضبة ، أن يثير فى نفس القارىء هذا الاحساس القوى بطول زمن القصة وتكامل جوانبها . ولو حللنا « الصنعة الفنية » عند ترجنيف ، لوجدنا أنها تطوى فنا فى بناء الأحداث بالغ الروعة . فالأحداث فى رواياته تجرى دائما فى لحظة أزمة .. وعلى خلاف كتاب مثل « مريديث » و « جورج اليوت » وحتى « تولستوى » ذاته ، الذين يحلو لهم أن يرووا قصة بطلهم منذ أيام طفولته ، نجد أن ترجنيف يتصدى لموضوعه دفعة واحدة . فرواية **(آباء وأبناء)** تجرى حوادثها كلها فى أسابيع قلائل ، وكذلك **(الحب الأول)** ، كما ان رواية **(الدخان)** تبدأ عند اللقاء ببطلة القصة « ايرين » . وبعد أن يندمج القارىء بمشاعره

فى أحداث الرواية ـ وبعدئذ فقط ! ـ يعود به الكاتب القهقرى ، فيسلك معه بعض الدروب التى يرى ضرورة ارتيادها !

وحين يطالع المرء روايات ترجنيف ، تتبادر الى ذهنه على الفور « وحدة الزمان » التى كانت شرطا من شروط التراجيديات الكلاسيكية الفرنسية .. **وان ترجنيف لكلاسيكى كبير بالفعل ، بل انه ـ شأن كبار الكلاسيكيين ـ لا يكاد يحفل بحبكة روايته .** فهو ـ مثل « موليير » الذى كان يعالج فى مسرحياته موضوعات معروفة متداولة ـ يريد أن يرسم قبل كل شىء معالم شخصية من الشخصيات ، أو يصور لونا معينا من الأحاسيس. وهو ـ مثل موليير ايضا ـ يكتفى بايراد نوع من المقابلة بين شخصياته . فالمرأة الخطرة مثل « فارفارا » أو « ايرين » ، تقابلها الفتاة الطاهرة النقية مثل « ليزا » أو « تاسيانا » .. والفنان يقابله الرجل العملى المادى .. والآباء يقابلهم الأبناء .. الخ .

بين الواقعية والشاعرية .. والذاتية والموضوعية

على انه لا يكفى عند التحدث عن فن ترجنيف وصفه بأنه فن « واقعى » ، وانما لا بد من التنويه بأن ترجنيف كان ذا واقعية شاعرية . ذلك انه من المتعذر على القارىء أن يفكر فى احدى روايات ترجنيف دون أن تداعب خياله صورة كبرى للطبيعة ، تختلط فيها المناظر الطبيعية بالعواطف والمشاعر .. والفنان الذى يتميز بواقعيته الشاعرية يدرك أن حياة الناس ليست مجرد طائفة من التفاصيل التافهة

الرخيصة ، وانما هي حافلة أيضا باحساسات القلق والمجهول وخيبة الأمل . فالحلم جزء من الحقيقة ، وتجاهله وتعمد استبعاده من شأنهما ان يجردا هذه الحقيقة من صورتها الانسانية !

وقد كان ترجنيف يعتقد أن أية صورة من صور الحياة خليقة بأن تكون ناقصة مشوهة ، اذا جاءت خلوا من المشاعر الرقيقة ومن بعض خلجات السعادة .

وهذه الملامح التي اتسم بها فن ترجنيف قد تلقى في الروع — للوهلة الأولى — ان فن الأديب الروسى الكبير انما هو ذاتى قبل كل شيء .. على أن ترجنيف كان يرى — على نقيض ذلك — ان من واجب الروائى أن يكون موضوعيا ، « وان يتوارى دائما خلف أبطاله ، فلا يفته قط أن يقطع الحبل السرى بينه وبين شخصياته ! » .. وقال ذات يوم لشاب كان يريد أن يكرس حياته للأدب : « اذا كانت دراسة الطبيعة البشرية وحياة الآخرين تعنيك أكثر من التعبير عن مشاعرك الذاتية وآرائك الخاصة ، واذا كان يطيب لك أن تصور — فى صدق واتقان — قسمات .. لا الانسان فحسب ، وانما أيضا أى « شيء » عادى ، أكثر مما يلذ لك ان تعبر لنفسك فى بلاغة وحرارة عما تحسه عند رؤية هذا الانسان أو ذلك الشيء ، فان هذا يعنى انك كاتب موضوعى ، وان فى وسعك أن تشرع فى كتابة اقصوصة أو رواية ! »

ويبدو أن هذا المذهب — الذى كان مذهب « فلوبير » أيضا — يناقض الطريقة التى يسير عليها اليوم الروائيون المحدثون . فمعظم هؤلاء الروائيين يصورون بشكل ذاتى للغاية الاحاسيس المتولدة عن حدث خطير ، وذلك بتحليل

هذه الأحاسيس ، بدلا من وصف الأحداث التى أدت اليها .. والواقع أن المذهبين لا غبار عليهما . اذ فيم الاختيار بين الكاتب الموضوعى والكاتب الذاتى ، طالما ان هناك أكثر من وسيلة للايحاء بالحقائق الانسانية ! ؟

على أن الفنان ، بالغا ما بلغت نزعته الموضوعية ، لا يمكنه مطلقا أن يمنع شخصيته من التدخل فى عمله الفنى . فالانسان يتميز عادة بعدد من المسائل التى تشغل تفكيره ، وهى لا تنفك تنكشف وتبرز رغما عنه .

ثم ان ترجنيف ما كان ليمتنع عن تأمل ذاته ، فقد كان يرى أن الفنان يجب أن يعتبر كل شىء ـ حتى ذاته ـ موضوعا للتأمل . وفى هذا يقول : «يجب على الكاتب الا يدع الألم يسحقه ، وانما من واجبه انيستخدم كل شىء فى كتابته .. ان الكاتب رجل متوتر الأعصاب ، وهو يحس أكثر مما يحس الآخرون ، ولهذا وجب عليه أن يتحكم فى نفسه ، وأن يراقبها دائما كما يراقب الآخرين ! » . ومن هنا ، يتضح أنه كان ذاتيا وموضوعيا فى آن واحد ، اذ لم يكن يميل الى الأخذ بأى منهج أو مذهب بعينه فى الكتابة ، بل كان يعتقد أن الحرية شىء ضرورى للفنان ، وان الكاتب لا ينبغى أن يكون مخلصا الا لنفسه ، وليس لأى مذهب من المذاهب !

وكانت ثمة مسألة لا يتساهل ترجنيف فى شأنها بأية حال من الاحوال . **فقد كان يؤمن ايمانا راسخا بانه ليس من واجب الفنان محاولة اثبات نظرية معينة فى عمله الفنى ،** على اعتبار ان الفنان والرجل الاخلاقى يختلفان اختلافا كليا فيما يؤديانه من رسالة ..

فلسفة ترجنيف

كتبت احدى السيدات يوما الى ترجنيف تخبره بأنه مطلوب من ولدها أن يعد موضوعا عن فلسفة ترجنيف، وتسأله أن يمده ببعض نصائحه فى هذا الشأن . ودهش الروائى الروسى الكبير، وتولاه حرج شديد، فلم يكن يدرى أن له فلسفة على الاطلاق، بل كان يحسب أن الفنان انما هو متفرج قبل كل شىء، اذا زج بنفسه فيما يدور أمامه من مشاهد الحياة، سقطت عنه الى حين صفته كفنان . وقد يستعيد فيما بعد، فى ظل الهدوء والسكينة، الأحاسيس التى تملكته اثناء العمل، وقد تستحيل هذه عندئذ الى مادة فنية يمكنه أن يستخدمها فى انتاجه، الا أن الكفاح من أجل الافكار المجردة كان يبدو دائما لترجنيف بالغ الخطر على الكاتب . وقد كتب ذات مرة فى هذا الصدد يقول : « اننى حين لا أرى أمامى اشكالا ملموسة، أشعر بالضياع التام ولا ادرى أية وجهة أسلك !.. انه يبدو لى دائما أن هناك من يستطيع أن يؤكد بنفس القوة والصدق الرأى المعارض لرأيى . **أما اذا تحدثت مثلا عن أنف أحمر أو شعرة بيضاء، اذ ذاك تكون الشعرة بيضاء والأنف أحمر فعلا، وما من منطق يمكن أن يغير من هذه الحقيقة شيئا ! »** .

وقد كتب يرد على السيدة التى سألته أن يلخص لها فلسفته، قائلا : « سأقول لك باختصار اننى، قبل كل شىء، رجل واقعى لا يعنيه سوى الحقيقة الحية للوجه الانسانى .. اننى لا أحفل بكل ما هو خارق، ولا أومن بالحقائق أو المناهج المطلقة .. **اننى شغوف بالحرية أكثر من أى شىء فى الدنيا**، كما اننى – فيما اعلم – شديد التأثر بالعظمة

والجلال .. ان كل ما هو انسانى عزيز على نفسى ! » .
وكان رده أمينا صادقا ، يلخص أروع تلخيص اتجاهه الفلسفى بأكمله ، وهو من أندر النصوص الايجابية التى يمكن أن تستشف منها نظرة ترجنيف الى الحياة .

كان متشائما

وليس من شك فى أن ترجنيف كان متشائما ، على الأقل فيما يتعلق بعالم القوى والأشياء . وعنده ان الايمان بأن الطبيعة خيرة ، لهو ضرب من الجنون . فالطبيعة ليست بخيرة ولا بشريرة ، وانما هى عديمة الاكتراث !.. انها تخلق كائنات ، دون أن يعنيها المصير الذى ستنتهى اليه هذه الكائنات .. انها تخلقها حتى تحارب بعضها بعضا ، وهى تضع فى أيديها أسلحة القتال ، وتقوى الجانبين فى غير مبالاة .. انها أشبه بالحكم الأعلى الذى يشهد حربا أبدية ، بامداده الجيشين المتعاديين بالأسلحة والذخائر !! »
ومما يذكر أن ترجنيف كان قد شهد ذات مرة أثناء طفولته معركة بين حية وضفدع ، فتكونت عنده منذ ذلك الحين بذرة الكراهية لكل المعارك الطبيعية . ولم يفلح مشهد الحياة الانسانية فى تغيير الأفكار التى رسخت فى ذهنه وهو طفل.. **وكان الكون يلوح له وكأنه محكوم بقوى جبارة ، لكنها قوى لا تعى ولا تكترث مطلقا بالقيم التى تهم الانسان ، مثل الخير ، والعدالة ، والسعادة** . وكان طبيعيا الا تكون العقلية التى تعتنق مثل هذه المفاهيم عقلية دينية . فلم يكن ترجنيف يعتبر الناس فى نطاق الكون أكثر أهمية من النمل ..
ولعل أقوى احساس شعر به ترجنيف فى أعماقه كان ضآلة الانسان وتفاهته أمام عظمة الأشياء . ولو قدر للناس أن يقيسوا ويتأملوا اللانهائية ، لبدت لهم عندئذ جميع

جهودهم عقيمة ضائعة ، وأنهم ليتألمون ويتعذبون لكى يكون مصيرهم النهائي الموت الذى هو فى ذاته شيء تافه !.. حقيقة أن الحب يمنح أحيانا بنى البشر التعساء احساسا خارقا بالقوة والعظمة والأهمية ، الا أن الحب نفسه لا يخرج عن كونه صورة من المعركة الأبدية .. يقول ترجنيف : « **ليست فى الحب مساواة .. كلا ، فهناك سيد واحد وعبد واحد ، ولعل هذا ما حدا بالشعراء الى التحدث عن أغلاله وقيوده ..** وستدرك يوما كيف أن هذه الأغلال البادية الرقة تعذب النفس وتحطم القلب .. سوف تتبين مدى الكراهية التى تختفى وراء أشد أنواع الحب عنفا ، وستتنهد كالمريض الذى فقد صحته وراحته .. ستعرف معنى أن يكون الانسان تابعا لامرأة ، وستشعر بمبلغ الخزى والعار الذى ينطوى عليه هذا الاستعباد .. ! » .

***

على أن التشاؤم عند ترجنيف كان نابعا - على الأرجح - من عقله ، وليس من قلبه الذى كان بسيطا عادلا .. ولقد كان على حق حين قال انه لم يخلق للأفكار المجردة ، وانه لا يشعر براحة النفس الا عند تصويره للعالم الواقعى المحسوس الذى كان يشعر بجماله وتنوع جوانبه . فاذا كان عالم القوى يبدو بلا رحمة لترجنيف ، فان هذا ليس شأن الكائنات البشرية التى تستطيع أن تتأثر بعواطف الصداقة والحب والجلال . وعلى هذا النحو ، نجد أن المحبة والثقة تحتلان مكانة كبيرة فى روايات ترجنيف ، بمجرد أن يتصدى لتصوير طائفة من بنى البشر . فهو يحب الناس ، وبشكل أعم ، جميع الكائنات الحية ، ويعجب بالحماس الذى يمضى به الانسان والحيوان - فى هذا الكون الأعمى الشديد العداء -

فى تكوين « واحات » من الألفة والحنان !.. **لقد شيد الناس عالمهم الصغير داخل العالم الكبير عديم الاكتراث ، وتلك هى الفلسفة الحقة عند ترجنيف الذى لم يكن يقدر شيئا فى حياته مثل المحبة والشجاعة** . ومن هنا نشأ حبه للفلاحين الروس ورجال الماضى ، وجاءت كتبه زاخرة بالشخصيات الطيبة الصالحة التى تفيض رقة وحنانا ، والتى ما كان ليرسمها قلم رجل متشائم . الا انه لا يمنح محبته الا للقوم البسطاء ، ولا يسبغ السعادة الا على أولئك الذين ارتضوا أن يعيشوا حياة الزهد والتواضع ..

الايمان عند ترجنيف

وقد أخذ ترجنيف على العلوم والثقافة انها تنشر أفكار الدين ، وتبعد بذلك طبقة المثقفين عن الفضائل التى أوجدتها التقاليد المسيحية المتعاقبة ، كفضائل الايمان ، والمحبة ، وانكار الذات ، التى كان ترجنيف يرى أنها لم تعد تشمل الا القوم البسطاء دون غيرهم . وكان يقول : « **ان من أوتى الايمان ، ملك كل شىء ، ولا يمكن أن يفقد شيئا . والذى لم يؤت الايمان ، لا يملك شيئا** .. وانني لأحس بقوة هذه الحقيقة بقدر ما انتمى الى أولئك الذين لا ايمان عندهم ! » . ومن هنا ، كانت ترسخ فى أعماقه بعض رواسب الماضى ، وشىء أشبه بالنزعة الدينية أخفى حقيقتها تشاؤمه الزائد ! على أن تلك النزعة الدينية ما كانت لتأخذ عند ترجنيف صورة أية عقيدة ايجابية ، وانما كانت مجرد عقيدة من العقائد. ذلك أنه كان يرى أن الانسان يتعين عليه أن يمارس نوعا من الايمان ، كيما يحتفظ فى سن النضوج بجانب من تلك القوة الخارقة التى تمنحه اياها أوهام الشباب فى مستهل حياته . فالسعيد هو الذى يحتفظ بقلبه الشاب حتى

الشيخوخة، دون أن يفقد ايمانه بالمحبة وقوة العزيمة وقيمة العمل !

وهكذا انتهى الأمر بترجنيف المتشكك الى الدعوة الى الايمان والاشادة بالمؤمن . على انه ليس فى هذا أى نوع من التناقض ، فالواقع أن التشكك الذى أظهره ترجنيف لم يكن الا تشككا سطحيا ، اذ كان يملأ أعماقه من العقائد ما يكفى لجعل الحياة رائعة خلابة ، ويكفل له أن يعيش حياة الصديق الوفى والفنان الحق . **وكان ترجنيف أشد ما يكون بغضا للمغالاة ، والنفاق ، والحماس المفتعل ، والمشاعر المصطنعة ، وقد ظل طوال حياته يكافحها باسم الحقيقة والصدق .**

ورغم التشاؤم الذى تنطوى عليه بعض رواياته ، فانها لا تلقننا درسا فى اليأس وتثبيط العزيمة ، وانما تبث فى نفوسنا حب البساطة والتواضع !

اننا نجد فى كتب ترجنيف ، الحياة كما نحس بها فى قلوبنا .. حزينة ، متقلبة ، غامضة . وهى لا تترك فى أعماقنا ـ مع ذلك ـ أى احساس بالضغينة او خوار الهمة ، بل شعورا دافقا بالجمال .. اننا ما أن نفرغ من مطالعة أحدها ، حتى نلقى أنفسنا مستغرقين فى أحلام تتلاحق فيها صور غابات تغمرها أشعة الشمس، ونساء فاتنات يحركن المشاعر ، وآباء يفيضون رقة وحنانا ، ومراهقين استبدت بهم الحيرة والأهواء .. **لقد أدرك ترجنيف أن الحياة قاسية لا ترحم ، فلم يحاول أن يضفى عليها تفاؤلا زائفا مفتعلا . على أنه لم يفقد ثقته لحظة واحدة فى الطبيعة البشرية ، بل كان على يقين من أن من يحاول أن يسبر أغوار أشد النفوس جنوحا الى الشر ، لا بد واجد فيها ـ مع ذلك ـ جانبا من الاحساسات النبيلة الطاهرة !**

أيديال
ثلاجة ٩ قدم
ثلاجة العمر

مياه الربيع

فى الجزء الأول من هذه القصة الخالدة ، الذى صدر منذ أسابيع ، رأينا كيف التقى بطل القصة "سانين" أثناء رحلته فى المانيا ، بالحسناء الايطالية "جيما" ، فتعلق بها قلبه منذ اللحظة الأولى .. لكنه لم يلبث أن عرف أنها مخطوبة لأحد رجال الأعمال الألمان ! .. وهنا يتدخل القدر فيصنع المعجزة ، حين يوجه أحد السكارى إهانة إلى الخطيبة فى مطعم عام ، فلا يتحرك خطيبها لرد الإهانة ، وإذ ذاك ينبرى "سانين" لموجه الاهانة فيدعوه إلى المبارزة ! .. وعند هذا الحد وقف بنا الجزء الأول من القصة والشاب منطلق إلى مكان المبارزة التى قد يفقد فيها حياته دفاعا عن شرف الحسناء التى .. أحبها !

وفى هذا الجزء الثانى والأخير من القصة ، نتابع أحداثها الشائقة ، ثم نفاجأ بدخول عنصر نسائى جديد فى القصة ، هو الثرية الروسية التى .. عشقت "سانين"

فأى المرأتين تنتصر .. وتفوز بالرجل ؟

.. وماذا يكون مصير العاشقة المهزومة ؟ .. وكيف تنتهى هذه القصة الرائعة ؟

ذلك ما أتركك تستمتع بقراءته بنفسك ..

يصدرها حلمى مراد

مطبوعات كتابى